

دراسات وتحليلات عن الثورة الحسينية
أهدافها، ظروفها، وقائعها، نتائجها

محمد نعمة السماوي

الجزء السابع

دار المرتضى


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع ايمان أبي طالب في كفة ميزان وايمان هذا الخلق
في الكفة الاخرى لرجح ايمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com


موسوعة
الثورة الحسينية
٧

دار المرتضى

للطباعة والنشر والتوزيع
لبنان - بيروت
تليفاكس ٨٤٠٣٩٢ ٠٠٩٦١١
ص.ب.: ٢٥/١٥٥ الغبيري
E-mail: mortada14@hotmail.com

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

موسوعة

الثورة الحسينية

دراسات وتحليلات عن الثورة الحسينية

أهدافها، ظروفها، واقعها، نتائجها

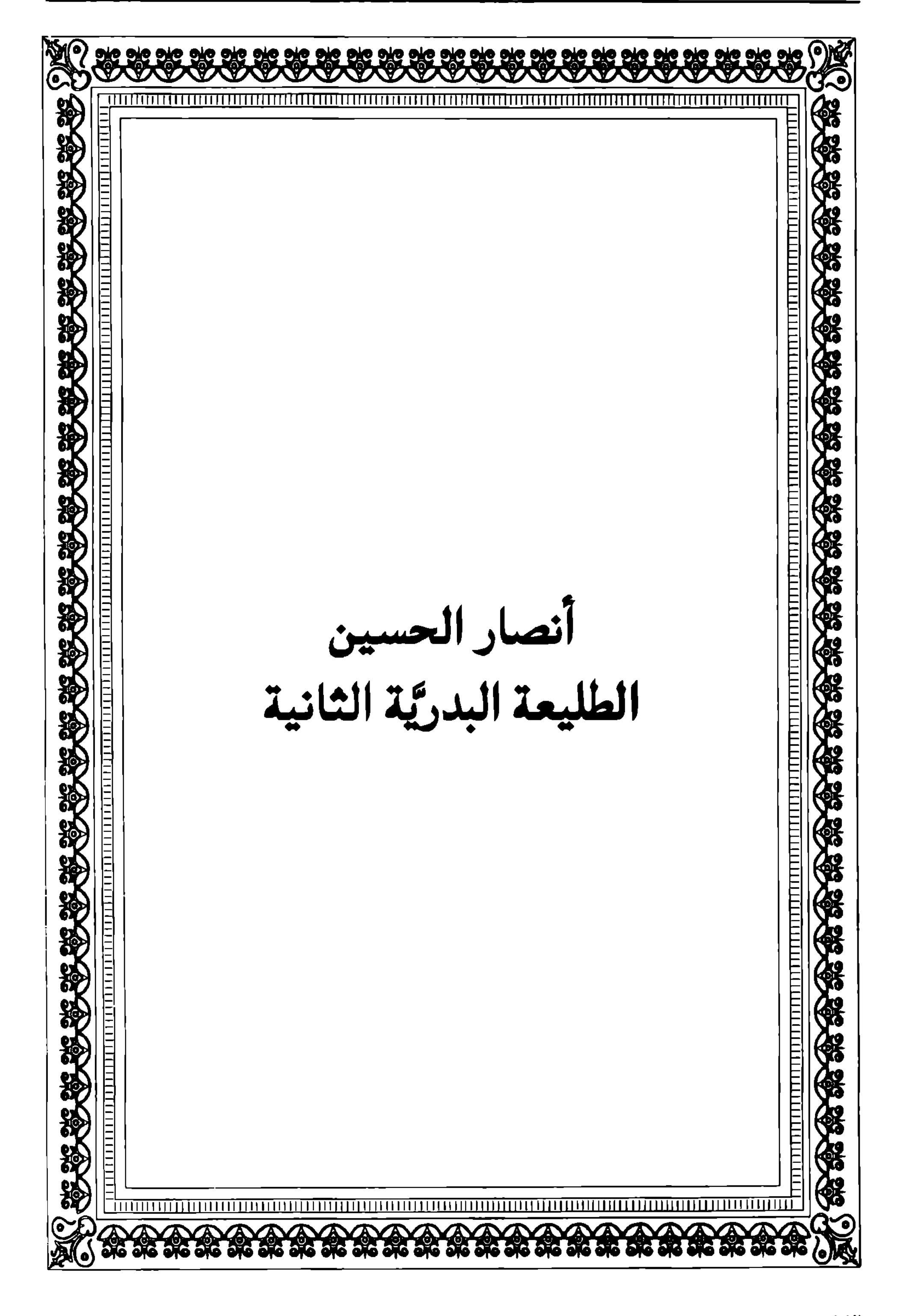
أحاديث عن أنصارها ومناوئيها
ونتائجها المباشرة والبعيدة
وبحوث في تاريخ الإسلام والمسلمين
ومجتمعاتهم في ظل الخلاف والانحراف

محمد نعمة السماوي

الجزء السابع


بسم الله الرحمن الرحيم

مضامين الكتاب وبحوثه



أنصار الحسين
الطليعة البدريَّة الثانية

أنصار الحسين الطليعة البدرية الثانية

بدر.. أول معركة بوجه الشرك واستجابة تامة لله ورسوله

واجه أصحاب رسول الله ﷺ في بدر قريشاً حينما أقبلت بخيلائها وفخرها تحاد الله وتكذب رسوله. وقد وقف أولئك الصحابة الكرام وقفة العزيمة والبسالة بوجه من فاقوهم عدة وعدداً، وصوت رسول الله ﷺ: (والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابراً محتسباً مقبلًا، غير مدبر إلّا أدخله الله الجنة)[1]. يتردد في أسماعهم، وذكر الله يملأ قلوبهم. وقد قتل منهم (أربعة عشر رجلًا، ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار)[2]، وقتلوا من قريش أضعاف عددهم.

لقد بدا واضحاً للمسلمين كلهم فيما بعد، أن أصحاب الرسول ﷺ قد انتصروا في بدر، أحياءهم وقتلاهم، إذ كانوا متيقنين واثقين بوعد الله ورسوله لهم بالجنة؛ فهم لم يقاتلوا ويقتلوا إلا في سبيل الله ولوجهه الكريم فقط.

كانت أول معركة حقيقية خاضها المسلمون بوجه الشرك والاستغلال والظلم، وبوجوه طغاة قريش وعتاتها وفجارها وكان مقياس النصر لأولئك الذين اندفعوا لخوضها من المسلمين، أنهم حسبوا أنفسهم فائزين في حالتي التغلب على العدو والانتصار عليه في ساحة المعركة أو الشهادة؛ فلم يكن الموت نهاية مأساوية، وخسارة أبدية لحياة انقضت وانقطعت، وإنما كان بداية لحياة دائمية في جنان الخلد.

بهذه العقلية وهذا التصور خاض المسلمون الأوائل معاركهم كلها بقيادة رسول الله ﷺ وتوجيه منه ورموا أنفسهم للموت دون خوف أو تردد. للدفاع عن الإسلام ونشره في ربوع الجزيرة العربية ثم في العالم كله فيما بعد وكان ذلك الطراز من المعارك مبعثاً لفخر المسلمين جميعهم في كل العصور، حتى ود كثيرون منهم لو أنهم

---

(١) الطبري ٢/ ٣٣ وابن الأثير ٢/ ٢٣ وابن هشام السيرة النبوية ٢/ ٦٢٧.

(٢) المصادر السابقة

عاصروها وشاركوا فيها وقتلوا عدوهم أو قتلوا هم. ولعل ذلك بدا لهم حلماً من أجمل الأحلام أو أمنية من أجمل الأمنيات.

فما الذي تغير في تلك المدة القصيرة الواقعة بين معركتي بدر والطف، حتى تجعل المسلمين يفقدون القدرة على الدفاع عن الإسلام والانتصار له، ولا يتقدمون بتلك الروح وتلك العقلية الرسالية التي حملوها زمن الرسول ﷺ وتقدموا بها لخوض معركة بدر، ولا يجدون في أنفسهم الجرأة على المشاركة بمعركة الحسين في الطف.؟.

هل تغير الإسلام.؟.

أم تغيرت الطبائع البشرية والنزعات والغرائز والدوافع الإنسانية.؟.

وهل أن أولئك الرجال الأوائل كانوا نماذج غير ممكنة التكرار أبداً؟.

لماذا لا نستغرب أو نصاب بالدهشة ويصبح لدينا أمراً منطقياً ومقبولًا تقدم أصحاب الرسول ﷺ بتلك العزيمة والشجاعة النادرة النابعة عن اليقين الثابت بالله والوعي الأكيد برسالته، ونستغرب أو نندهش عندما يتكرر الأمر، في موقف آخر بعد ذلك ومع رجال يمتلكون نفس اليقين والوعي. مع أنه لم يمض سوى حوالي نصف قرن يفصل بين الموقفين؟.

لولا بدر لاندثر الإسلام ودعوة الرسول ﷺ

لقد كان الإسلام معرضاً للاندثار والضياع إلى الأبد، لو انتصر المشركون في معركة بدر، ولهذا دعا رسول الله ﷺ ربه قائلًا: (اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض)[1]، وكان معرضاً للاندثار والضياع ثانية لو لم يقم الحسين عليه السلام بثورته على العصابة الأموية المنحرفة ولو لم يواجهها بتلك العزيمة وذلك الثبات.

وبقيت تلك العصابة الأولى من أهل الإسلام، ولم يستشهد منها إلا أربعة عشر نفراً. ولم يحسب أي أحد منهم وقف صابراً محتسباً، نفسه إلا منتصراً وقد بذل كل جهده وأدى مهمته بكل ما يملك من طاقة وقوة. سواء الذين استشهدوا أو الذين بقوا أحياء ليكملوا مهماتهم في فهم الإسلام ونشره واعلاء كلمة الله لتكون هي العليا.

(١) نفس المصادر السابقة.

استجاب البدريون لرسول الله ﷺ وقد كان يقودهم ويوجههم بشكل مباشر. وبعد ذلك استجاب له كل أولئك الذين خاضوا معارك الإسلام ضد أعدائه، وكأنهم تحت قيادته وتوجيهه المباشر.

أية مكانة كبيرة لرسول الإسلام العظيم ﷺ في نفوس أولئك المؤمنين الذين انطلقوا بوعي وإرادة حرة متبصرة على الطريق الذي اختطه لهم ورفعوا رايته واستشهدوا في سبيل الإسلام، مع أنهم لم يروا ذلك الرسول الكريم ولم يعيشوا معه أو يستمعوا إلى أقواله بشكل مباشر؟.

وأية قوة جعلتهم يحرصون على التمسك به وبدينه وآل بيته رغم المحن والشدائد والتعرض للقتل؟ لا بد لمن يعيش الإسلام ويتصدى لمشاكل الأمة ومحنها أن يضع الله ورسوله ﷺ نصب عينية، وينطلق كما لو أن الرسول ﷺ أمامه يوجهه ويرشده ويقوده. بقي الإسلام عندما بقيت تلك العصابة البدرية الأولى التي كان يقودها رسول الله ﷺنفسه، واستمر بعد أن ترسخ، وحتى عندما مات أفرادها فيما بعد.

نكسات وحروب من الداخل

ولقد مر هذا الدين بنكسات عديدة، وقد أوشكت المكاسب التي حصل عليها المسلمون في ظله وبفضل تضحيات الرجال الأوائل منهم، أن تسلب ويسطى عليها بوضح النهار بفعل بعض القوى الطارئة الدخيلة التي التحقت بالإسلام ظاهرياً وتجنست به بشكل رسمي معلن، إلا أنها أضمرت البقاء على مواقفها وتصوراتها وقيمها الأولى.

ولا شك أن آل أبي سفيان وأغلب الأمويين كانوا في مقدمة تلك القوى التي التحقت بركب الإسلام الذي أوشك أن يفوتها عندما لم تجد مناصاً من ذلك وقد أحنت رؤوسها أمام عاصفته القوية. استثمرته ووظفته لصالحها وسطت عليه بشكل تام بعد أن استثمرت واستغلت الانحرافات والأخطاء الأولى وعمقتها وأضافت إليها انحرافات وأخطاء أخرى، حتى استدرجوا المسلمين إلى حافة الانحراف دون أن يشعروا ودون أن يدركوا أنهم قد أصبحوا عبيداً للدولة الأموية لا لله وأنهم قد استسلموا استسلاماً أبدياً وأنهم قد خضعوا خضوعاً تاماً لمعاوية مهندس الانحراف الكبير وواضع برامجه الدائمية.

أبو سفيان: حارب الإسلام.. فآلت مكاسب المسلمين إلى أولاده

لقد وضع المسلمون مكاسبهم ومقدراتهم وحياتهم لقمة سائغة في فم معاوية، ولم يعد أحد منهم يجرؤ على مناقشة (أمور الدولة) المستأثرة بكل شيء والمسيطرة على كل شيء. وعندما كان يصرح أنه خليفة الله، وأنه مخول بكل ما يراه مناسباً للحفاظ على دولته، وأخذ كل ما يريد أخذه وترك ما يرى تركه بشكل كيفي مطلق لا يتقيد بقانون أو قيمة إسلامية عليا ـ كما ذكرنا ذلك من قبل ـ فإنه كان بذلك يجس نبض الأمة، ويتأكد من سكوتها إلى الأبد ووقوعها جثة هامدة بين يديه. وقد تأكد من ذلك فعلًا، ومن ثم أقدم على فعلته المدمرة القاتلة باستخلاف يزيد، وهو آخر شخص تفكر فيه الأمة خليفة لرسول الله ﷺ.

إنه ليس أمراً مبالغاً نقول أن الإسلام كان على وشك الانهيار، وإن بعض الشكليات المتبقية منه التي رأى معاوية الحفاظ عليها، لم تكن تتيح للمسليمن انقاذ أنفسهم من الخطر الأموي المحدق. الخطر الذي كان يسير باتجاه تعزيز سلطة دولة ملحدة بالفعل، متظاهرة بالإسلام كغطاء شرعي تبرر به وجودها وحكمها. ولعل تظاهرها بالإسلام هو مصدر الخطر الرئيسي على الأمة.

قبول يزيد خليفة الوصول إلى قرار الهاوية

ولا أدل على انحدار الأمة ووصولها إلى قرار الهاوية، من قبولها يزيد إماماً لها وقائداً وخليفة لرسول الله ﷺ نفسه، وقد علمت أن يزيد ليس له من المؤهلات ما يتيح له أن يكون حتى كاتباً للخراج في أصغر مدينة إسلامية. بل إن الأمر تعدى ذلك حتى ليمكن القول أنه جمع من المساوىء والعيوب ما لا يمكن معه الإدعاء أنه ينتمي للإسلام أصلًا. ومع ذلك، فقد استدرج معاوية الأمة وأوصلها إلى حال قبلت فيه يزيد. وذلك بفعل مبرمج مخطط له، مرصودة له امكانات هائلة ذكر لنا التاريخ تفاصيلها ومفرداتها بوضوح وسرد مفصل، وقد فعلت أحداث عديدة فعلها لمساعدة معاوية في مسعاه القاتل والفاضح الذي كانت أول نتائجه قيام حفنة بعيدة عن الإسلام وقيمه وتصوراته وأخلاقه باحتلال مراكز القيادة الإسلامية والتمهيد لفئات مشابهة وربما أكثر انحداراً وانحرافاً لاحتلال مراكز مماثلة فيما بعد.

كان وجود يزيد خليفة نكسة خطيرة لم يحس بها المسلمون إلا احساساً ضعيفاً بتأثير معاوية الذكي الماكر المتمكن الغني، وكان لا يكفي لتخليصهم من ذلك مجرد

القيام بالتنبيه إلى خطورة الحال أو الدعوة المتخفية المتسترة لانقاذ أنفسهم مما وقعوا فيه.

كان لا بد من فعل حاسم جريء غير مألوف، يلفت نظر الأمة إلى خطورة حالها وأوضاعها ولا بد لمن كانوا يريدون القيام بذلك الفعل، أن يكونوا أمثلة حية وناطقة على إيمانهم بالإسلام وتجسيده في سلوكهم وأخلاقهم، وبجدوى ما يقومون به، والتضحية في سبيله؛ إن كانوا حقاً يريدون اعادة الأمور إلى نصابها، واعادة الإسلام إلى موقعه الأول في الحياة وفي نفوس المسلمين.

وينبغي أن لا يعير أولئك اهتماماً لما سوف يقع لهم، عند محاولتهم التصدي لهذه الدولة الظالمة، حتى وإن قتلوا واستؤصلوا، فالإسلام قد وجد وانتشر وحكم، غير أن مكاسبه قد سرقت والمسلمين قد غدر بهم.

فإذا ما قتلت حفنة صغيرة في سبيل الإسلام، فإن ذلك سيدعو الآخرين في كل مكان وزمان للتأمل في أسباب ذلك ودوافعه، وسيدفعهم إلى اعادة النظر بمواقفهم وحياتهم في ظل دولة الظلم والجور والانحراف التي تقام على انقاض دولة الإسلام. وسيدفع كثيرين إلى انتهاج نفس الموقف الذي وقفه الرجال المضحون بأنفسهم لاعادة الإسلام إلى موقعه الصحيح.

لم تكن مهمة أولئك الرجال الذين أرادوا تغيير حال الأمة وانتشالها من ورطتها وتخليصها من محنتها، وهم يتلقون التوجيهات والعون من الإمام الحسين عليه السلام حفيد الرسول الكريم ﷺ وابنه وصيه، لتقل عن مهمة أولئك الرجال الأوائل الذين تلقوا التوجيهات والعون والدعم من رسول الله ﷺ مباشرة.

من أجدر بمهمة رسول الله ﷺ من الحسين عليه السلام؟

ومن أحق بفهم مهمة الرسول ﷺ من حفيده ووصيه بل نفسه ومن تربى في بيته وبتوجيهه. ومن أجدر أن تسير وراءه الأمة وتتبعه وتتلقى عنه، من هذا الحفيد الذي كان الأمل الوحيد المتبقي لها والذي كانت ترصده وترصد رد فعله ومواقفه تجاه دولة الظلم التي أصبح يزيد قائداً لها، وتنتظر كلمته للنهوض والخلاص.

غير أن قوة وامكانات دولة الظلم الأموية كانت مكرسة ومهيأة للوقوف بوجه هذا النهوض المحتمل بل المؤكد وقمعه، فأعدت للأمر عدته مسبقاً واتخذت

الاجراءات اللازمة التي من شأنها أن تقضي على الثائرين والمنتفضين بوجهها ووجوه أعوانها ومريديها.

ولئن اتخذت الأحداث المسار الذي اتخذته، وقتل الحسين وأصحابه ، فإن هذه الثورة قد حققت الغاية منها بالتأكيد، وقد نبهت الأمة بشكل واضح إلى خطورة حالها، وأنها كانت على وشك الانهيار والموت إلى الأبد، كما سنوضح ذلك إن شاء الله، عند التحدث عن نتائج هذه الثورة الرائدة في تاريخ الأمة الإسلامية.

وإذ أعاد أولئك البدريون الأمة إلى الإسلام، وجعلوها تفكر فيه بجد، وحفظوا هذه الأمة من الضياع والهزيمة والانحدار الأبدي، فإنهم أدّوا مهمة أولئك البدريين الأوائل. الذين خاضوا أول معركة فاصلة بقيادة رسول الله ﷺ لوضع الإسلام موضع التطبيق العملي حاكماً وقائداً للناس جميعاً، على امتداد العصور وفي مختلف الأمكنة.

بدر.. حالة ممكنة التكرار

كان أداء البدريين الأوائل حالة ممكنة التكرار، يمكن أن تحصل في أي زمان. ولم تكن حالتهم تعرض علينا كأمر غير ممكن التحقيق، وكاشارة مشرقة وحيدة في تاريخنا لا يمكن أن تعود ثانية.

إن الأمر الوحيد الذي لا نستطيعه هو الاقتراب من عصمة الرسول ﷺ وآله ، المسددين بإرادة إلهية عليا أو الوصول إليها، كما أوضحنا ذلك من قبل. غير أن أي سلوك إنساني آخر مهما ارتفع وارتقى، فإنه ممكن التحقيق، ما دامت القدرات البشرية العامة موجودة لدى الناس. غير أن الإنسان يرتفع ويهبط وفقاً لغلبة الدوافع والغرائز الموجودة لديه، فإذا ما استطاع السيطرة على هذه الغرائز والتحكم فيها وفقاً لما يراه، ولما تتطلبه توجهاته وتصوراته ومثله، وجعل من الدوافع العليا (وهي الدوافع الإسلامية)، غاية ما يتطلبه ويسعى إليه، ولا يرى أمامه سوى الإسلام، وسوى القوة العظيمة التي أنزلته وطلبت من عموم البشر التصرف وفقه وفي ضوء أحكامه وقيمه، استطاع الاقتراب من المثل العليا التي يضعها أمامه، وهي شخصية رسول الله ﷺ ، والشخصيات الأخرى التي أعدها لخلافته في قيادة الأمة. ومع أن ذلك يعني أنه لا يستطيع أن يكون مثلها أو بمستواها، إلا أنه يستطيع أن يفهمها ويتفاعل معها، ويتأثر بسلوكها وأخلاقها ويسير ضمن توجيهاتها وتصوراتها، ويعمل في أطر تلك

التوجيهات والتصورات، ويتبناها، كأسلم وسيلة تحقق له طموحه في فهم الإسلام والأخذ به وتبنِّيه كقوة وحيدة أو دين وحيد يتحكم في حياته.

فليس عبثاً أن يجعل الله من رسول ﷺ وآله قدوة حسنة لكل الناس؛ ما دام يريد لهم أن يقتدوا بهم فعلًا ويسيروا على خطاهم باذلين كل جهدهم في ذلك؛ وما دام بإمكان الناس أن يتخلقوا ببعض أخلاقهم وسلوكهم.

البدريون موجودون في كل ساحات الصراع «لقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وأرحام النساء»:

لم يكن أمراً غير ممكن أن تتحقق حالة البدريين وتتكرر لدى أشخاص آخرين، مهما بعدت الشقة وطال العهد، ولم يكن من غير الممكن أن نجد أناساً متفانين متفاعلين مع الإسلام، يقدمون على التضحية بحياتهم وبأعز ما يملكون إن استدعى الأمر ذلك، وحقق ذلك في النهاية مصلحة الإسلام ونصره وارتفاعه.

لقد أقدم أصحاب الحسين بنفس تلك القوة والعزيمة التي أقدم بها البدريون لمنازلة أعدائهم. وربما تفوقوا عليهم لأنهم أدركوا أن نهايتهم جميعاً ستكون الموت المؤكد، بينما وعُد البدريون بالنصر ولم يوعدوا جميعاً بالشهادة. ومن الملفت للنظر حقاً أن نجد أن أحداً منهم لم يتراجع أو يتخاذل طيلة الفترة التي أمضوها وهم يتجهون إلى موقع المعركة والمنازلة وفي أثنائها فيما بعد. وكانوا يبدون أنهم فهموا المهمة التي أرادوا الاضطلاع بها بدرجة من الوضوح بدت وكأنها تقترب من تلك التي فهمها به الإمام عليه السلام. غير أن الأئمة (عقلوا الدين عقل وغاية ورعاية لا عقل سماع ورواية، فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل)[1] على حد تعبير أمير المؤمنين عليه السلام، فكان فهم الأئمة استثنائياً لا يتعلق بالأهداف المنظورة التي يراها الآخرون وحسب، وإنما قد تكون لأعمالهم أهدافاً غير معروفة، أدركوها وعلموها عن رسول الله ﷺ وعلمها ﷺ عن جبرئيل عليه السلام.

وكان أداء أصحاب الحسين عليه السلام في المعركة ممكناً لكل المسلمين الآخرين كذلك؛ فهم ليسوا قوة متميزة من البشر، كما لم يكن من سبقوهم قوة متميزة من البشر حضت بقدرات استثنائية لا يسع غيرهم الاختصاص بها. وإنما هم بشر من عامة

(١) نهج البلاغة ٥٠٩.

البشر امتلكوا نفس القدرات والنوازع والغرائز؛ غير أنهم أدركوا وفهموا ما لم يدركه ويفهمه الآخرون. وامتلكوا من القوة والفهم ما جعلهم بمستوى الرسالة التي حملوها، فأصبحوا من الرموز الكبيرة للأمة كلها بمحاولتهم الارتفاع إلى تلك الرسالة والتضحية من أجلها.

إنهم اعتقدوا أن الإسلام لم ينزل عبثاً هكذا وللاشيء، وتيقنوا أن لا أحد من البشر ينبغي له الاستهانة بقيمه أو العبث بها، وأدركوا أن أية محاولة من هذا النوع يجب أن تصد بحزم ويردع أصحابها بقوة لئلا تتكرر حالات الانتهاك والخرق والخروج المتعمد عن الإسلام فيما بعد.

وإذا كان أي شخص لا يستطيع بلوغ القوة التي بلغها الإمام والفهم الذي تمتع به وصحة التصور والاعتقاد، والأداء الذي تميزت به كل جوانب سلوكه، فإن أي شخص بوسعه أن يبلغ ما بلغه أصحابه الأقوياء الذين أخذوا على عواتقهم النهوض بما عجزت عنه الأمة كلها، وأنجزوا مهمتهم بكل نجاح وأوصلوا أصواتهم واحتجاجاتهم العملية ضد الانحراف إلى كل الأسماع، وجعلوا الأمة الضعيفة المضامة التي أريد لها أن تموت وتندثر تعيد النظر بمواقفها وأوضاعها وتحاول التخلص من حالة الاستسلام والضعف والجمود والشلل.

لقد ظل أولئك الثوار ماثلين في أذهان الأمة، يمثلون علامة فارقة وعلامة احتجاج دائمية على الظلم والانحراف أمام النائمين والمتخاذلين والمتكاسلين وأمام الذين تخلوا عن أي شعور بالمسؤولية ورفضوا القيام بأي دور ايجابي يفرضه عليهم فهمهم لدينهم القويم ورسالته الشاملة، وظلوا شجرة نامية مثمرة تطلع علينا بعطائها المتجدد وتنشر علينا ظل أغصانها وأوراقها، وظلوا نموذجاً شاخصاً لعشرات الملايين من المسلمين، رعف وسيرعف بهم الزمان ويقوى بهم الإيمان، كما عبر عن ذلك أمير المؤمنين عليه السلام، حينما أظفره الله بأصحاب الجمل، وقد قال له بعض أصحابه: (وددت أن فلاناً أخي كان شاهدنا ليرى ما نصرك الله به على أعدائك.
فقال عليه السلام: أهوى أخيك معنا؟ فقال: نعم.

قال: فقد شهدنا، ولقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وأرحام النساء، سيرعف بهم الزمان ويقوى بهم الإيمان)[1].

---

(١) نهج البلاغة ص ٩٨.

إن أمير المؤمنين عليه السلام يجد أن موقفه هذا لمواجهة الخارجين عليه وعلى الإسلام والذين كانوا يمهدون لالباس الانحراف ثوباً شرعياً، لا بد أن يُقيِّم من قبل كل جماهير المسلمين بعد أن يفهموه ويفهموا عدوه جيداً، ولا بد أنهم سينحازون إلى جانبه ويتمنون لو أنهم كانوا معه وإلى جانبه وسيتيح لهم موقفه فرصة الوقوف بوجه الانحراف والخروج المتعمد عن الإسلام وسيخوضون معارك عديدة ضد المنحرفين وأعداء الإسلام.

إن وحدة الموقف والانتماء الحقيقي للإسلام سيكون طابعهم الموحد دائماً، وسيكون كل من وقف في بدر أو الجمل أو صفين أو الطف أو في كل معركة لاحقة من معارك الإسلام، ما داموا قد أرادوا نصرته والدفاع عنه واعلاء شأنه، في موقف واحد وفي ساحة واحدة. وسيكون من شهد واحدة من هذه المعارك، كمن شهدها جميعاً.

اصرار على المضي إلى نهاية الشوط

إن أموراً عديدة تلفت أنظارنا عند التعرض للحديث عن أنصار الحسين عليه السلام، وفي مقدمة تلك الأمور صمود تلك الجماعة التي التحقت معه منذ البداية وعدم تخليها عنه رغم سماحه عليه السلام لها بذلك عدة مرات، وكذلك الجماعة التي التحقت به في مكّة وفي الطريق، إلى أن استشهد كافة أفرادها في نهاية المطاف في كربلاء. وقد التحق به آخرون قبيل بدء المعركة وعند نهاية الاستعدادات لها. وكان من يلتحق يدرك أنه مقبل على الموت حتماً، وكانت دوافعهم واحدة عنوانها الانتصار للإسلام. وإذ لم يكن لذلك إلا طريقة واحدة وهي الالتحاق بالحسين عليه السلام ومواجهة دولة الظلم والثورة عليها ولفت نظر الأمة إلى ممارساتها الشاذة والمنحرفة عن الإسلام، فإنهم أقدموا على ذلك دون تحفظ رغم علمهم بالثمن الكبير الذي كان عليهم أن يدفعوه وهو حياتهم. ووجدوا أن ذلك كان ثمناً معقولاً ولو أنهم وجدوا أعز من تلك الحياة يمكن أن يقدموه في سبيل الإسلام لما ترددوا، وكما عبر بعضهم عن ذلك بوضوح أمام الحسين عليه السلام كما سنرى في غضون هذا الفصل.

عبدالله بن بقطر: انصروا الحسين عليه السلام وآزروه

فعندما وصل الحسين عليه السلام خبر مقتل عبدالله بن بقطر أخيه من الرضاعة[١] على يد ابن زياد (وكان سرحه إلى مسلم بن عقيل وهو لا يدري أنه قد أصيب، فتلقاه خيل الحصين بن تميم بالقادسية، فسرح به إلى عبيدالله بن زياد، فقال: اصعد فوق القصر فالعن الكذاب بن الكذاب، ثم انزل حتى أرى فيك رأيي. فصعد، فلما أشرف على الناس قال: أيها الناس، إني رسول الحسين بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله لتنصروه وتؤازروه على ابن مرجانة بن سمية الدعي. فأمر به عبيدالله، فألقي من فوق القصر إلى الأرض، فكسرت عظامه، وبقي به رمق، فأتاه رجل يقال له عبد الملك بن عمير اللخمي فذبحه)[٢]. رأى الحسين عليه السلام أن يوجه دعوة لمن التحقوا به أن يتفرقوا عنه. (وكان لا يمر بأهل ماء إلا اتبعوه)[٣] وقد قال لهم: (أما بعد، فإنه قد أتانا خبر فظيع. قتل مسلم بن عقيل، وهانىء بن عروة وعبدالله بن بقطر. وقد خذلتنا شيعتنا فمن أحب منكم الانصراف فلنيصرف، ليس عليه منّا ذمام.

فتفرق الناس عنه تفرقاً، فأخذوا يميناً وشمالاً، حتى بقي في أصحابه الذين جاءوا معه من المدينة.

وإنما فعل ذلك لأنه رأى انما اتبعه الأعراب لأنهم ظنوا أنه يأتي بلداً قد استقامت له طاعة أهله، فكره أن يسيروا معه إلا وهم يعلمون على ما يقدمون. وقد علم أنهم إذا بيّنَ لهم لم يصحبه إلّا من يريد مواساته والموت معه)[٤] ومشاركته في مهمته الصعبة الكبيرة.

---

(١) كانت أمة حاضنة للحسين عليه السلام.

(٢) الطبري ٣/٣٠٣.

(٣) المصدر السابق ص ٣٠٣ وربما اعتقد بعض من التحق به أن السلاح لا يجوز فيه ولا في أصحابه كما أشيع حينئذٍ (وكان أهل ذلك الزمان يقولون ذلك الأمر، وينتظرونه في كل يوم وليلة) الطبري ٣/٢٩٧.. فعندما علموا بموت مسلم وهانىء وعبدالله أدركوا أن الأمر لم يكن كما تصوروا وأنهم لم يكونوا مقبلين على بلد قد استقامت طاعة أهله للحسين عليه السلام وأنهم سيضطرون للقتال معه وربما قتلوا إذا ما أرادوا الوصول معه إلى نهاية المطاف. ويبدو أن هؤلاء كانوا يريدون الحصول على بعض المغانم، ولم يريدوا أن يصدقوا أنهم سيتعرضون للمتاعب أو القتل إلا بعد ورود خبر مقتل مسلم وهانىء وعبدالله.

(٤) المصدر السابق.

لقد أراد الإمام عليه السلام لهم، وللأمة كلها فيما بعد، أن يكونوا على بينة من الأمر الذي أقدموا عليه، وأنه لم يأت بلداً قد استقامت له طاعة أهله وأن مهمته لن يفهمها ويقدر على المشاركة فيها إلا الذين كانوا على قدر كبير من الوعي بضرورتها وأهميتها. وإلا أولئك الذين امتلكوا حساً إسلامياً صافياً، والذين لا يهمهم إلا أن يسود الإسلام ويعلو وتسود أحكامه ومفاهيمه وتشريعاته.

إنهم انطلقوا من بين كل أبناء الأمة لانجاز هذه المهمة ليلفتوا نظرها ويحركوها لفعل سريع حاسم بوجه السلطة المنحرفة. فمع أنهم منها، ومع أنهم قلة قليلة، إلا أنهم أنجزوا أمراً عجزت عنه كلها، وقاموا بما لم يقم به الملايين من أبنائها.

لقد أرادوا أن يبينوا لها أن مهمتهم هي مهمة كل فرد منها بعينه. وعليه أن لا يتقاعس أو يتخاذل أو يستسلم عندما ينهض لها أو لأمثالها من المهمات وحتى فيما يأتي في زمن لاحق.

الحسين: «إني لا أعلم أصحاباً خيراً من أصحابي»

وفي ليلة العاشر من المحرَّم جمع الحسين عليه السلام أصحابه وألقى فيهم كلمة جاء فيها: (أثني على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء، وأحمده على السراء والضراء. اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة، وعلمتنا القرآن، وفقهتنا في الدين، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، ولم تجعلنا من المشركين؛ أما بعد، فإني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً. ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً. ألا وأني قد رأيت لكم فانطلقوا جميعاً في حل، ليس عليكم مني ذمام. هذا ليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً.

ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، تفرقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرّج الله، فإن القوم إنما يطلبوني، ولو قد أصابوني لهوا عن طلب غيري)[1].

(١) الطبري ٣/ ٣١٥ وابن الأثير ٣/ ٤١٦.

القلوب قبل السيوف: «أنحن نخلّي عنك..!؟»

وقد رفض أصحابه وأهل بيته التخلي عنه، كما فعل البعض في مواقف سابقة أخرى، وأبدوا عزمهم وتصميمهم على البقاء معه مواسين له بأنفسهم، ينالهم ما يناله. فهم لم يأتوا معه إلا بعد أن أدركوا أبعاد مهمته وأهدافها، تلك المهمة التي انتدبوا أنفسهم لتنفيذها بعد أن انتدب الحسين عليه السلام نفسه في المقدمة.

وكان ذلك اللقاء فريداً، عبروا فيه عن استعدادهم للوقوف إلى جانب الإسلام وانحيازهم التام له، بعد أن وقفوا إلى جانب الحسين عليه السلام ورفضوا التخلي عنه.

كان لقاء حافلًا تحدثت فيه القلوب قبل أن تصدر الكلمات. ولعل ما صدر فيه من كلمات جعل الجميع في غبطة غامرة رغم اقبال الموت عليهم ورغم ضجيج الأعداء وتهديداتهم وقعقعة أسلحتهم. فكأنهم لم يروا أحداً من هؤلاء الأعداء أمامهم. وكأن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يمثل أمامهم بشخصه الكريم ويتحدث إليهم، عندما كان يمثل ابنه الحسين عليه السلام أمامهم ويتحدث إليهم. لم يروا في تلك اللحظات إلا الله وإلا دينه ورسوله الكريم صلى الله عليه وآله. ولم يملكوا إلا أن يبدوا استعدادهم لتقديم كل شيء في سبيله ولوجهه. ولم تلح على أحدهم امارة خوف أو تردد أو تخاذل. كانت عزيمتهم أقوى من ضجيج أعدائهم وصخبهم وتهديداتهم. ولعلهم كانوا يترقبون الساعة التي يثبتون فيها ولاءهم للحسين عليه السلام وللإسلام ويثبتون انتماءهم الحقيقي له.

(قال له اخوته وأبناؤه وبنو أخيه وأبناء عبدالله بن جعفر: لم نفعل لنبقى بعدك، لا أرانا الله ذلك أبداً. بدأهم بهذا القول العباس بن علي.

ثم إنهم تكلموا بهذا ونحوه. فقال الحسين عليه السلام: يا بني عقيل، حسبكم من القتل بمسلم. إذهبوا قد أذنت لكم.

قالوا: فما يقول الناس، يقولون إنا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام، ولم نرم معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب معهم بسيف، ولا ندري ما صنعوا لا والله لا نفعل، ولكن تفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا، ونقاتل معك حتى نرِدَ موردك، فقبّح الله العيش بعدك.

فقام إليه مسلم بن عوسجة الأسدي فقال: أنحن نخلي عنك، ولما نعذر إلى الله في أداء حقك. أما والله حتى أكسر في صدورهم رمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت

قائمه في يدي، ولا أفارقك، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك.

وقال سعيد بن عبدالله الحنفي: والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا حفظنا غيبة رسول الله صلى الله عليه وآله فيك. والله لو علمت أني أقتل ثم أحيا ثم أحرق حيّاً ثم أذرّ، يفعل بي ذلك سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حِمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك، وإنما هي قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً؟

وقال زهير بن القين: والله لوددت إني قتلت ثم نشرت ثم قتلت، حتى أقتل كذا ألف قتله. وان الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك.

وتكلم جماعة أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضاً في وجه واحد فقالوا: والله لا نفارقك، ولكن أنفسنا لك الفداء، نقيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا. فإذا نحن قتلنا كنا وفيّنا، وقضينا ما علينا)[1].

انتصارهم للحسين عليه السلام انتصار للإسلام/ الأعمال فاقت الأقوال

إن رفضهم التخلي عنه واصرارهم على البقاء معه لم يكونا نتيجة حماسة طارئة، جعلتهم يندفعون لنصرته بدافع حاجته الشخصية إليهم. ولم يكونا من قبيل النخوة الجاهلية التي تنتصر للقريب ضد أعدائه. وإنما كان انتصارهم له انتصاراً للإسلام الذي كان بحاجة إلى وقفة مثل وقفتهم وموقف مثل موقفهم. إذ لو تخلوا عنه لكان ذلك ايذاناً بموت الأمة كلها وعدم قدرتها على النهوض ثانية.

ولم تكن أقوالهم من قبيل الأقوال الخطابية التي تلقى في محفل أدبي أو شعري في مناسبة معينة، يكشف فيها الخطباء عن بلاغتهم وقدراتهم في مجال الشعر والنثر لكي يؤثروا على نفر من المستمعين حضروا محفلهم، ليذهبوا بعد ذلك ويتغنوا ويشيدوا بما استمعوا إليه وشنف آذانهم. فالوقت كان وقت جد، والمواجهة أصبحت قريبة جداً، والكلمات لا بد أن يعقبها فعل سريع.

(١) الطبري ٣/٣١٦ واللهوف ٣٨ - ٣٩ وابن الأثير ٣/ ٢٨٥ وروضة الواعظين ١٨٣ والخوارزمي ١ ف ١١ والمفيد ٢١٠ والنويري ٢٠/ ٤٣٥ وجمهرة خطب العرب ٢ - ٤١ - ٤٣ وأمالي الصدوق م ٣٠ والمجلسي ٤٤ - ٤٩٢ - ٣٩٤.

موقف أنصار الحسين عليه السلام سيبقى في ضمير الأمة إلى الأبد؛ كانوا بمستوى المهمة الكبيرة:

كان أنصار الحسين عليه السلام قريبين منه قرباً كافياً يتيح لهم معرفة خططه ونواياه ومواقفه، ويعلمون أنه كان مقتولاً حتماً في تلك المواجهة مع دولة الظلم الأموية بزعامة يزيد، وأنهم ربما قتلوا معه. وما كان يشير عليه الكثيرون من الناس بضرورة التراجع وتجنب المواجهة، لم يكن يجري بشكل سري بينه وبين (الناصحين) (والمشفقين) والمخذلين، ولا بد أن أنصاره سمعوا هم أيضاً تلك التحذيرات الشديدة.. ومع ذلك استمروا معه، وثبتوا معه إلى آخر لحظة واستشهدوا بين يديه.

فهل كان أحد يحسب حقاً أنهم يمكن أن يتراجعوا في اللحظات الأخيرة التي حسبوا فيها أنهم سوف يجنون ثمار أقدامهم وصمودهم وثباتهم.؟ وأنهم سيهربون أو يستسلمون أو يتخلون عن الحسين عليه السلام.؟.

وهل كان الحسين عليه السلام يتوقع منهم أن يتراجعوا كما تراجع الأعراب الطامعون بالمغانم والمكاسب الذين التحقوا به في الطريق وانفرط عقدهم عنه في الطريق أيضاً.؟.

بالتأكيد لم يكن الإمام يتوقع منهم ذلك، بل كان يتوقع ذلك التصميم وذلك الثبات، غير أنه كان يريد ابلاغ أصواتهم للأمة المستسلمة المشلولة الضعيفة، وأن يسمعوها بأنفسهم؛ تلك الأصوات الواضحة القوية ويعلنوا لها أن وقفتهم لم تكن بدافع العصبية والحماس الطارىء، وإنما كانت نتيجة لحاجة ماسة لايقاف الانحراف وايقاظ الأمة وتنبيهها إلى مهماتها العديدة التي عليها أن تقوم بها في ظل القيادة الشرعية الصحيحة، لا في ظل الطواغيت والفراعنة والمتجبرين.

ولقد أثبتوا خلال فصول المعركة وتصديهم الجريء لجيش ابن زياد أنهم كانوا بمستوى المهمة التي انتدبوا أنفسهم لها، وقد قاموا بها خير قيام. لم يهنوا أو ينكلوا أو يتراجعوا أو يتلعثموا سواء في معرض المواجهة العسكرية أو معرض القاء الحجج والنصح والارشاد وتقريع وتأنيب الجيش الذي نصب نفسه عدواً للحسين عليه السلام والإسلام، رغم قلة عددهم وموقفهم العسكري التعبوي الضعيف.

ينبغي أن يظل موقف أنصار الحسين موضع دراسة وتأمل عميقين من قبل أبناء الأمة كلّها، فكيف حصل أن تصدوا هم دون غيرهم لمنع الإنحراف وإيقافه،

واختاروا الوقوف إلى جانب الحسين عليه السلام؟ وما هي درجة الوعي والشعور بالمسؤولية التي امتلكوها فجعلتهم يقفون ذلك الموقف مع أن شرائح أخرى من أبناء الأمة كان من المفروض بحكم صحبة بعضها لرسول الله صلى الله عليه وآله وفهمها وموقعها الاجتماعي وسوابقها وادراكها طبيعة الأحداث ومجريات الأمور قد تخلت عن مسؤولياتها وآثر قسم كبير منها الوقوف موقف المتفرج والقسم الآخر الانحياز إلى النظام الحاكم..؟.

كان أنصار الحسين عليه السلام حالة نادرة في ظل أوضاع شاذة غير طبيعية لأنهم لو نشأوا في ظل أوضاع صحيحة سليمة وفي ظل القيادة الشرعية للمسلمين، لما كانوا بتلك القلة، ولتشعبت مهماتهم الرسالية والتربوية ولاتخذت سبلًا فعالة أخرى لتوعية الناس وارشادهم للإسلام، ولوجدوا من القيادة المبدئية الواعية سنداً لهم، ولكانوا امتداداً لها بحكم وعيهم وحبهم للإسلام. غير أن القيادة المنحرفة المضللة أظهرتهم وكأنهم استثناء شاذ لحالة طبيعية عامة قبلت هذه القيادة وارتضتها بديلًا طبيعياً لقيادة رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه. بعد أن روضت الناس واستدرجتهم إلى شراكها وأخضعتهم لتقبل الأمر الوَاقع المتمثل بوجودها وحكمها الشاذ.

(أشراف) الكوفة: تنكر لقيم الشرف. اضمار الغدر والخديعة

وقد رأينا كيف تراجع عن الحسين عليه السلام العديد ممن كتب إليه وأبدى استعداده للوقوف في صفه مثل شبث بن ربعي الذي قاتل مع أمير المؤمنين عليه السلام من قبل في صفين، وحجار بن أبجر وقيس بن الأشعث ويزيد بن الحارث وعزرة بن قيس وعمرو بن الحجاج الزبيدي، ومحمد بن عمير التميمي[1] وغيرهم كثيرون. ولم يكتفوا بالتراجع عنه، حتى كانوا بعد ذلك في مقدمة من حرضوا عليه وكانوا ضمن قادة الجيش الذي قاومه وقتله فيما بعد.

ولعلهم منذ البداية لجأوا إلى سياسة اللعب على الحبلين وأضمروا الغدر والخديعه إذ رأوا أن الأمور ليست في صالح الحسين عليه السلام؛ وإذا كان هناك فوز محتمل للحسين عليه السلام في تلك المعركة، فإنهم لم يريدوا أن يحرموا من المشاركة

(١) وكانوا قد كتبوا إليه عليه السلام: (أما بعد فقد اخضر الجناب، وأينعت الثمار، وطمّت الجمام، فإن شئت فاقدم على جند لك مجند). الطبري ٣/ ٢٧٨.

فيه، وهكذا كتبوا إليه، عازمين على انكار ذلك إذا ما كانت الغلبة ليزيد، وقد فعلوا وأنكروا رسائلهم وكانوا أشد على الحسين وأصحابه عليه السلام من بعض من لم يكاتبوه ولم يعدوه النصرة والوقوف إلى جانبه.

على أننا رأينا أن بعض من كاتب الحسين عليه السلام من أهل الكوفة قد صمدوا على موقفهم وظلوا ثابتين عليه واستشهد بعضهم أمّا مع مسلم كهانىء بن عروة أو مع الحسين عليه السلام في الطف كعابس بن أبي شبيب الشاكري، الذي أعرب منذ البداية عن شكه بأهل الكوفة إلا أنه أبدى استعداده لنصرة الحسين عليه السلام، وبقي ثابتاً على موقفه. كما سجن بعضهم وهرب آخرون إلى أماكن أخرى.

إلا أن موقف هانىء وجماعة من أصحابه، ممن صمدوا لابن زياد، ثم قتلوا قبل مقدم الحسين عليه السلام إلى كربلاء، لم يستطع أن يستر الخلل الكبير الذي شعر به مسلم عندما تخلت عنه الجماعة التي بايعته للحسين عليه السلام، وهي أغلبية مقاتلة رفعت السلاح معه فعلًا بوجه ابن زياد، إلا أنها سرعان ما تخلت عنه تحت تأثيرات (الأشراف) والرؤساء والمتنفذين المقربين للسلطة وتأثير الوعيد والارهاب والتلويح بالرشوة والوعود، وهو ما تحدثنا عنه في غضون هذه الدراسة باسهاب.

القتل المحقق خير من الاستسلام المهين: «بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا»

ومن الملفت للنظر حقاً هو التحاق بعض الأشخاص بالحسين عليه السلام، ممّن كانوا لا يرون رأيه ولا يتخذون موقفه، غير أنهم تمتعوا بحس صاف وإدراك سليم، جعلهم يعون طبيعة المهمة التي كان يقوم بها، وقد رأوا أن عليهم المشاركة بها، مهما كانت النتائج التي قد تكون معروفة ومتوقعة، وهي القتل المحقق، إلا أنهم استسهلوا ذلك، كما استسهله أنصاره الأوائل الذين جاءوا معه من المدينة. فالمهمة كبيرة، وثمنها لا بد أن يكون كبيراً وباهظاً. ومَن تراهم هم، في مقابل إمام الأمة وقائدها الذي أقبل في مقدمتهم مضحياً بنفسه وبكل عزيز لديه من أجل تحقيقيها وتحقيق خلاص الأمة من طغاتها، ومن انحرافها وسباتها الذي بدا أنه لن ينتهي في غمرة ذلك الخروج المتسارع عن مبادىء الإسلام.

ولن نتكلم عن أولئك الاعراب الذين التحقوا به ثم تركوه بعد أن علموا أن معركته لم تكن معركة مغانم ومكاسب شخصية، وأنهم لن يحصلوا على أية غنيمة جراء التحاقهم به. وأنهم ربما يقتلون معه إذا ما رافقوه إلى نهاية الشوط، وهو ما

ترجح لديهم بعد أن أكده هو عليه السلام لهم في أكثر من مناسبة. وإنما نشير إلى تلك الحالات النادرة التي تغلب فيها أنصاره على مخاوفهم الخاصة وجزعهم من الموت، وعدّوا نصرته هو الأمر الذي ينبغي أن يعمل لمثله العاملون ويفرحوا ويستبشروا. فهو فضل من الله، بل هي رحمة اختصهم بها دون غيرهم من أبناء الأمة العاجزة المستسلمة.

عندما بلغ ابن زياد مسير الحسين عليه السلام إلى الكوفة كتب إلى عامله بالبصرة أن يراقب الطرق ويضع فيها الحراسات المسلحة. إلا أن ذلك لم يمنع يزيد بن نبيط العبدي، أحد شيوخ البصرة[1] من التوجه إلى الكوفة للالتحاق بالحسين عليه السلام رغم تحذير بعض الناس له من ذلك.

(إني والله لو قد استوت أخافهما سبالجدَدَ لهان علي طلب من طلبني. ثم خرج فتقدى في الطريق حتى انتهى إلى الحسين عليه السلام، فدخل في رحلة بالأبطح، وبلغ الحسين مجيئه، فجعل يطلبه، وجاء الرجل إلى رحل الحسين، فقيل له: قد خرج إلى منزلك. فأقبل في اثره، ولما لم يجده الحسين جلس في رحله ينتظره، وجاء البصري فوجده في رحله جالساً، فقال: ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾[2].

فسلم عليه، وجلس إليه، فخبّره بالذي جاء له، فدعا له بخير، ثم أقبل معه حتى أتى فقاتل معه، فقتل معه هو وابناه)[3].

إلى موكب الشهادة: «يا ناقتي لا تذعري من زجري»

هذا رجل جاء يطلب الحسين عليه السلام لينصره هو وابناه، وكان متلهفاً على رؤيته حتى أنه لم يصبر على البقاء في رحل الحسين عليه السلام الذي سمع بمقدمه فذهب للقائه. وعاد ثانية إلى رحله ليجد الحسين عليه السلام هناك ينتظره. وكان ذلك مدعاة لفرحه الغامر ولم يملك أن هتف مردداً قوله تعالى ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ

(١) ذكر بأسماء متعددة (يزيد بن ثبيت القيسي) (يزيد بن ثبيت العبدي) (بدر بن رقيط) (بدر بن رقيد) يراجع/ أنصار الحسين / محمد مهدي شمس الدين/ الدار الإسلامية ط ٢/ ١٩٨١ ص ١١٢.

(٢) يونس ٥٨.

(٣) الطبري ٣/ ٢٧٨.

﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾. ولعله كان يشكر الله تعالى في كل لحظة أن اختصه بتلك الرحمة وذلك الفضل وأعطاه من القوة ما جعله يتلهف على اللقاء بالحسين عليه السلام والقتال معه والموت بين يديه.

كان من الملتحقين به (أربعة نفر قد أقبلوا من الكوفة على رواحلهم، يجنبون فرساً لنافع بن هلال يقال له الكامل ومعهم دليلهم الطرماح بن عدي على فرسه وهو يقول:

يا ناقتي لا تذعري من زجري وشمّري قبل طلوع الفجر
بخير ركبان وخير سفر حتى تحلّي بكريم النَّجْرِ
الماجد الحر رحيب الصدر أتى به الله لخير أمر
ثمت أبقاه بقاء الدهر

فلما انتهوا إلى الحسين، أنشدوه هذه الأبيات، فقال عليه السلام: أما والله إني لأرجو أن يكون خيراً ما أراد الله بنا، قتلنا أم ظفرنا)[1].

وقد حاول الحر أن يحبسهم أو يردهم بحجة أنهم ليسوا ممن أقبل معه إلا أن الحسين عليه السلام منعه من ذلك وأصر على بقائهم معه وقال للحر: (لأمنعنهم مما أمنع منه نفسي، إنما هؤلاء أنصاري وأعواني. هم أصحابي، وهم بمنزلة من جاء معي، فإن تممت على ما كانت بيني وبينك وإلا ناجزتك. فكف عنهم الحر)[2].

التحقوا به رغم علمهم أن الموقف لم يكن لصالحه: أما أشراف الناس فهم إلب واحد عليك

كان هؤلاء الرجال متلهفين على الالتحاق بالحسين عليه السلام رغم أنهم كانوا يعلمون أن الموقف العسكري ليس لصالحه وأن الكوفة قد انقلبت عليه. بل إنهم هم الذين حملوا إليه خبر مقتل رسوله إليهم. سألهم الحسين عليه السلام: (أخبروني خبر الناس وراءكم. فقال له مجمّع بن عبدالله العائذي: أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم، وملئت غرائرهم، يستمال ودهم، ويستخلص به نصيحتهم، فهم إلب

(١) المصدر السابق ٣/٣٠٧ - ٣٠٨.
(٢) نفس المصدر ٣/٣٠٨.

واحد عليك، وأما سائر الناس بعد، فإن أفئدتهم تهوي إليك وسيوفهم غداً مشهورة عليك.

قال: أخبروني، فهل لكم برسولي إليكم؟ قالوا: من هو؟

قال: قيس بن مسهر الصيداوي؛ فقالوا: نعم أخذه الحصين بن تميم فبعث به إلى ابن زياد، فأمره ابن زياد أن يلعنك ويلعن أباك، فصلى عليك وعلى أبيك،

ولعن ابن زياد وأباه، ودعا إلى نصرتك، وأخبرهم بقدومك، فأمر به ابن زياد، فألقي من طمار القصر. فترقرقت عينا حسين عليه السلام ولم يملك دمعه، ثم قال: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾[1] اللهم اجعل لنا ولهم الجنة نُزُلا، وأجمع بيننا وبينهم في مستقر من رحمتك، ورغائب مذخور ثوابك)[2].

إن هؤلاء لم يلتحقوا به بعد أن علموا أن الموقف في الكوفة كان لصالحه. بل إنَّ الأمر كان على العكس من ذلك تماماً، وأنهم ربما سيقتلون معه. وإن ذلك بدا هو الأمر الوحيد المحتمل في ظل تلك الظروف.

قضية الحسين عليه السلام رابحة في الحالين، النصر أو الشهادة

فقد جاءوا إذاً لينصروا القضية التي رفعها الحسين عليه السلام، ولم تبد لهم قضية خاسرة في أي وقت من الأوقات. لم يأتوا لضمان حياته وبقائه والدفاع عنه شخصياً. ولم يكن مجيئهم بدافع من عاطفة مجردة أو عصبية أو قرابة. جاءوا لينصروا ممثل الإسلام وممثل رسول الله صلى الله عليه وآله وابنه، وينصروا الإسلام من خلاله، وكانوا على يقين أن القوة الأموية الغاشمة لن تقف منهم موقف المتسامح المتساهل، وإنما ستعمد إلى استئصالهم وابادتهم وقتلهم أشنع قتله. والتمثيل بجثثهم.

ولنا أن نتصور هذا المشهد، جماعة قليلة تتألف من أربعة أشخاص جاءت من مقر الجمع المعادي للحسين عليه السلام المهيأ لقتاله، تلتحق بجماعة صغيرة أخرى ـ أكبر منها نسبياً، وهي تعلم نتيجة سيرها ومسعاها، بل وتغذ السير رغم كل المخاطر لتلحق بالحسين وركبه، وهي تعلم أن الجميع سيقتلون في النهاية.

---

(١) الأحزاب ٢٣.

(٢) الطبري ٣/ ٣٠٨.

لا شك أن هذا أمر يبعث على الكثير من النظر والتأمل والتفكير بتلك النفوس الكبيرة القوية المصممة العازمة المتيقنة التي سارت إلى الموت بجرأة وثبات. وقد قتلوا بين يدي الحسين عليه السلام بعد ذلك في معركة الطف في كربلاء.

انحازوا للحسين في صبيحة المعركة: «يا رب إني للحسين ناصر»

وقبيل بدء المعركة، بل في صبيحتها، وكان جيش ابن زياد يستعد لتوجيه ضرباته القاتلة للحسين وأصحابه عليه السلام أدرك جماعة من أفراد هذا الجيش نفسه بعد أن كانوا من قادته ومقاتليه. أن عليهم، رغم كل ما سيلقونه، وهو الموت المحتم ـ أن يلتحقوا بالحسين عليه السلام ليموتوا معه.

التحق به الحر بن يزيد الرياحي، وسنتحدث عن أمره بالتفصيل بعون الله، والتحق به يزيد بن المهاصر، وهو أبو الشعثاء الكندي. وكان ممن خرج مع عمر بن سعد إلى الحسين ثم مال إليه فقاتل معه حتى قتل.

لقد (جثا على ركبتيه بين يدي الحسين عليه السلام فرمى بمائة سهم، ما سقط منها خمسة أسهم، وكان رامياً، فكان كلما رمى قال: أنا ابن بهدلة، فرسان العرجلة، ويقول حسين: اللهم سدّد رميته، واجعل ثوابه الجنة. فلما رمى بها قام فقال: ما سقط منها إلا خمسة أسهم، ولقد تبيّن لي أني قد قتلت خمسة نفر، وكان في أول من قتل. وكان رجزه يومئذٍ:

أنا يزيد وأبي مهاصر ... أشجع من ليثٍ بغيلٍ خادر
يا رب إني للحسين ناصر ... ولابن سعد تاركٌ وهاجر[1]

(وكان مع عمر بن سعد ثلاثون رجلًا من أهل الكوفة. فتحولوا مع الحسين فقاتلوا)[2].

ومهما يكن من أمر هذا الخبر الذي ورد في بعض الكتب التاريخية، فإن ما ورد في معظم هذه الكتب حول عدد من قتل من أصحاب الحسين عليه السلام، يجعل منه خبراً ضعيفاً. وربما لم تتح لهؤلاء الرجال فرصة اللقاء بالحسين عليه السلام وربما تركوا جيش ابن سعد دون أن يقاتلوا الحسين عليه السلام.

---

(١) الطبري ٣/ ٣٣٠.

(٢) العقد الفريد ٥/ ١٢١ والطبري ٣/.

ولو أنهم التحقوا بالحسين عليه السلام وقاتلوا معه وجرى عليهم ما جرى على أصحابه من قتل وتقطيع الرؤوس لما ضاع خبر ذلك ولأوردته كل كتب التاريخ التي عنيت عناية فائقة بذكر تفاصيل المعركة وأسماء من قاتلوا مع الحسين عليه السلام. وكان العدد النهائي سيرجح العدد الذي ذكر لنا.

غير أننا نعتقد أن هؤلاء حاولوا الالتحاق بالحسين عليه السلام فعلًا، إلا أنهم منعوا، فجرى قتال بينهم وبين من حاولوا أن يمنعوهم، وربما أخذتهم قبائلهم المشتركة في قتال الحسين عليه السلام ودفنتهم دون أن تقطع رؤوسهم.

على أن ذلك يدلل على أن فئة كبيرة من الجيش ربما كانت ستنحاز إلى جانب الحسين عليه السلام، لو تركت له ولأصحابه حرية مخاطبتهم واقناعهم. كما حاولوا ذلك فعلًا.. ولو لم يلغم ابن زياد جيش ابن سعد بجماعة كبيرة من أعوانه وعيونه وجواسيسه يردوهم عن ذلك، مثل شمر والحصين بن تميم وعمرو بن الحجاج وغيرهم من أشراف الكوفة كما نرى ذلك من خلال الاطلاع على تفاصيل الواقعة.

شخصيات ومواقف

غير أننا سنستعرض هنا مواقف ثلاث شخصيات التحقت بالحسين عليه السلام ولم تكن قدمت معه منذ البداية، وهي جديرة أن تلاحظ وتدرس بعناية كنماذج ملفتة للنظر لا بد من التفكير بشأنها عند دراسة هذه الثورة الكبيرة وشخصياتها.

وهذه الشخصيات الثلاث هي: زهير بن القين البجلي، والحر بن يزيد الرياحي، وعبدالله بن عمير الكلبي.

١ - زهير بن القيّن البجلي

كان زهير بن القين حاجاً، وقد عاد من مكة إلى العراق مع جماعة من أصحابه وأهل بيته وكانوا يسايرون الحسين عليه السلام، إلا أنه لم يكن شيء أبغض إليهم من أن يسايروه في منزل (فإذا سار الحسين، تخلف زهير بن القين، وإذا نزل الحسين تقدم زهير)[1] قال السدّي الفزاري، راوية هذا الخبر، وكان مع زهير: (حتى نزلنا يومئذٍ

(١) الطبري ٣/ ٣٠٢ وابن الأثير ٣/ ٢٧٨ وروضة الواعظين للقتال ص ٢٧٨ والأنساب للبلاذري ٣/ ١٦٨ والخوارزمي ١ ف ١١ والارشاد ص ٢٠٥.

في منزل لم نجد بداً من أن ننازله فيه. فنزل الحسين في جانب، ونزلنا في جانب، فبينما نحن جلوس نتغدّى من طعام لنا إذ أقبل رسول الحسين، حتى سلم، فقال: يا زهير بن القين، إن أبا عبدالله الحسين بن علي بعثني إليك لتأتيه. فطرح كل إنسان ما في يده حتى كأننا على رؤوسنا الطير)[١].

انتبه في الأيام الأخيرة، فكان من أشد المناصرين

تذكر لوصايا سابقة

كان زهير يكره لقاء الحسين عليه السلام، وبالتأكيد فإنه كان عالماً بالمهمة التي كان يسعى إليها. ولم يكن مقتنعاً بها أو بصحة موقف الحسين عليه السلام، وربما اعتقد أنه عليه السلام كان بسبيل قضية خاسرة. وهكذا فإن هواه لم يكن معه. وقد تباطأ وتردد في الاستجابة لدعوة الحسين عليه السلام، إلا أن امرأته ـ دلهم بنت عمرو ـ ويبدو أنها كانت امرأة صالحة، حثته على الذهاب والاستماع لما يقوله الإمام، قائلة: (أيبعث إليك ابن رسول الله ثم لا تأتيه. سبحان الله، لو أتيته فسمعت من كلامه.

فأتاه زهير ـ على كره ـ فما لبث أن جاء مستبشراً قد أشرق وجهه، فأمر بفسطاطه ورحله وثقله، فحوّل إلى جهة الحسين عليه السلام، ثم قال لامرأته: الحقي بأهلك، فإني لا أحب أن يصيبك من سببي إلا خير.

ثم قال لأصحابه: من أحب منكم أن يتبعني، وإلا فهو آخر العهد مني. سأحدثكم بحديث: غزونا بلبخر، ففتح الله علينا، وأصبنا غنائم، فقال لنا سلمان (رض)[٢]: أفرحتم بما فتح الله عليكم، وأصبتم من الغنائم؟ فقلنا: نعم.

فقال لنا: إذا أدركتم شباب آل محمد، فكونوا أشد فرحاً بقتالكم معهم منكم بما أصبتم من الغنائم. فأما أنا فإني استودعكم الله.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) وهو على الأغلب سلمان الفارسي (رض) إذ أنه جدير لمكانته من رسول الله صلى الله عليه وآله وموقعه من أن يروي مثل هذه الأخبار عن الرسول(ص) مخبراً عما سيجري لشباب آل محمد الذين يقودهم الحسين. وقد ذكره الطبري بـ (سلمان الباهلي) وربما نسبه إلى الباهلي وهو سلمان بن ربيعة قائد الحملة التي غزت بلبخر وشارك فيها سلمان كما كان يفعل بعض نقلة الوقائع والأخبار.

ثم والله ما زال في أول القوم حتى قتل)[١].

لا نعلم تفاصيل أكثر من هذه التي وردت في الرواية، غير أننا نعلم أنه شارك في مغازٍ للمسلمين سابقة. ولعل حديث سلمان في بلبخر ـ وهي مدينة في الخزر في زمن عثمان على يد سلمان بن ربيعة الباهلي وكان سلمان الفارسي ضمن الجيش ـ كان ماثلًا في ذهن زهير من ذلك الحين. ولم يكن يحتاج أحداً لكي يذكره به. غير أنه ربما غابت عن ذهنه صورة شباب آل محمد. وربما شوهت هذه الصورة أو زورت وحاولت الدعاية الأموية، المضللة إبعادها عن أذهان المسلمين وعيونهم ووضعت بدلًا عنها صور آل أبي سفيان باعتبارهم هم آل الرسول ﷺ وأشد المقربين إليه.

ثم من هم الذين سيقاتلهم شباب آل محمد..؟ أليسوا هم (ولاة الأمور) المزيفون الذين وضع نظام الانحراف بشأنهم أحاديث منسوبة إلى رسول الله ﷺ أظهرت وكأن طاعتهم هي طاعة لله ورسوله ﷺ وأن مخالفتهم وعصيانهم عصيان لله ورسوله ﷺ أيضاً..؟.

وأوّلت آيات من القرآن الكريم لتنسجم معانيها مع أهدافهم وأغراضهم، ولكي يجعلوا الأمة على امتداد الأزمان خاضعة مستسلمة للطغاة والفراعنة ودعاة الشرك والانحراف؟.

إن المرجح أن زهيراً عندما قابل الإمام الحسين عليه السلام واستمع إليه يتحدث عن طبيعة المهمة الكبيرة التي كان بسبيله لانجازها مع آل بيته وأصحابه، وما ينتظرهم عند الله إذا ما نجحوا فيها وصمدوا إلى النهاية؛ أدرك من كان معنياً برواية سلمان عن الرسول ﷺ، هم هؤلاء الشباب الذي يسيرون خلف إمامهم وقائدهم الحسين عليه السلام سيد شباب أهل الجنة.

وإن مرافقة هؤلاء في مهمتهم هو الأمر الذي ينبغي أن يفرح به حقاً. ما دام طريقهم يبدو أقرب طريق للجنة مع سيد شباب أهل الجنة.

انحياز للحق.. لا للانحراف

كان حواره وحديثه مع الإمام عليه السلام قد جعله ينحاز إليه تماماً بعد أن أصبح مقتنعاً بشكل تام بأهداف الثورة. وقد صمم على المضي معه إلى النهاية دون تردد.

(١) المصادر السابقة.

كان انحياز زهير بن القين إلى جانب الإمام عليه السلام، بعد أن اقتنع بذلك، وبعد أن كان لا يميل إليه ولا لآل البيت عموماً. حجة على كل أعداء آل البيت وعلى أولئك الذين امتشقوا السيوف لضرب بقيتهم. وكان حواره معهم، لو أنه تم في جو حر مفتوح قد أدى إلى نتيجة ايجابية كبيرة إذ ربما استطاع أن يجعل العديدين من أفراد هذا الجيش يغيرون مواقفهم وينحازون إليه أيضاً.

وهذا هو السبب الذي جعل أعوان الدولة يحاولون منعه من الحديث ومقاطعته والتشويش عليه والرد عليه وعلى أصحاب الحسين الآخرين بالشتيمة والسباب.

وقد رأينا أشخاصاً بعينهم يتصدون لمهمة التشويش والشتم هذه، إضافة لمهمتي التحريض والتجسس أمثال شمر بن ذي الجوشن وكثير بن عبدالله الشعبي وابن حوزة وابن أبي الحصين الأزدي وغيرهم.

لقد اقتنع زهير بمهمة الحسين عليه السلام. ولم يكن لقناعته حدود، ومضى في مهمته دون تردد أو خوف، يقنع الآخرين بالانضمام إليه، ويرفع السيف بوجه من كان يريد أن ينال الإمام عليه السلام بالشر والأذى.

وفي كربلاء، حيث حطَّ الحسين عليه السلام رحاله الأخير، جرى لقاء حافل بينه وبين أصحابه. وكان لزهير دور واضح في هذا اللقاء الذي حاول فيه الإمام عليه السلام بيان السبب من ثورته وقدومه إلى العراق، بعد أن أصبح النزال قريباً، والمواجهة المسلحة أمراً لا بد منه.

حوار ومناجاة: ألا ترون إلى الحق لا يعمل به ولا الباطل لا يتناهى عنه!

كان حديث الحسين عليه السلام مع أصحابه يجري في جو من العلاقة الحميمة الصادقة. وكان يمتاز بذلك الوضوح الذي لا يرى إلا عند ذوي البصيرة والاحساس القوي والشعور بالمسؤولية. وكانت كلماته ألماً كبيراً يبثه أصحابه وأنصاره، وقد أصبحوا قريبين من لحظة المواجهة النهائية، ولم يكن أحد أقدر منهم على فهم كلمات الحسين واستيعابها. قال لهم، بعد أن حمد الله وأثنى عليه.

(أما بعد، فإنه قد نزل بنا من الأمر ما قد ترون، وان الدنيا قد تغيرت وتنكرت، وأدبر معروفها، واستمرت حذّاء، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الاناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل. ألا ترون إلى الحق لا يعمل به، وإلى الباطل لا يتناهى عنه،

ليرغب المؤمن في لقاء ربه محقاً. فإني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة إلا برما)[1].

وما دام الحال غير الحال والدنيا قد تغيرت. ولم تعد هي الدنيا التي أرادها رسول الله ﷺ للناس، وما دام الحق لا يعمل به، والباطل لا يتناهى عنه في ظل الظالمين والمنحرفين والطغاة فما مبرر بقاء المؤمن في ظل هؤلاء الظالمين، وكيف يسكت.؟.

أليحافظ على سنوات من العمر يراها جديرة بأن يسكت عن كل شيء حتى وإن عاش ذليلًا في ظل فرعون متجبر؟ ألا يكون الموت حينئذٍ سعادة حقاً؟ الموت ونحن نواجه الظلم ونتحداه، لا الموت ونحن نتحاشاه ونهرب منه.

كلمات الحسين عليه السلام المباشرة الواضحة والقليلة. كانت كافية جداً. فلم يكن أنصاره بحاجة للمزيد منها لكي يستمروا ثابتين على موقفهم. فهم قد فهموا كل شيء منذ البداية وعزموا أمرهم واتخذوا قرارهم.

لم يشأ زهير إلا أن يعقب على كلمة الإمام القصيرة بكلمة كانت أقصر منها، إلا أنها كانت مشحونة أيضاً بعاطفة وشعور جياش تجاه الإسلام والأمة والإمام. عاطفة وشعور لم يتاحا إلا للرساليين من أبناء الأمة الذين تهمهم مصالحها وتؤذيهم آلامها ومتاعبها.

زهير: لسان الأنصار

«والله لو كان الدنيا لنا باقية.. لآثرنا الخروج معك على الاقامة فيها»

استأذن زهير أصحابه في الرد على الحسين عليه السلام. وعندما طلبوا منه أن يكون هو المتكلم الأول، قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

(قد سمعنا يا بن رسول الله مقالتك. والله لو كانت الدنيا لنا باقية، وكنا فيها

---

(1) الطبري ٣/ ٣٠٧ وابن عساكر/ الجزء الخاص بريحانة الرسول ﷺ ٢١٤ وذخائر العقبى/ محب الدين الطبري ١٤٩ والخوارزمي ٢/ ٥ واللهوف ص ٣٣ وتاريخ الإسلام للذهبي ٢ - ٣٤٥ وحلية الأولياء لأبي نعيم ٢/ ٣٩ ومجمع الزوائد للهيثمي ٩ - ١٩٢ والعقد الفريد ٤/ ٣٨٠ والاتحاف ٤/ ٣٨٠.

مخلدين، إلا أن فراقها في نصرك ومواساتك، لاثرنا الخروج معك عى الاقامة فيها. . فدعا له الحسين ثم قال له خيراً)[1].

وقد فتح بكلمته أبواب الحديث للأنصار الآخرين كنافع بن هلال الجملي، وبرير بن خضير وغيرهما حيث تكلموا بمثل هذا ونحوه.

وقد أكد زهير للأمة كلها ـ بكلامه هذا ثبات أصحاب الحسين وصمودهم بوجه عدوهم وعدو الأمة المسلمة، وأراد أن يري الأمة كلها، أية فئة كانت تناصر الحسين وتسير معه وتتابع خطواته حتى النهاية.

ومع أنه لم يكن بحاجة لتشجيع أصحابه، فقد كانت دوافعهم لنصرة الحسين عليه السلام والدفاع عن الإسلام أقوى من أن تحتاج لكلمات تقوي عزائمهم وتشحذ هممهم، إلا أنه كان يريد أن يبين للأمة كلها، وأعدائها على وجه الخصوص أن الإمام الحسين عليه السلام وأنصاره لم يكونوا بسبيلهم لخوض معركة خاسرة، وأن النصر لا بد أن يكون حليفهم في كل الأحوال، لأنهم قاموا بما ينبغي القيام به حقاً وأدوا واجبهم ولم يتكاسلوا ويجبنوا عن نصرة الإسلام. ولا يهم بعد ذلك أن يقتلوا أو يبقوا أحياء، فمقياس النصر في الإسلام القدرة على الثبات والبقاء على خطه المستقيم وعدم الالتفات إلى العوائق والحواجز التي يضعها أعداء الإسلام في طريقهم.

تلهُّف على الشهادة

كان زهير يبدو حريصاً ومتلهفاً على قتال أعداء الحسين عليه السلام والشهادة بين يديه. وقد اقترح على الحسين أن يقاتلوا الحر وأصحابه ما دام عددهم لم يتصل إلى ذلك الذي أعده ابن زياد لمواجهتهم. وقد قال للحسين: (يا بن رسول الله، إنَّ قتال هؤلاء أهون من قتال مَن يأتينا من بعدهم، فلعمري ليأتينا من بعد من ترى ما لا قبل لنا به)[2] إلا أن الإمام عليه السلام رد عليه قائلًا: (ما كنت لأبدأهم بالقتال)[3].

كان زهير يرى أنهم يستطيعون التغلب على ألف من المقاتلة الفرسان الذين يؤلفون جيش الحر، مع أن عددهم لم يكن يتجاوز السبعين إلا بقليل. وكان حماسه بمستوى المهمة التي مضى إليها مع الحسين وأصحاب الحسين عليهم السلام.

---

(١) - (٣) الطبري ٣/ ٣١٠.

ولا بد أن أسباب رفض الحسين عليه السلام بدء القتال كانت وجيهة ومهمة إضافة لما فيها من أمرٍ مبدئي دعا إليه الإسلام وقد أراد الحسين عليه السلام الحفاظ عليه والتمسك به.

فلو أن الحسين عليه السلام تغلب على الحر وأصحابه فإن ذلك سوف لن يكون دون ثمن. ولا بد أن معظم أنصاره وآل بيته سيقتلون في تلك المعركة، وستواجه القلة الباقية المنهكة جيشاً كبيراً سيقال له: إنَّ الحسين اعتدى على أصحابكم وبدأهم بالقتال وكان ينبغي عليه أن يتفاوض معهم ويفسح المجال للتفاهم والحوار. وستظهره أجهزة إعلام الدولة وأبواقها بمظهر المعتدي الذي جنى عاقبة عدوانه.

ولو أن الحسين عليه السلام وأصحابه قتلوا كلهم في تلك المعركة قبل أن يواجهوا أهل الكوفة الذين ألفوا جيش ابن زياد، وقبل أن تصل أخبار مسيرتهم المظفرة إلى كل الأسماع وتطلع عليها الأمة كلها، فإن المهمة ستظل مبتورة ولن تسمع الأمة السبب الحقيقي الذي دعا الحسين عليه السلام وأصحابه لمواجهة الدولة الظالمة، ولضاعت أخبار المعركة كلها.

وربما حاولت دولة الظلم الأموية اليزيدية التعتيم على المهمة كلها، وربما ألقت اللوم على الحر بن يزيد وحده وحملته مسؤولية قتل الحسين عليه السلام ولقالت أنه لم يؤمر بذلك وأنه تصرف بشكل كيفي وإن عمله كان طائشاً، ولتنصّل الجميع من الجريمة بما فيهم يزيد وابن زياد وابن سعد.

لا شك أن الدوافع التي جعلت الحسين عليه السلام يرفض منازلة الحر عديده. ولعل ما ذكرناه هنا وفي الفصل السابق قد تكون من جملتها.

عشية المعركة: «ذكرت به رسول الله ﷺ فرأيت أن أنصره وأن أكون في حزبه»

وعندما حاول ابن سعد مبادأة الحسين عليه السلام بالقتال عصر التاسع من المحرم، بناء على الأوامر الصارمة التي تلقاها من ابن زياد، حاول الحسين عليه السلام تأخيرهم إلى غدوه. ودفعهم عنه تلك العشية. وقد أرسل أخاه العباس عليه السلام في نحو من عشرين فارساً فيهم زهير بن القين وحبيب بن مظاهر لمفاوضة ابن سعد وأعوانه قائلًا له: (ارجع إليهم، فإن استطعت أن تؤخرهم إلى غدوه، وتدفعهم عنا هذه العشية، لعلنا

نصلي لربنا وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أني أحب الصلاة وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار)(١).

وكان العباس عليه السلام قد سألهم في بداية اللقاء عن الدوافع التي دعتهم لذلك الاستعداد المفاجىء للقتال، وماذا يريدون من ذلك، وعندما أخبروه أنهم تلقوا أوامر ابن زياد ليعرضوا على الإمام وأصحابه النزول على حكمه أو يناجزوهم، رجع العباس عليه السلام بالخبر إلى الحسين عليه السلام، فأوصاه وصيته التي ذكرناها الآن.

وفي الفترة التي استغرقها ذهاب العباس وإيابه، حاول حبيب بن مظاهر وزهير استغلال الوقت لاقناع ابن سعد وأعوانه بالتخلي عن فكرة مقاتلة الحسين عليه السلام (فقال حبيب بن مظاهر لزهير بن القين: كلّم القوم إن شئت، وإن شئت كلمتهُم، فقال له زهير: أنت بدأت بهذا، فكن أنت تكلمهم)(٢). وكان ذلك أدباً جماً من كليهما.. من حبيب وقد علم مكانة زهير وحرصه على نصرة الحسين عليه السلام فأراد أن يكون هو البادىء بالكلام، ومن زهير وقد علم منزلة حبيب أيضاً. ولأنه صاحب الفكرة، فإنه أراد أن يتيح له فرصة الحديث قبل الجميع. (فقال لهم حبيب بن مظاهر: أما والله، لبئس القوم عند الله غداً قومٌ يقدمون عليه قد قتلوا ذرية نبيّه عليه السلام، وعترته وأهل بيته ﷺ وعبّاد أهل هذا المصر المجتهدين بالأسحار، والذاكرين الله كثيراً)(٣).

وقد حاول أحد عوان ابن زياد المرافقين لعمر بن سعد مقاطعة حبيب بقولٍ أراد فيه إفحامه ولكي لا يتيح له فرصة الاسترسال بخطابه المؤثر والمنطقي، فقال له:

(إنك لتزكي نفسك ما استطعت)(٤)

وهنا انبرى له زهير بخطاب مقنع آخر، ولكي يفوّت عليه فرصة التفوه بكلمات مضللة أخرى قائلًا له: (يا عزرة، أن الله قد زكاها وهداها. فاتق الله يا عزرة، فإني لك من الناصحين، أنشدك الله يا عزرة أن لا تكون ممن يعين الضلال على قتل النفوس الزكية)(٥)

(١) الطبري ٣/ ٣١٥ والبلاذري ٣/ ١٨٥ والنويري ٢٠/ ٤٣٣ واللهوف ٣٨ وابن شهرآشوب ٤/ ٩٨ وأعيان الشيعة ج ٤ ق ١ ص ٢٠٨ وابن الأثير ٣/ ٢٨٥.
(٢) - (٥) الطبري ٣/ ٣١٤ وابن الأثر حوادث سنة ٦١ والبلاذري ٣/ ١٨٤.

لم يخف زهير على نفسه الموت، وإنما أراد تجنيب أعدائه أمر التورط بسفك دماء آل البيت. وقد اندفع بكل ما يملأ نفسه من إيمان وشعور بالمسؤولية ليردهم عن السير وراء الضلّال لتنفيذ مآربهم وجرائمهم وقتل النفوس الزكية، نفوس الحسين عليه السلام وآله وأصحابه.

وكان حريًّا بهذا الكلام أن يقنع عزره ليتراجع عن موقفه، فلا يلعب دور المحرض على الحسين وأصحابه عن يقين ووعي بما يفعل إلا أن عزرة بدا أنه يريد تسجيل موقف يزيد من رصيده لدى أسياده ويرفع من قيمته في نظرهم ويظهره بمظهر المنحاز القانع بكل ما يفعله أولئك الأسياد.

وقد رد على زهير ـ يريد افحامه أيضاً بقوله: (يا زهير، ما كنت عندنا من شيعة أهل هذا البيت، إنما كنت عثمانياً)[1] وكأنما رأى أن رده هذا كان كفيلًا باسكات زهير، وأنه سيفوّت عليه الفرصة لاقناع الآخرين بما اقتنع به هو، ولم يحسب أنه قد أدان نفسه بجوابه ذاك، وأعطى زهيراً فرصة جديدة، لالقاء حجة جديدة دامغة لن يستطيع لها رداً أو دفعاً.

قال له زهير: (أفلست تستدل بموقفي هذا أني منهم، أما والله ما كتبت إليه كتاباً قط، ولا أرسلت إليه رسولًا قط، ولا وعدته نصرتي قط. ولكن الطريق جمع بيني وبينه. فلما رأيته ذكرت به رسول الله ﷺ ومكانه منه، وعرفت ما يقدم عليه من عدوّه وحزبكم، فرأيت أن أنصره، وأن أكون في حزبه، وأن أجعل نفسي دون نفسه، حفظاً لما ضيعتم من حق الله وحق رسوله عليه السلام)[2].

كنت عثمانياً فأصبحت حسينياً

كان كلام زهير ضربة موفقة. فإذا لم يكن ـ من قبل ـ من شيعة أهل هذا البيت، وكان عثمانياً، وأصبح الآن من شيعتهم وأول المدافعين عنهم والباذلين نفوسهم لحمايتهم ودفع الأذى عنهم؛ فلا بد أن أمراً ما دعاه لذلك. فهو لم يكن ساذجاً وجاهلًا للدرجة التي تجعله يتأثر بسرعة بما يقال له وما يعرض عليه من آراء وأفكار. وإنما كان يتمتع بوعي استثنائي أتاح له مشاهدة الموقف على حقيقته وتقويمه، ثم الوقوف منه موقفاً مناسباً.

(١) و(٢) المصادر السابقة.

فهو لم يختر جانب الحسين عليه السلام لأنه كان يتمتع بقوة تفوق قوة عدوه وتتيح له الغلبة عليه، وإنما اختاره رغم المخاطر المحتملة، بل المؤكدة، لأنه الجانب الذي كان ينبغي عليه أن يختاره، مع أنه لم يكاتبه من قبل أو يدعوه للحضور إلى الكوفة. وكانت اللحظات القصيرة التي جمعت بينهما في الطريق كافية لكي يدرك أنه الممثل الحقيقي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه كان يتصدى لأكبر مهمة من شأنها أن تنقذ الأمة من استسلامها وحذرها ونومها، وأن على كل من يدعي انتماءه للإسلام وحبه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقف معه وينصره. ويكون من حزبه، حزب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحزب المسلمين جميعاً، لا حزب دولة الانحراف والظلم والشرك، وأن يدافع عنه ويجعل نفسه دون نفسه. ولئن لم يدركوا هم ذلك وتجاهلوه، فقد أدركه هو ووعاه وتصرف على أساسه. وحافظ على ما ضيعوه من فرصة كبيرة للوقوف إلى جانب الحسين عليه السلام لانجاز تلك المهمة الكبيرة. مهمة انقاذ الأمة من الانهيار والسقوط النهائي.

الليلة الأخيرة: «.. لوددت أني قتلت ثم نشرت. حتى أقتل فيك هكذا ألف مرة. وأن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك»

وفي تلك الليلة نفسها، ليلة المنازلة الكبيرة، كان للحسين عليه السلام موقف آخر مع أصحابه عليه السلام، موقف مشحون بعاطفة الإسلام النبيلة وصدق المبادىء العظيمة. وكأنه كان يريد فيه تسجيل ثبات أصحابه على الحق وصمودهم بوجه الباطل، لتظل صورة ذلك اللقاء ماثلة في أذهان كل أبناء الأمة إلى الأبد، وتظل شاهدة على عجز وتخاذل كل أولئك الذين أحنوا رؤوسهم للظلم والانحراف ولم يجدوا في أنفسهم الجرأة على مواجهته ومقاومته.

جمعهم مرة أخرى قرب المساء وقال لهم: (أُثني على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء، وأحمده على السراء والضراء. اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة، وعلمتنا القرآن، وفقهتنا في الدين، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، ولم تجعلنا من المشركين.

أما بعد، فإني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً. ألا وأني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غدا. إلا وأني قد رأيت لكم، فانطلقوا جميعاً في حل، ليس عليكم مني

ذمام، هذا ليل قد غشيكم، فاتخذوه جملًا. ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجلٍ من أهل بيتي. تفرقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرّج الله، فإن القوم إنما يطلبوني، ولو قد أصابوني لهَوا عن طلب غيري)[1].

كانوا إلى تلك اللحظة قد أدوا دورهم وأثبتوا ولاءهم للحسين عليه السلام ممثل الإسلام الحقيقي وقائد الأمة الشرعي. وقد شهد هو نفسه لهم بذلك ووصفهم بأنهم خيرة أبناء الأمة. ولم يكن من المتوقع أن يتخلوا عنه وينهوا مسيرتهم بذلك الشكل المفجع.

غير أن الإمام عليه السلام أراد وضعهم إمام الموقف النهائي الصعب، حيث سيواجهون الموت جميعاً. فالاستعدادات الأخيرة لاستقباله لابد أن تبدأ منذ الآن إن لم تكن قد بدأت فعلًا. والعزيمة الصادقة لا بد أن تواجه أفراد الجيش المتعطش لقتالهم، وتتغلب على مخاوف وخور أفراده الذين استسلموا لابن زياد فاندفعوا لتنفيذ جرائمه والتصدي لقائد الأمة الحقيقي وقتله وقتل من يلتف حوله ويشاركه مسيرته.

أما هم فكانوا مستعدين منذ البداية لاستقبال كل الاحتمالات ومواجهة كل المخاطر. ولم يُلمس من أحدهم أي خوف أو تردد أو استعداد للتراجع. وهكذا جاءت أجوبتهم للإمام عليه السلام حاسمه وواضحه.

(ولم نفعل ذلك؟ لنبقى بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبداً)[2].

وفي هذا الموقف برز جواب زهير بن القين واضحاً معبراً؛ قال:

(والله يا بن رسول الله لوددت أني قتلت، ثم نشرت، حتى أقتل فيك هكذا ألف مرة، وأن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من اخوانك وولدك وأهل بيتك)[3] وأضاف بذلك موقفاً مشرفاً آخر إلى سلسلة مواقفه المشرفة العديدة المتلاحقة.

وتتابعت إثر ذلك أجوبة أصحاب الحسين بكلام واحد ووجه واحد، فقالوا:

---

(١) الطبري ٣/ ٣١٥ وابن طاووس ٣٨ وابن الأثير ٣/ ٢٨٥ والخوارزمي ١ ف ١١ والارشاد ٢١٠ وأمالي الصدوق م ٣٠ وجمهرة خطب العرب/ ٢ ص ٤١ والمجلسي ٤٤/ ٤٩٢ وابن شهرآشوب ٤/ ٩٩ وأنساب الأشراف ٣/ ١٨٥ والنويري ٢٠/ ٤٣٥ مع بعض الاختلافات البسيطة.

(٢) و(٣) المصادر السابقة.

(والله لا نفارقك، ولكن أنفسنا لك الفداء، نقيك بأيدينا، ونحورنا وجباهنا، فإذا نحن قتلنا بين يديك، نكون قد وفينا لربنا وقضينا ما علينا فجزاهم الحسين خيراً)[1].

وقد قتلوا بعد ذلك بين يديه ووفوا لربهم وقضوا ما عليهم.

وفي تلك الليلة التي قتلوا في صبيحتها، بات الحسين وأصحابه وأهل بيته، ولهم دوي كدوي النحل، ما بين قائم وقاعد وراكع وساجد[2].

زهير: قائد الميمنة: «نذارِ لكم من عذاب الله، نذار»:

وعندما عبأ الحسين عليه السلام أصحابه للقتال كان زهير على ميمنة أصحابه. . وقبل بدء المعركة ألقى الحسين عليه السلام ثلاث خطب استعرض فيها أوضاع أهل الكوفة وعموم المسلمين في ظل نظام الانحراف، وعرفهم بنسبه وطبيعة موقعه من رسول الله صلى الله عليه وآله ومن الإسلام وطبيعة المهمة التي كان يتصدى لانجازها. وقد جرت محاولات عديدة من ابن سعد وشمر لمقاطعته والتحريض على عدم الاستماع إليه ومطالبته بالنزول على حكم ابن زياد ثم بدأ الجيش بالزحف عليه.

وقبيل الالتحام خرج زهير بن القين على فرس له ذنوب، شاك السلاح، وألقى خطبة في الجيش الزاحف فقال:

(يا أهل الكوفة، نذارِ لكم من عذاب الله نذارِ. إنَّ حقاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم. ونحن حتى الآن إخوه، وعلى دين واحد وملة واحدة، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منا أهل، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنَّا وأنتم أمه.

إن الله قد ابتلانا وإياكم بذريَّة نبيّه محمد صلى الله عليه وآله لينظر ما نحن وأنتم عاملون. إنّا ندعوكم إلى نصرهم، وخذلان الطاغية عبيدالله بن زياد، فإنكم لا تدركون منهما إلا بسوء عُمر سلطانهما كله، ليسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم، ويمثلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتّلان أماثلكم وقرّاءكم أمثال حجر بن عدي وأصحابه، وهانىء بن عروة وأشباهه)[3].

---

(١) المصادر السابقة.

(٢) اللهوف لابن طاووس ص ٤٠.

(٣) الطبري ٣/٣١٩ - ٣٢٠ وابن الأثير ٣/٢٨٨ وجمهرة خطب العرب ٢ - ٤٧ - ٤٨ ونهاية الارب للنويري ٢٠ - ٤٤٤.

حاول تخليصهم من ورطة الوقوف إلى جانب الظالم:

كان زهير يحاول لفت أنظارهم إلى الموقف الخطير الذي وضعوا أنفسهم فيه، وأنهم أمام اختبار حقيقي يثبتون فيه انتماءهم للإسلام حقاً إذا ما التفوا حول الحسين عليه السلام ممثلهم وقائدهم الشرعي وتخلوا عن دولة الظلم الأموية. وكانت تلك اللحظات القصار ثمينة وعزيزة جداً بنظر زهير ففيها وحدها سيتحدد مصير الجميع، إمّا إلى الجنة وأمّا إلى الجحيم.

لقد استعرض زهير بخطبته جوانب الموقف كله. وأنذر أهل الكوفة وحذرهم مغبة الاستمرار في الحرب الظالمة التي شنها ممثل دولة الظلم، ابن زياد، على الحسين عليه السلام ممثل وقائد دولة الإسلام الشرعية. وكان حريصاً على أن يجعلهم يدركون أن هذه هي فرصتهم الأخيرة للتخلص من دولة الظلم والالتحاق بممثل الرسول صلى الله عليه وآله وابنه وقائد الأمة الحقيقي. كان يرى نفسه قوياً لذلك فإنه لم يخش من مواجهتهم وتوبيخهم وحثهم على مراجعة أنفسهم مراجعة سريعة عاجلة. وأعلمهم أن نتيجة وقوفهم من الظلمة ستكون تمادي هؤلاء الظلمة في ظلمهم، وسيكونون هم أنفسهم الضحية المقبلة. وهي نتيجة حتمية وسنة من سنن التاريخ. فليس للظالم قانون أو مبدأ يردعه عن ظلم أي إنسان، حتى ولو كان خادمه وتابعه بالأمس، وحتى لو كان قد شهر السلاح وحارب معه أعداءه، فقانون الظالم مصالحه وامتيازاته.

وقد ذكرهم بما فعل الظالمون بأناس منهم، حاولوا انقاذهم وتفانوا في سبيل ذلك كحجر بن عدي وأصحابه وهانيء بن عروة وأشباهه. وحذرهم بأن كل واحد منهم سيكون مستهدفاً في النهاية سواء كان من أتباع الدّولة وأعوانها أو من أعدائها.

بين موقف المنتصر القوي وموقف المهزوم العاجز

ولم يكن بوسعهم أمام هذا المنطق السديد إلا أن يواجهوه بمنطق العاجز الخائف الجبان (فسبوه، وأثنوا على عبيدالله بن زياد ودعوا له، وقالوا: والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير فصل عبيدالله سلماً)[١].

---

(١) المصادر السابقة، وقد ذكر بعضها كالطبري في نهاية كلمة زهير الأخيرة قولًا نسبوه إليه وهنو: (فخلوا بين الرجل وبين ابن عمه يزيد بن معاوية، فلعمري أن يزيد يرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين..) الطبري ٣/ ٣٢٠ ومتى ما علمنا أن مصدر الرواية كثير بن عبدالله الشعبي أحد أعوان ابن زياد والمقربين منه أدركنا أنه أضاف هذه الكلمات من عنده عندما وجد نفسه=

كان منظراً محزناً حقاً. . وكانوا هم أحق الناس بهذا الحزن؛ كانوا مضللين ومحذرين ومستسلمين ومنساقين خلف إرادة شريرة تعبث بهم وتسوقهم إلى مصير مؤلم لا خلاص منه أبداً. وبدا أن ذلك كان يثير حزنه وقلقه إلى أبعد حد. وقد صاح فيهم عندما سمع سبابهم ومقالتهم وحرصهم على تنفيذ أوامر ابن زياد، قائلًا:

(عباد الله، إن ولد فاطمة رضوان الله عليها أحق بالود والنصر من ابن سمية؛ فإن لم تنصروهم، فأعيذكم بالله أن تقتلوهم)[1].

كانوا يستسلمون بسهولة أمام ابن زياد وأعوانه، وكان حالهم هذا يزعج زهيراً إلى بعد حد وهو يراهم ينحدرون إلى ذلك المدى الذي يجرأون فيه على اشهار سيوفهم بوجه ابن رسول الله ﷺ وآله وأصحابه ليقتلوهم، لا لشيء، إلا لأنهم أرادوا انقاذهم من الانحراف ومن دولة الظلم والعسف والجور.

كان الموقف دقيقاً بالغ الحرج، ومواجهة زهير لا يجرؤ عليها إلا من فقد الحياء والضمير. وما كان إلا شمر وأشباهه جديرين بذلك. فباب السباب والشماتة والكذب والافتراء مفتوح على مصراعيه أمام أمثال هؤلاء.

التصدي للشمر: «ما إياك أخاطب، إنما أنت بهيمة.. ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين»

انبرى شمر ـ وقد انزعج بدوره من كلمات زهير للرد عليه رداً خشناً حتى أنه رماه بسهم وقال له: (اسكتْ، أسكت الله نأمتك. أبرمتنا بكثرة كلامك)[2].

وهذا هو منطق العاجز من أعوان الطغاة والظلمة.

وهل يتوقع أحد من شمر وأشباه شمر غير هذا المنطق. . ؟.

كان أمراً مؤلماً أن يكون لأمثال هذا الجافي الغليظ الجاهل هذه المكانة بين جند ابن زياد، وأن يتصدى نيابة عن الجميع للحديث والرد و (الحوار). . فمن هو حتى تكون له تلك المكانة. . ؟ وما هي مؤهلاته ليكون في مقدمة المسلمين؟.

=يروي هذه الرواية فيما بعد لأن معرفتنا بواقع حال زهير تؤكد لنا أنه لم يتفوه بها أصلًا. . وقد شهدنا حالات مماثلة افتري فيها علي الحسين عليه السلام نفسه بمثل هذه الأقوال وكان مصدرها ابن سعد وأضرابه. . وقد فندناها في فصل سابق.

(١) المصدر السابق.

(٢) الطبري ٣/ ٣٢٠ وتراجع المصادر السابقة.

لا بد أن كل مؤهلاته هي ما يحاول اظهاره من انحياز لدولة الظلم واستعداد لخدمتها وتنفيذ أهدافها ومآربها، دون مناقشة أو حساب.

ألا يطلع علينا كل يوم شمر جديد يبدي نفس الاستعداد لخدمة دولة ظلم جديدة، ويظل الناس يتحملون جهله وهراءه واستهتاره وعبثه.. ويظل يلهو ويعبث إلى أن تسأم منه الدولة وتحمله مسؤولية أوزارها وأخطاءها للتخلص منه بعد ذلك. أو يتخلص منه مظلوم تمادى معه في ظلمه، أو يناله الله بعقاب في هذه الدنيا قبل أن يطاله عقاب الآخرة الدائم؟.

لقد أراد زهير أن يعرّفهم جيداً بذلك الذي سمحوا له أن يتلاعب بهم ويتحدث نيابة عنهم، حتى أنه جعل قضية الحسين عليه السلام مع الدولة الأموية قضيته الخاصة، فكأنما جاء الحسين عليه السلام للقضاء عليه هو شخصياً وجاء يستهدفه خاصةً. مع أنه لم يكن سوى إنسان مغمور. مسمار صغير في عجلة الدولة الضخمة، ولم تكن تعيره أي اهتمام، لولا ما كان يلاحظه من عناية مؤقتة من قبل ابن زياد لحاجته إليه في ذلك الظرف.

كان شمر يضخّم نفسه بنظر الآخرين ويعطيها أهمية استثنائية، وكان يتصرف وكأنه القائد الحقيقي للأمة والمعنيّ الأول بشؤونها، وأنه إنسان لازم وضروري لا يمكن الاستغناء عنه.

وكان من الضروري أن يواجه باجابة ساخرة تعلمه من هو وتواجهه بحقيقته وتطفىء كل بريق أو ادعاء للعظمة يمكن أن يتظاهر به أمام الجنود الخائفين المستسلمين لابن زياد وبطشه وعنفه. فقد أجابه قائلًا: (ياالبوال على عقبيه، ما إياك أخاطب، إنما أنت بهيمة. والله ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين، فابشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم)[1].

تعرية المجرمين، تعرية للسائرين في ركابهم: «لا يغرنكم من دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه»

كان زهير يريد بذلك الجميع أن يتجاهلوه، ولا ينبهروا بما يتظاهر به من قوة وسطوة ونفوذ، وكان يدرك أنه لن يستطيع الدفاع عن نفسه أمامهم، وما عساه أن

(١) المصدر السابق.

يقول، هل سيقول أنه أحد حفاظ القرآن الكريم، وهل سيجيبه بآيات منه؟ وهل سيشهد له أحد أنه لم يكن بمثل ما وصفه به زهير؟ أم أنها الحقيقة الواقعة؟ أنَّ غاية ما يستطيع شمر قوله، إن استطاع أن يتكلم بروية وهدوء هو أنه ينفذ أوامر أسياده (ولاة الأمر) المزيفين، وهم على حق، لأنهم ولاة أمر، هكذا زيفت أحكام الإسلام وأقوال القرآن، يزعم ذلك ولا يستطرد بأكثر منه.

كان كشف حقيقة شمر، التي لم تكن خافية على الجميع، كفيلًا باشعار الجميع بالعار، إذ ارتضوا أن يكون القائد الفعلي لهم والناطق والمتحدث باسمهم، فكأنما لم يكونوا، وكأنما لم تكن لهم ألسنة. وهو عار أراد شمر تخليصهم منه وتخفيف وطأته عليهم بجوابه الشامت لزهير، إذ لم يكن لديه ما يقوله غيره. (إن الله قاتلك وصاحبك عن ساعة)[1].

وكأنه ظن أن زهير عندما يستمع لقوله هذا سينكمش ويخاف ويتلعثم، وكأنه لم يكن موطناً نفسه على الموت حقاً. فأجابه ساخراً:

(أفبالموت تخوفني، فوالله للموت معه أحب إليَّ من الخلد معكم)[2].

وهو جواب من شأنه أن يلفت أنظار الجميع إلى المأزق الذي وضعوا أنفسهم فيه بانحيازهم لدولة الظلم وكونهم جنوداً لها. ومن شأنه أيضاً أن يجعلهم يغيرون مواقفهم لو كانت لهم إرادة الإسلام الحرة الواعية المتبصرة. ولكنهم فقدوا هذه الإرادة واستسلموا وماتوا منذ زمن بعيد وأصبحوا جثثاً هامدة بين أيدي جلاديهم وظالميهم.

وكان الأمر أشد اثارة للحزن من أي شيء آخر. أحقاً أنه لا يوجد من يستمع إليه ويستجيب لكلماته..؟ أحقاً أن هؤلاء قد صمموا على الاسترسال بجريمتهم إلى النهاية والمضي إلى حد قتل الحسين عليه السلام نفسه، قائدهم وإمامهم وابن قائدهم وإمامهم وابن رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه..؟.

ولو كان لزهير ألف حنجرة لصرخ بها محذراً. إلا أنه لم يملك سوى حنجرة واحدة. وقد (أقبل على الناس رافعاً صوته، فقال: عباد الله، لا يغرنكم من دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه، فوالله لا تنال شفاعة محمد صلى الله عليه وآله قوماً هرقوا دماء ذريته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم وذبَّ عن حريمهم)[3].

---

(١) - (٣) الطبري ٣/ ٣٢٠ وتراجع المصادر السابقة.

كان الأمر مروعاً حقاً. فهل كان بمستطاع أحد أن يتصور أن الناس يمكن أن يقبلوا بأمثال هذا الجلف الجاهل الغليظ قائداً لهم وناطقاً باسمهم، ليواجهوا به الحسين عليه السلام ابن رسول الله ﷺ. ويتمادوا إلى حد الذهاب في الجريمة إلى أبعد حد لقتله وقتل أصحابه وكأنهم لم يفعلوا شيئاً. وكأن الأمور بذلك كانت طبيعية واعتيادية.؟ وكأنهم لا يزالوا ينتمون للإسلام حقاً؟

لم يكن بمستطاع أحد أن يقول أكثر مما قاله زهير، لقد نصح وأبلغ لو كان ينفع النصح والابلاغ. ولو كان موجهاً لقوم يعون ويدركون حقيقة ما يقومون به، لا لأموات لا يسمعون ولا يفقهون ولا يعون. كان بمواجهة زهير أناس مهزومون مستسلمون خائفون أذلاء فقدوا إرادتهم تحت وطأة العنف والاضطهاد والارهاب، لذلك فإنه لا جدوى من الكلام معهم.

وهكذا قال له من جاء يدعوه للعودة: (إن أبا عبدالله يقول لك: أقبل، فلعمري لئن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه، وأبلغ في الدعاء، لقد نصحت لهؤلاء وأبلغت، لو نفع النصح والابلاغ)[1].

كان الحسين عليه السلام يراقب مؤمن آل محمد ﷺ وهو ينصح ويبلغ في الدعاء، كما كان مؤمن آل فرعون ينصح ويبلغ في الدعاء. ولقد نصح وأبلغ وبذل كل جهد مستطاع غير أنه كان يخاطب أناساً فقدوا شعورهم وحياتهم.

وفاء وولاء: «أقدم هديت هادياً مهدّياً، فاليوم تلقى جدك النبيّا»

لقد وفى قائد ميمنة الحسين عليه السلام، زهير بن القين بوعوده التي قطعها أمام الله، لنصرة الحسين، وكان يبدو مستعداً للقتل ألف مرة ليظل إمام الأمة سالماً وتظل الأمة سالمة ببقائه.

قاتل زهير مع الحر (قتالًا شديداً، فكان إذا شدَّ أحدهما، فإن استلحم شدَّ الآخر حتى يخلصه. ففعلا ذلك ساعة)[2] إلى أن قتل الحر. وظل زهير يقاتل قتالًا شديداً وأخذ يقول:

---

(١) الطبري ٣/ ٣٢٠ وتراجع المصادر السابقة.
(٢) نفس المصدر.

(أنا زهيرٌ وأنا ابن القين   أذودهم بالسيف عن حسين[1]

وأخذ يضرب على منكب الحسين ويقول:

أقدم هديت هادياً مهديا   فاليوم تلقى جدك النبيّا
وحسناً والمرتضى عليا   وذا الجناحين الفتى الكميّا
وأسد الله الشهيد الحيا[2]

إلى اللقاء في الجنة: «لا يبعدنك الله يا زهير»

وكان الحسين عليه السلام قد طلب منه ومن سعيد بن عبدالله الحنفي أن يتقدما أمامه حتى يصلي صلاة الظهر[3]. فتقدما وقتل سعيد وبقي زهير يقاتل حتى قتل جماعة كبيرة من الأعداء. (ثم عطف عليه كثير بن عبدالله الشعبي والمهاجر بن أوس التميمي فقتلاه)[4].

وقد رثاه الحسين عليه السلام قائلًا: (لا يبعدنك الله يا زهير، ولعن قاتلك لعن الذين مسخوا قردة وخنازير)[5].

وهكذا مضى زهير مع الحسين عليه السلام إلى النهاية، مع أنه لم يكن قد راسله ووعده نصرته. إلا أنه رأى أنه كان بسبيل انجاز أكبر مهمة في تاريخ الإسلام لانقاذ الأمة من الانحراف، فرأى أن يشارك بهذه المهمة. وقد كان له دور بارز ستظل الأمة تذكره على الدوام. كدور إنساني ممكن التكرار ما دام هناك من يتمتع بوعي صحيح وإرادة حرة كوعي زهير وإرادته.

---

(١) وفي مقتل الحسين للخوارزمي بيتان آخران.
أن حسيناً أحد لسبطين   من عشرة البر التقي الزين
ذاك رسول الله غير المين   أضربكم ولا أرى من شين
وراجع مقتل الحسين للسيد محمد تقي بحر العلوم ص ٤٠٥.

(٢) الطبري ٣/ ٣٢٨.

(٣) الخوارزمي ٢ - ١٧ واللهوف ٤٣ والنويري ٢٠/ ٤٥١ وقد ذكر الطبري ٣/ ٣٢٨ أن الذي تقدم كان سعيد بن عبدالله الحنفي وحده، وشايعه على ذلك مجموعة من المؤرخين.

(٤) الطبري ٣/ ٣٢٨ وابن الأثير ٣/ ٢٩٢ وابن شهرآشوب ٤ - ١٠٤ والنويري ٢٠/ ٤٥٢.

(٥) الخوارزمي ٢ ص ٢٠.

٢ - الحر بن يزيد الرياحي[١]

لم يظهر الحر على ساحة الأحداث قبل وصول الحسين عليه السلام (ذي حُسُم) وقد علمنا حينذاك أنه كان أحد رجال الحصين بن نمير التميمي، ومن قواد ابن زياد. وكان أول من تصدى للحسين عليه السلام بناء على الأوامر التي تلقاها من ابن نمير[٢] الذي تلقاها بدوره من ابن زياد بناء على توجيهات يزيد وأوامره.

وكان يزيد قد كتب لابن زياد بعيد اقدامه على قتل مسلم وهانيء وخروج الحسين عليه السلام من مكة: **(أنه قد بلغني أنَّ الحسين بن علي قد توجه نحو العراق. فضع المناظر والمسالح، واحترس على الظن وخذ على التهمة)**[٣].

وقد بعث ابن زياد (الحصين بن تميم صاحب شرطه، حتى نزل القادسية ونظم الخيل ما بين القادسية إلى خفان وما بين القادسية إلى القطقطانة وإلى لعلع)[٤].

(وقدّم الحر بن يزيد بين يديه، من القادسية فيستقبل حسيناً)[٥].

إلا أن الحر لم يكن كغيره من القواد والوجهاء والرؤساء الآخرين الذين راسل معظمهم الحسين عليه السلام، ثم تراجعوا عن نصرته وأصبحوا ضمن الجيش الذي أعده ابن زياد لحربه والقضاء عليه.

بين تضليل الدولة ورؤية الواقع:

ربما كان أمر الحسين عليه السلام قد لفت نظر الحر منذ البداية ومنذ قدوم مسلم الكوفة. وربما أخذ يفكر بشكل جدي منذ اللحظة الأولى التي شاهد فيها الإمام وقابله، بطبيعة المهمة العظيمة التي كان يتصدى لها الإمام.

ومع أنه لم يتساهل مع الحسين عليه السلام وكان صارماً في تنفيذ أوامر قادته بشأن

---

(١) اليربوعي التميمي الكوفي.

(٢) ذكر أنه تميم التميمي (الطبري ٣/ ٣٠٦).

(٣) الطبري ٣/ ٢٩٣.

(٤) الطبري ٣/ ٣٠١.

(٥) المصدر السابق ٣/ ٣٠٦.

وذكر ابن حزم أنه الحر بن يزيد بن ناجية بن قعنب بن عتاب بن هرمي بن رياح بن يربوع من بني تميم) جمهرة أنساب القرب/ ص ٢١٥.

محاصرته ومنعه من الرجوع. إلا أنه لم يكن خشناً في معاملته بذلك الشكل الذي اتسم به القادة الآخرون الذين أساءوا السلوك معه بشكل متعمد متكلف تقرباً من السلطة.

ولعل أول موقف للحسين عليه السلام وأصحابه عندما لقوهم وقدموا لهم الماء الذي كانوا بحاجة ماسة إليه، بل أن حياتهم نفسها ربما كانت تعتمد عليه، وذهابهم إلى حد ترشيف خيولهم، ظل ماثلًا في ذهن هذا القائد الذي لم يرَ ظاهرة كتلك من قبل، ولم يعهد في سلوك أي فرد من أفراد السلطة ورجال الدولة والمتنافسين على الرئاسة والزعامة، شيئاً يشبه ما يراه أمامه.

ونستدل من لهجته وخطابه مع الحسين عليه السلام أنه كان يعرف من هو، ويعرف مركزه وقرابته القريبة من رسول الله صلى الله عليه وآله وقد عامله باحترام، إلا أنه لم يجد جرأة على تحدي الأوامر الصادرة إليه والتي كان ابن زياد حريصاً على تنفيذها مهما اقتضى الأمر، لأنه كان يعرف قسوته وجرأته على سفك الدماء.

أرادوا موت الحسين، وأراد الحسين حياتهم: «اسقوا القوم وارووهم من الماء»:

قبل مغادرة الإمام الحسين عليه السلام وركبه (شراف)، أمر فتيانه فاستقوا من الماء، فأكثروا بشكل غير اعتيادي وبمقادير تفوق احتياجهم بكثير، ولم يسأل أحدٌ الإمام عن سر ذلك، إلا أن الأمر اتضح فيما بعد، عند (ذي حُسُم)، فقد أقبلت طليعة ابن زياد (وهم ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمي اليربوعي، حتى وقف هو وخيله مقابل الحسين في حر الظهيرة، والحسين وأصحابه معتمُّون متقلدي أسيافهم.

فقال الحسين لفتيانه: اسقوا القوم وارووهم من الماء، ورشفوا الخيل ترشيفاً، فقام فتيانه فرشّفوا الخيل ترشيفا. فقام فتية وسقوا القوم من الماء حتى أرووهم، وأقبلوا يملؤون القصاع والأتوار والطساس من الماء ثم يدنونها من الفرس، فإذا عبَّ فيه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً عزلت عنه، وسقوا آخر حتى سقوا الخيل كلها)[1].

وقد شارك الحسين عليه السلام نفسه بسقي القوم وخيولهم، في لفتة إنسانية كريمة

---

(١) الطبري ٣/ ٣٠٥ وابن الأثير ٣/ ٢٧٩. ومروج الذهب ٣/ ٦٠ والارشاد للمفيد ص ٢٢٣ والبحار ٤٤ - ٣٧٥ وأعيان الشيعة ٢٠/ ٣٧٠ ومناقب آل أبي طالب ٤ - ٩٥ وأمالي الصدوق ١٥٤.

جديرة به حقاً. فكيف يحصل أن يقدم قائد مستهدف من قبل عدوٍ شرس شرير على تقديم شيء يضمن حياة ذلك العدو وبقائه على قيد الحياة، مع أنه قد لا يكون طلب ذلك منه. لم يرَ الحسين عليه السلام أمامه إلا رجالًا عطاشى وخيولًا بحاجة ماسة للماء، فقدم الماء لهم.

ثم كيف حصل أنه أمر فتيانه فاستقوا من الماء تلك الكمية الهائلة التي كفت ألف فارس مع خيولهم..؟ لا بد أنها كرامة من كرامته، وعلم من العلم الذي وصل إليه عن أبيه عليه السلام من جده صلى الله عليه وآله. فمقابلته عدوه بتلك السماحة واحسانه إليه وتقديم ما يضمن حياته، ليست أمراً عادياً يقدم عليه متنافسون عاديون على السلطة والمركز. بل إنّه أمر جدير بالأنبياء وحملة الرسالات الكبيرة الذين تهمهم حياة ومستقبل كل إنسان على هذه الأرض. وهو أمر لا بد أن يلفت نظر الأمة كلها فيما بعد لتفكر بأمر تلك الثورة العظيمة التي أرادت انقاذها من الانحراف الأموي الكبير.

لقد أُمِرَ الحر بملازمة الحسين عليه السلام وتقديمه لابن زياد. أما كيف ولماذا، فهذا أمر لعله لم يجل بباله؛ ولعله لم يفكر بالقضية برمتها بشكل جدي من قبل ولم يتساءل عن الأسباب الحقيقية لقدوم الحسين إلى الكوفة.

لقد استمع إلى خطبة الحسين عليه السلام الأولى التي تحدث عن رسل وكتب الكوفة إليه ولم يرد عليه كما لم يرد عليه أحدٌ من أصحابه، بل إنه صلى مع أصحابه خلف الإمام الحسين صلاتي الظهر والعصر. ويبدو أنه لم يكن يعلم بمسألة الكتب التي أرسلها أهل الكوفة إليه. وقد أنكر أمام الحسين عليه السلام علمه بها.

الحر: صلى خلف الحسين عليه السلام مع أنه أمر بمحاصرته

ولنستمع إلى أحد أصحاب الحر، علي بن الطعان المحاربي يحدثنا عن هذا الأمر (فلم يزل [الحر] موافقاً حسيناً حتى حضرت الصلاة، صلاة الظهر، فأمر الحسين الحجاج بن مسروق الجعفي أن يؤذن، فأذن، فلما حضرت الإقامة، خرج الحسين في إزار ورداء نعلين، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنها معذرة إلى الله عز وجل وإليكم، إني لم آتكم حتى أتتني كتبكم، وقدمت عليَّ رسلكم، أن أقدم علينا، فإنه ليس لنا إمام، لعلَّ الله يجمعنا بك على الهدى، فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم، فإن تعطوني ما اطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم أقدم مصركم، وإن لم تفعلوا، وكنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذي أقبلت منه إليكم.

فسكتوا عنه. وقال للمؤذن: أقم. فأقام الصلاة.

فقال الحسين عليه السلام للحر: أتريد أن تصلي بأصحابك؟.

قال: لا، بل تصلي أنت ونصلّي بصلاتك. فصلى بهم الحسين.

ثم إنَّه دخل واجتمع إليه أصحابه. وانصرف الحر إلى مكانه الذي كان به. فدخل خيمة قد ضربت له، فاجتمع إليه جماعة من أصحابه. وعاد أصحابه إلى صفهم الذين كانوا فيه فأعادوه. ثم أخذ كل رجل منهم بعنان دابته وجلس في ظلها، فلما كان وقت العصر أمر الحسين أن يتهيؤوا للرحيل. ثم أنه خرج فأمر مناديه فنادى بالعصر، وأقام، فاستقدم الحسين فصلى بالقوم ثم سلم، وانصرف إلى القوم بوجهه ثم قال:

أما بعد، أيها الناس، فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله، يكن أرضى الله، ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم، من هؤلاء المدعين ما ليس لهم. والسائرين فيكم بالجور والعدوان، وإن أنتم كرهتمونا وجهلتم حقنا، وكان رأيكم غير ما أتتني كتبكم، وقدمت به عليَّ رسلكم، انصرفت عنكم.

فقال له الحر بن يزيد: إنّا والله ما ندري، ما هذه الكتب التي تذكر.

فقال الحسين: يا عقبة بن سمعان، اخرج الخرجين اللذين فيهما كتبهم إليَّ، فأخرج خرجين مملوءين صحفاً، فنشرها بين أيديهم.

فقال الحر: فإنّا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك)[1].

فلم يكن الحر إذاً ممن كاتبوا الحسين عليه السلام ودعوه للقدوم. وربما كان مضللاً بشأن مهمة الحسين الكبيرة لايقاف الانحراف وردع دولة الظلم عن ممارساتها الجائرة. وربما لم يكلف نفسه في السابق بالتعرف على أهدافه ومقاصده.

تنفيذ أوامر الدولة

لكنه يعرض نفسه هنا كأحد جنود الدولة المخلصين المأمورين بالسمع والطاعة وتنفيذ التعليمات، أما ما عدا ذلك فإنه لم يكن من اختصاصه. ليس عليه أن يسأل أو يستفسر أو يناقش فتلك شؤون عليا، لا شأن له ولأمثاله فيها. هكذا أرادت دولة الظلم

(١) الطبري ٣/ ٣٠٦ وابن الأثير ٣/ ٢٨٠ ومناقب ابن شهرآشوب ٤/ ٩٦. وروضة الواعظين للقتال ١٨٠ والارشاد ٢٠٨ والخوارزمي ١ ف ١١ وأنساب الأشراف للبلاذري ٣/ ١٧١.

من كل فرد يريد أن يظل حياً. وهكذا قال للإمام الحسين عليه السلام أنه قد أمر بملاقاته وعدم فراقه وتقديمه لابن زياد.

(وقد أمرنا إذا نحن لقيناك ألا نفارقك حتى نقدمك على عبيدالله بن زياد)[١] إلا أن الحسين عليه السلام واجهه بصلابة قائلًا له: (الموت أدنى إليك من ذلك)[٢] وأمر أصحابه أن يقوموا فيركبوا، فركبوا وانتظروا حتى ركبت نساؤهم، إلا أن الحر منعهم من الانصراف.

ربما حسب الحر أنه ما دام لم يكن أحد الذين كتبوا للحسين عليه السلام يدعونه للقدوم والأخذ بأيديهم لمقاومة الحكام الجائرين. فإنه كان في حل من قتاله أو تقديمه لأعدائه، بل والانتصار لهم والوقوف في صفهم ما داموا قد وظفوه في دولتهم وكلفوه بحماية مصالحهم ومؤسستهم الحاكمة.

وربما كان تفكيره ذاك نتاج ما رسّخه معاوية في الأذهان وجعل منه عرفاً سائداً وتقليداً أراد الجميع أن يأخذوا به، وهو جعل ولاء الناس، وفي مقدمتهم رجال الدولة ومستخدموها مرهوناً بإرادة رموزها ورأسها الكبير باعتباره المثل الأعلى الوحيد الذي ينبغي أن يتطلعوا إليه، وينسوا ما سواه. وأن أي تطلع إلى الله عز وجل ينبغي أن يكون من خلال الاطاعة العمياء (لممثله وخليفته)، دون أن يتيح أحد لنفسه الحق في التساؤل عن شرعية وجود هذا (الخليفة) أو محاسبته، بعد أن نصب نفسه سلطاناً ومفوضاً إلهياً مطلقاً ينوب عن الله باصدار الأحكام والتشريعات والقوانين. لقد كان الأمر أمر هرقلية أو قيصرية جديدة أريد التمهيد لها لتكون هي الحالة الوحيدة المتقبلة بين أبناء الأمة.

هل صحح خطأه بعد فوات الأوان؟ حاصر الحسين عليه السلام أولًا ثم نصره بعد ذلك

ويكشف حوار الحسين عليه السلام مع الحر جوانب عديدة يمكن أن تعرفنا على هذا القائد الذي أدرك خطأه في اللحظات الأخيرة، فصحح ذلك الخطأ، وكان ثمن ذلك بذل دمه مع دماء أوائل الذين استشهدوا من أصحاب الحسين عليه السلام. فهو يكشف لنا أنه لم يكن يتميز بما تميز به القادة الآخرون من أخلاق فظة ونفوس جاسية

(١) المصادر السابقة.
(٢) المصادر السابقة.

غليظة. كما يكشف أنه كان يمر منذ اللحظة الأولى التي التقى فيها بالإمام، وقد أمر لهم ولخيولهم بالماء الذي كانوا بحاجة ماسة إليه، وكان بامكانه أن يتغلب عليهم وهم بذلك الموقف الصعب، بمرحلة محاسبة للنفس واقبال على التغيير وتقويم الموقف وربما معرفة الجهة التي يقف إلى جانبها وينحاز إليها في النهاية. ومع أن تقويمه جاء متأخراً، وكان هو العامل الأول الذي أثر على وضع الحسين عليه السلام وجعله يقف بمواجهة جيش أكثر قوة وعدداً. إلا أنه تم بشكل حاسم، وسجل التاريخ للحر في آخر لحظة من حياته موقفاً مبدئياً صلباً لا يمكن أن ينسى. وإن تمنى متتبع لتاريخ الحر في تلك الفترة القصيرة من حياته أمراً، فإنه لا بد أن يتمنى لو أنه فعل ما فعله في آخر لحظة من حياته قد في بداية لقائه مع الحسين عليه السلام. ولربما سبّب في هذه الحال تغيير معادلة الحرب بأكملها وانتصار الحسين عليه السلام عسكرياً على أعدائه وانحياز أعداد كبيرة من الناس إليه.

غير أن ما وقع قد وقع. وأراد الحر في البداية أن يقدم الحسين عليه السلام على ابن زياد، إلا أن الحسين عليه السلام رفض ذلك، رفضاً قاطعاً، وكان جوابه للحر: (الموت أدنى إليك من ذلك) إشارة أكيدة لذلك الرفض.

(ثم قال لأصحابه: قوموا فاركبوا، فركبوا وانتظروا حتى ركبت نساؤهم، فقال لأصحابه: انصرفوا بنا. فلما ذهبوا لينصرفوا حال القوم بينهم وبين الانصراف. فقال الحسين للحر: ثكلتك أمك ما تريد؟.

قال: أما والله لو غيرك من العرب يقولها لي وهو على مثل الحال التي أنت عليها، ما تركت ذكر أمه بالثكل أن أقوله كائناً من كان. ولكن والله ما لي إلى ذكر أمك من سبيل إلا بأحسن ما يقدر عليه.

فقال له الحسين: فما تريد؟.

قال الحر: أريد والله أن انطلق بك إلى عبيدالله بن زياد.

قال له الحسين: إذاً والله لا أتبعك.

فقال له الحر: إذا والله لا أدعك.

فترادا القول ثلاث مرات. ولما كثر الكلام بينهما قال له الحر: إني لم أومر بقتالك، وإنما أمرت ألا أفارقك حتى أقدمك الكوفة. فإذا أبيت فخذ طريقاً لا تدخلك الكوفة، ولا تردك إلى المدينة، تكون بيني وبينك نصفاً حتى أكتب إلى ابن زياد

وتكتب أنت إلى يزيد بن معاوية إن أردت أن تكتب إليه، وإلى عبيدالله بن زياد إن شئت، فلعل الله إلى ذاك أن يأتي بأمر يرزقني فيه العافية من أن ابتلى بشيء من أمرك.

فخذ هاهنا فتياسر عن طريق العُذيب والقادسية، وبينه وبين العذيب ثمانية وثلاثون ميلًا.

ثم إن الحسين في أصحابه والحر يسايره..)[1].

لا.. لدولة الظلم

يستدل بعض من تصدوا لأمور التاريخ من هذه المحاورة، أن الحسين عليه السلام كان يميل ـ بفعل الضغط الواقع عليه بعيد ملاقاة الحر ومحاصرة جيش ابن زياد له ـ إلى الاتصال بيزيد مباشرة أو الكتابة إليه ووضع يده في يده. وأنه قد طلب فعلًا من ابن سعد بعد ذلك أن يدعه يرجع من حيث أتى أو يذهب إلى ثغر من ثغور المسلمين فيقاتل هناك ويجاهد أعداء الإسلام الآخرين أو يذهب إلى يزيد فيضع يده في يده. وبنوا هذا الظن على ادعاء من ابن سعد قيل أنه كاتب به ابن زياد، كما بنوها على أقوال الحر هذه، وأقوال أخرى نسبت إليه فيما بعد، قبيل نشوب القتال.

وقد أوضحنا في فصل سابق بطلان هذه الادعاءات التي يقصد منها التنصل من تبعة الجريمة واثبات شرعية وجود يزيد خليفة على المسلمين، ما دام الحسين عليه السلام نفسه قد أراد وضع يده في يده ومبايعته. وعلمنا أن مصدرها الوحيد ابن سعد القاتل، ورأس الحربة في هذه الجريمة المروّعة.

لقد طلب الحر من الحسين عليه السلام أن يجعلا الطريق بينهما نصفاً حتى يكتب لابن زياد عن آخر تطورات الموقف، كما يتضح من سياق المحاورة، أو يكتب الحسين عليه السلام إلى يزيد أو ابن زياد إن أراد ذلك. ولنتنبه جيداً إلى مضمون كلمات الحوار. فالحر لم يقل للحسين عليه السلام: كما أردت ذلك، حتى يستدل أحد على أن الحسين عليه السلام طلب ذلك بنفسه وإن الحر استجاب له، ووضع حلّا وسطاً لذلك. بل إنه يبدو وكأنه اقتراح مطروح من الحر على الحسين عليه السلام إن شاء أخذ به وإن شاء رفضه.

---

(١) المصادر السابقة.

ولو أن الحسين عليه السلام كان قد طلب ذلك فعلًا أو نواه، لكتب إلى يزيد أو ابن زياد، فلماذا لم يفعل ذلك وقد أراده؟ هل كان ينقصه الورق أو المداد؟.

كانت كلمة واحدة منه تشير إلى أنه بسبيله إلى أن يتنازل أو يساوم أو يستسلم، كفيلة بأن تشعر يزيداً أو ابن زياد بسعادة غامرة ويوافقا على كل شروطه لو كانت له شروط.

لقد وجدنا، وفقاً لما رأينا من وقائع هذه المسيرة العظيمة من المدينة إلى الكوفة، ونتائجها الملحمية الخالدة. وشهادات الشهود الذين اطلعوا على تلك الوقائع وشاركوا في بعضها، أن الحسين لم يطلب الكتابة إلى ابن زياد أو يزيد، ولم يعرض مبايعة ممثل دولة الجور والظلم والانحراف. فهل كان الحسين عليه السلام هو نفسه الذي سيقضي على آخر أمل لدى الأمة لتقويم الانحراف والرجوع إلى دولة رسول الله صلى الله عليه وآله كما أرادها الله ورسمها وخطط حدودها وشريعتها؟.

هل يصح أن يكون قائد الأمة الشرعي والحقيقي عدواً لها للدرجة التي يقدم فيها على قتلها وانتهاك حرمتها واباحتها وتسليمها لأعدائها؟.

حديث الحسين في أصحاب الحر: «ألا إنَّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان. وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود..»

وقد خطب الحسين عليه السلام أصحابه وأصحاب الحر في (البيضة) خطبة مؤثرة، استعرض فيها الأوضاع التي كان يمر بها المسلمون في ظل الدولة الأموية الجائرة وواجبهم تجاه ذلك، وفقاً لما رواه عن رسول الله صلى الله عليه وآله. وتكلم عن طبيعة المهمة التي قدم لأجلها. وقد ذكر لهم بأنه يحتمل أن لا يستجيبوا له أو يستمعوا لنصائحه. وأنه لن يعجب إذا ما فعلوا ذلك، لأنه يرى أنهم قد ماتوا إلى الأبد، وأن الخطب والنصائح وحدها لا تكفي لردهم عن انحرافهم، وربما لو جاءهم رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه لانفضوا من حوله وتركوه وحيداً يجابه الطواغيت الجدد الذين ظهروا في ظل الأوضاع الشاذة. وربما أعلنوا الحرب عليه واستهدفوه بالقتل والأذى، كما فعلت قريش معه من قبل.

قال لهم: (أيها الناس، إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من رأى سلطاناً جائراً مستحلًا لحُرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله». ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا

الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحق من غيّر. قد أتتني كتبكم، وقدمت عليّ رسلكم، ببيعتكم، وأنكم لا تسلموني، ولا تخذلوني. فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، فأنا الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، فلكم فيَّ أسوه. وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنكر؛ لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم، والمغرور من اغترَّ بكم، فحظكم أخطأتم، ونصيبكم ضيعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، وسيغني الله عنكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)[1].

لم يكن الحسين عليه السلام إذاً يعوِّل عليهم. غير أنه لم ير بُّداً من مخاطبتهم ومواجهتهم بواقعهم المتردي. الذي لم يكن وليد يومه، بل إنه قد مهد له قبل ذلك وظهرت بوادره المعلنة عندما تخلوا عن أمير المؤمنين عليه السلام وأخيه الحسن عليه السلام وارتضوا معاوية بديلًا.

ذلوا فاستعبدوا: «ألا ترون أن الحق لا يعمل به، وأن الباطل لا يتناهى عنه..»

لقد أحزنه أن يصطدم، ولما يكد يقدم الكوفة، بهذه النفوس التي سلبت إرادتها وحريتها ووعيها ووقفت خرساء أمام حججه الواضحة، مكتوفة الأيدي بينما جلادها وجزارها يسوقها لتذبح نفسها إذ تقدم على تنفيذ جرائمه المروعة.. فهي الضحية إذ تستسلم للجلاد.

كيف له أن ينقل عزائم وثبات أصحابه إلى رؤوسهم التي لم يعد يملؤها سوى الرعب من يزيد وابن زياد وأعوانهما.. وسوى الوعود الباهتة بالجاه والمال. أما ما عدا ذلك، أما الإسلام ورسول الله ﷺ فلا مكان لهما في تلك الرؤوس والأذهان التي تخدَّرت وشلّت بتأثير الوضع الأموي الشاذ.

لم يكن أبلغ من مشاهدته وهو يقدم بنفسه وأهله لمقاومة الانحراف والشذوذ. وهو أكرم الخلق على الله وأقربهم من رسوله ﷺ، ونفسه أعز الأنفس، ودمه أشرف الدماء. ومع ذلك فقد أقبل إليهم مستعداً للتضحية بكل ذلك في سبيل نصرة الإسلام ونصرتهم هم. وكان ينبغي عليهم أن يتأسوا به ويكونوا مثله ويقدموا كل ما لديهم

(١) المصادر السابقة.

لنصرة الإسلام ونصرته. ومع ذلك لم يتحركوا ولم تلح بادرة أمل واحدة تدل على أنهم سوف يغيرون مواقفهم ويقفون الوقفة التي دعا إليها رسول الله ﷺ والتي أشار إليها الإمام عليه السلام في مطلع خطبته.

وكان لا بد من استمرار جهوده معهم ومخاطبتهم، عسى أن يتراجعوا عن تخاذلهم وخوفهم واستسلامهم. فخطابه سيكون للأمة كلها وستستمع إليه أجيالها على مر التاريخ. وإذ لم يستجب أولئك المعنيّون المباشرون بالخطاب، لكلمات الإمام ونصائحه وتحذيراته، فإن أجيالًا عديدة ستستمع إليه وتلتحق به وإن بعدت الشقة وطال الزمن.

قام ثانية بـ (ذي حسم)، (فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنه قد نزل من الأمر ما قد ترون، وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت، وأدبر معروفها واستمرت حذّاء، فلم يبق منها إلا صبابة كصبابة الاناء، وخسيس عيشٍ كالمرعى الوبيل. ألا ترون أن الحق لا يعمل به، وأن الباطل لا يتناهى عنه، ليرغبَ المؤمن في لقاء الله محقاً، فإني لا أرى الموت إلا شهادة، وإلا الحياة مع الظالمين إلا برماً)[1].

كان حكم بني أمية نازلة حقاً، وكان كارثة حقيقية حلت بالمسلمين وأفقدتهم أمنهم واستقرارهم وسعادتهم في ظل الإسلام.

أليسوا قد غيروا كل ما أراد رسول الله ﷺ تثبيته وبناءه؟ ألم تذهب في عهدهم كل القيم الخيرة التي جاء بها الإسلام؟ ألا تبدو مرارة حكمهم بقلوب وأفواه الذين ذاقوا حلاوة الإسلام؟ واستمتعوا بها؟ ألم يبعد هذا الدين عن الحياة فعلًا ليسود الباطل والشرك والضلال؟ فلماذا يعيش الإنسان في هذا الجو الذي تسلب فيه حريته وإرادته ويمسخ فيه وجوده دون هدف واضح أو قيمة عليا حقيقية.. اللهم إلا خدمة الظالمين والسير بركابهم ومساعدتهم على تثبيت عروشهم وبسط سلطانهم..؟.

---

(١) المصادر السابقة والنص عن الطبري ٣/ ٣٠٧ وقد ورد في رواية أخرى أن الحر عندما لقيه نصحه بالرجوع قائلًا: (راجع فإني لم أدع لك خلفي خيراً أرجوه، فهم أن يرجع، وكان معه اخوة مسلم بن عقيل، فقالوا: والله لا نرجع حتى نصيب بثأرنا أو نقتل، فقال: لا خير في الحياة بعدكم، فساد..) الطبري ٣/ ٢٩٨ وقد أوضحنا الأسباب المرجحة لبطلان هذه الرواية في مقالة سابقة في هذا الكتاب، والغرض من دس أمثالها عند استعراض نهضة الحسين المباركة.

الموت ليس نهاية كل شيء: «أفبالموت تخوفني.. وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني»

ولم يجد الحر، حتى هذه اللحظة ما يرد به على الحسين عليه السلام، وقد رأى شدة تعلق أصحابه به وولائهم له واندفاعهم خلفه دون تحفظ أو تردد، ولعله رأى أن الشيء الوحيد الذي ينبغي المحافظة عليه هو الحياة، وإن كانت دون هدف أو في ظل الظالمين.

قال له وهو يسايره في الطريق: (إني أذكّرك الله في نفسك. فإني أشهد لئن قاتلت لتقتلنَّ، ولئن قوتلت لتهلكنَّ فيما أرى)[1].

ربما كان يرى أن الحياة هي الغاية والمحطة الأخيرة.. ولم يكن يجد لها معنى إلا بشكلها المجرد هذا بعيداً عن الهدف. وربما لم يجد سبباً للتضحية بها وفقدانها وتعريضها للبوار من أجل غايات لم يكن يفقهها لحد الآن. فالقيم الأموية المتدنية ربما كانت تؤثر عليه ومنطق الكسب والمنفعة هو الذي يشغل تفكيره.

فلئن مات الحسين عليه السلام وفقد حياته، فإن الحر، كان يرى، أنه بذلك قد خسر، ما دام لم يحقق ربحاً مادياً على هذه الأرض، وقد حسب أنه كان يسعى كما كان يسعى معاوية أو يزيد وغيرهم للحصول على الملك وكرسي السلطة، وتمهيد العرش لأبنائه من بعده. لم يكن ـ لغاية تلك اللحظة ـ يفهم لغة الحسين ومنطق الحسين ومهمة الحسين.. وكان يرى أمامه معاوية ويزيد وابن زياد. يتحدث بلغتهم ويفهم منطقهم الذي يعزف على أوتار المنفعة والمصالح المادية الأرضية البحتة. أما ما سوى ذلك فلم يصل إليه الحر حتى تلك اللحظة.

«سأمضي وما بالموت عار على الفتى شعر إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلما»

وقد آلمت الحسين عليه السلام تلك اللهجة التحذيرية من الحر، كما آلمته التحذيرات السابقة. فهل أن الناس جميعاً جعلوا هذه الحياة ـ مجردة من الهدف الأعلى الذي نادى به الإسلام ـ هي الهدف الحقيقي، وإن كانت بعيدة عن الإسلام وفي ظل الظلم والانحراف..؟ وهل أن الموت يخيفهم للدرجة التي لا يجرؤون معها على التصدّي للظلم والانحراف؟ وهل لم يعودوا يؤمنوا بالحياة الآخرة وثوابها وعقابها؟.

---

(١) المصدر السابق.

وقد رد على الحر قائلًا: (أفالموت تخوفني؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني؟ ما أدري ما أقول لك، ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه، ولقيه وهو يريد نصرة رسول الله ﷺ فقال له: أين تذهب، فإنك مقتول؟ فقال:

سأمضي وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلما
وآسى الرجال الصالحين بنفسه وفارق مثبوراً يغشُّ ويُرغما

فلما سمع ذلك الحر، تنحى عنه)[1].

هل كان أي شخص من أصحاب الحسين عليه السلام يخشى الموت حتى يخشاه هو، ويتراجع عن مهمته تحت وطأة هذا الخوف وتأثيره؟

لا شك إنه كان يرى أن الغاية التي يضحّي من أجلها، أثمن من السنوات القليلة المتبقية من هذا العمر الذي لا بد أن ينتهي على هذه الأرض، لتبدأ حياة جديدة خالدة مستمرة. وهي جديرة بالسعي لتكون حياة سعيدة في جنة الخلد مع رسول الله ﷺ ومع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين.

تردد بين التشدّد والتسامح:

وفي (عُذيب الهجانات) التحق بالحسين عليه السلام أربعة نفر قد أقبلوا من الكوفة، على رواحلهم وقد أراد الحر احتجازهم أو ردّهم عنه وقال للحسين عليه السلام: (إن هؤلاء النفر الذين من أهل الكوفة ليسوا ممن أقبل معك، وأنا حابسهم أو رادّهم، فقال له الحسين: لأمنعنهم مما أمنع منه نفسي، إنما هؤلاء أنصاري وأعواني، وقد كنت أعطيتني ألا تعرض لي بشيء حتى يأتيك كتاب من ابن زياد.

فقال: أجل، لكن لم يأتوا معك.

قال: هم أصحابي، وهم بمنزلة من جاء معي، فإن تممت على ما كان بيني وبينك وإلا ناجزتك، فكفَّ عنهم الحر)[2].

ولعل التزام الحسين عليه السلام جانب أصحابه الجدد وحرصه عليهم وقوله للحر أنهم بمنزلة من جاء معه، موضع تأمل آخر للحر، وأمراً جعله يفكر بالموقف كله

---

(١) المصادر السابقة والنص من الطبري ٣/٣٠٧.
(٢) النص للطبري ٣/٣٠٨ وراجع المصادر السابقة.

وربما الالتحاق به بعد ذلك. إذ ما الذي يتميز به هؤلاء عليه، حتى يلتحقوا بالإمام ولا يلتحق هو به. وأي شيء فهموه ولم يفهمه لحد الآن!.

وقد أخبر هؤلاء الأنصار الجدد، الإمام الحسين عليه السلام بطبيعة الموقف في الكوفة، وأنه ليس لصالحه، ولخصه له أحدهم بقوله: (أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم، وملئت غرائزهم، يستمال ودّهم، ويستخلص به نصيحتهم، فهم إلبٌ واحدٌ عليك، وأما سائر الناس بعد، فإن أفئدتهم تهوي إليك، وسيوفهم غداً مشهورة عليك)[1] كما أخبروه بمقتل رسوله إلى الكوفة قيس بن مسهر الصيداوي والقائه من طمار القصر بناء على أوامر ابن زياد، وقد تأثر الحسين عليه السلام عند سماعه ذلك، ولم يملك دمعه على صاحبه قيس الذي نصره وأبى أن يسبه ودعا الناس إلى نصرته والتخلي عن ابن زياد.

التحقوا به رغم أنهم رأوا الجيش الذي أعد لقتاله

وقال له آخر منهم: (رأيت قبل خروجي من الكوفة إليك بيوم، ظهر الكوفة، وفيه من الناس ما لم ترَ عيناي في صعيد واحد جمعاً أكثر منه، فسألت عنهم فقيل: اجتمعوا ليعرضوا ثم يسرّحون إلى الحسين)[2].

وقد رفض الحسين عليه السلام التراجع بناء على النصيحة التي قدمها له ناقل الخبر هذا. . ولعل القول الذي دار بينه وبين الحر هو الذي جعله يخطو هذه الخطوة، لا قوة الحر العسكرية.

مسألة للتأمل والنظر:

إن مسألة الرجوع هذه ينبغي التأمل فيها جيداً. فالحسين عليه السلام كان يعلم حق العلم ـ وقد أخبر بذلك عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله ـ أنه سيصل كربلاء وسيقتل هناك، وقد تيقن من ذلك ولم يعد لديه شك فيه. وما ورد في بعض الروايات أنه عرض على الحر وابن سعد الرجوع ـ إذا ما صحت ـ يكون في باب القاء الحجة. فهؤلاء قوم قد استدعوه، وهذه كتبهم إليه. أما وقد تراجعوا عن نصرته، فليدعوه يرجع من حيث أتى، وإلا كان ذلك منهم خيانة كبرى له ولجده صلى الله عليه وآله وللإسلام. وكان ذلك غدراً

(١) و(٢) المصدر السابق.

فاضحاً، ففرص الرجوع كانت متاحة للحسين عليه السلام لو أراد ذلك، قبل أن يحاصر من قبل جيش ابن زياد. ومع ذلك فإنه سار في طريقه إلى ساحة كربلاء، حيث سيتاح للأمة، ولأكبر عدد من جماهيرها أن تشهد هناك قضيته وتطلع على جوانبها وعلى الطريقة التي سيقدّم فيها نفسه وأصحابه أنفسهم من أجل انجاحها وعرضها عرضاً واضحاً على هذه الأمة التي أراد أن تنتفض وتنهض مثله.

الأوامر أولًا.. نفذ ولا تناقش

واستمرت المسيرة، واستمرت مضايقات الحر للحسين عليه السلام الذي (أخذ يتياسر بأصحابه، يريد أن يفرقهم، فيأتيه الحر بن يزيد فيردّهم فيردّه، فجعل إذا ردّهم إلى الكوفة، رداً شديداً امتنعوا عليه فارتفعوا. فلم يزالوا يتسايرون، حتى انتهوا إلى نينوى، المكان الذي نزل به الحسين)[1].

كانت مهمة الحر إذا واضحة وهي مضايقة الحسين عليه السلام ودفعه نحو الكوفة.. وهو ما بدا أن الحسين عليه السلام قد رفضه، حتى وصلوا نينوى، وهي إحدى قرى الطف الواقعة في حدود كربلاء.. وهناك ورد راكب من الكوفة على نجيب له وعليه السلاح متنكب قوساً.. (فلما انتهى إليهم سلم على الحر بن يزيد وأصحابه، ولم يسلّم على الحسين عليه السلام وأصحابه، فدفع إلى الحر كتاباً من عبيدالله بن زياد فإذا فيه: أما بعد، فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي، ويقدم عليك رسولي، فلا تنزله إلا بالعراء، في غير حصن وعلى غير ماء. وقد أمرت رسولي أن يلزمك ولا يفارقك، حتى يأتيني بانفاذك أمري)[2].

وقد أعلم الحرُّ الإمام الحسين عليه السلام بمضمون كتاب ابن زياد، وبمهمة الرسول الذي جاء به وهي مراقبته ليرى مدى التزامه بتنفيذ الأوامر الصادرة إليه منه.

كانت رسالة الحر للحسين عليه السلام واضحة هنا؛ فقد أعلمه أنه لم يكن يتصرف بدوافع شخصيه ـ، وإنما بأوامر من ابن زياد. وإذ استطاع من قبل أن يتصرف فيسمح للحسين عليه السلام بالتياسر والابتعاد عن الكوفة، فإنه لا يستطيع الآن وقد وضع تحت المراقبة إلا أن ينفذ الأوامر الصادرة إليه بدقة وصرامة. وكأنه بذلك كان يعتذر

---

(١) و(٢) الطبري ٣/ ٣٠٩ وراجع المصادر السابقة الأخرى.

للحسين عليه السلام عن موقفه معه، ويريه إنَّه كان مسيراً ومضطراً لسلوك ما سلكه معه من قبل وفي المستقبل أيضاً.

مفاهيم مقلوبة: «أطعت إمامي وعصيت ربي»

وقد جرى حوار قصير بين رسول ابن زياد، مالك بن نسير البدي الكندي، الذي كانت له مواقف غير مشرّفة في واقعة كربلاء والذي قتل فيما بعد من قبل أصحاب المختار، ويزيد بن زياد بن المهاصر، أبي الشعثاء الكندي ثم البهدلي، أحد أصحاب الحسين عليه السلام.

(فعنَّ له فقال: أمالك بن النُسير البدّي؟.

قال: نعم.

فقال له يزيد بن زياد: ثكلتك أمك، ماذا جئتَ فيه؟.

قال: وما جئت فيه، أطعت إمامي ووفيت ببيعتي.

فقال له أبو الشعثاء: عصيت ربك، وأطعت إمامك في هلاك نفسك، كسبت العار والنار، قال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾[1] فهو أمامك)[2].

وتتكرر صورة مالك بن النسير البدي الكندي وتظهر دائماً. وهي الصورة التي أريد لها أن تتكرر وتظهر. صورة الإنسان المستسلم لإرادة أعلى من إرادته، إرادة طاغوت حاول ادعاء الشرعية، وتلاعب بالإسلام ومقدرات المسلمين وأراد جعلهم كقطيع من الأنعام، لا إرادة له ولا تفكير ولا رأي.. يسلم قياده (لراعيه) دون وعي ويمضغ ويجتر حياته دون أن يجد معنى لهذه الحياة.. وقد سلب منه (فرعون) إرادته ووعيه وجعلهما مرهونتين بإرادته هو.

لم يقل ابن النسير أنه كان مقتنعاً بموقفه، وأنه كان يريد الحفاظ على وحدة المسلمين وجماعتهم وإن قناعته مبنية على أسس من الإسلام، وإنما قال: صدرت لي الأوامر فأطعت، وليس لي أن أناقش أو أفكر بطبيعة المهمة التي أمرت بها.

---

(١) القصص ٣٢.

(٢) الطبري ٩/٣ - ٣ وتراجع المصادر السابقة الأخرى.

وقد أجابه قريبه بآية كريمة من القرآن كانت تكفي لردعه وردع أمثاله عن الانحدار في هاوية الضلال الأموي لو كانوا يملكون إرادة الإسلام الواعية المتبصرة.

جواسيس على قادة الجند

(وأخذ الحر بن يزيد القوم بالنزول في ذلك المكان على غير ماء ولا في قرية. فقالوا: دعنا ننزل في هذه القرية ـ يعنون نينوى ـ أو هذه ـ يعنون الغاضرية ـ أو هذه الأخرى ـ يعنون شُفيّه.

فقال: لا والله ما أستطيع ذلك، هذا رجلٌ قد بُعث إليّ عيناً)[1].

كانت تلك طريقة مألوفة لدى الطغاة والمتسلطين على مقدرات الناس والشعوب، أن يبثوا عيونهم وجواسيسهم بين الناس، حتى المقربين من حاشيتهم وأتباعهم، فقد علموا أنهم تبعوهم وساروا بركابهم لأسباب لا تمت لعقيدة أو مبدأ، وإنما طمعاً في نوالهم وخوفاً من شرهم. وإن من سكت لم يسكت إلا مرغماً. وقد لجأ ابن زياد إلى هذا الأمر عندما بعث عيوناً ليراقبوا قواد جيشه، لأنهم قد يخالفون أوامره وقد يتمرد عليه بعضهم وقد يتساهلون بتنفيذ تلك الأوامر، هذا إذا لم ينحز بعضهم إلى جانب الإمام عليه السلام ويسبب انحياز أغلبية الجيش إليه. وربما أدى ذلك إلى قلب الأوضاع وانهيار الجيش. وهو أمر رأى أن لا بد من الاحتراز والتحفظ بشأنه منذ البداية، وهذا ما فعله بالضبط. مع ابن سعد ومع الحر ومع كل القادة الآخرين من قواد جيشه.

مبادىء لا يمكن تخطّيها «ما كنت لأبدأهم بالقتال»

في ذلك الموقف، اقترح زهير بن القين على الإمام عليه السلام أن يسيروا إلى إحدى القرى الحصينة القريبة منهم وتقع على شاطىء الفرات، وأن يكون ذلك بالقوة إذا ما حاول الحر وأصحابه منعهم من ذلك، ورأى أن قتالهم أهون عليهم من قتال من يجيء من بعدهم وقال له: (فلعمري ليأتينا من بعد من ترى ما لا قبل لنا به)[2] إلا أن

---

(١) و(٢) الطبري ٣/ ٣١٠ وتراجع نفس المصادر السابقة. (نينوى والغاضرية وشفيه) من قرى الطف التي تقع ضمن كربلاء، وكانت عامرة في ذلك الحين ولذلك مُنع الحسين عليه السلام من النزول بها، ويبدو أنه نزل بينها في مكان غير عامر ولا يوجد فيه الماء وهو المكان الذي يوجد به قبره الشريف وما حوله.

الحسين عليه السلام أجابه: (ما كنت لأبدأهم بالقتال)[1]. وهذا أمر تحدثنا عنه في الفصل السابق، وعلمنا بعض الدوافع التي منعته من مبادأتهم بالقتال.

احكام الحصار: «أما بعد: فحل بين الحسين وأصحابه وبين الماء»

لم ينزل الحسين عليه السلام في أي من القرى الحصينة الواقعة على النهر. ونزل في المكان الذي حدَّده الحر على غير ماء ولا في قرية. وكان ذلك يوم الخميس، وهو اليوم الثاني من المحرم سنة إحدى وستين. وبعد يوم قدم عمر بن سعد في أربعة آلاف من أهل الكوفة، كان من المقرر أن يسير بهم إلى دستبى التي كان الديلم قد خرجوا إليها وغلبوا عليها، وكان ابن زياد قد كتب إليه عهده على الريّ وأمره بالخروج. إلا أنه وقد رأى أن هذا الجيش كان جاهزاً ومتهيئاً للقتال، أمر ابن سعد أن يسير للحسين عليه السلام أولًا لمقاتلته ثم يسير إلى عمله إذا فرغوا مما بينهم وبينه ـ على حد تعبيره.

وقد ضيّق هذا القائد الخائف، الخناق على أصحاب الحسين عليه السلام بناء على الأوامر التي وصلته من ابن زياد، والتي كان حريصاً على تنفيذها حرصه على ولاية الري التي كانت تمثل أقصى مطامحه. وكان يرجو أن يتولاها إن هو أنجز مهمته وقتل الحسين وأصحابه عليه السلام أو أجبرهم على الاستسلام لابن زياد ومبايعة يزيد. وقد ورد في أوامر ابن زياد إليه: (أما بعد، فحل بين الحسين وأصحابه وبين الماء، ولا يذوقوا منه قطرة، كما صنع بالتقي الزكي المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان)[2].

ويبدو أن ورقة عثمان لا تزال تُلعب حتى تلك اللحظة، وأن هناك من يحاول استغلالها في قضية قذرة أخرى تضاف للقضايا السابقة التي استغلها معاوية ولعبها بمهارة شيطانية فائقة.

وكان قد كتب إليه (فاعرض على الحسين أن يبايع ليزيد بن معاوية، هو وجميع أصحابه، فإذا فعل ذلك رأينا رأينا)[3].

وقد سارع ابن سعد فبعث عمرو بن الحجاج (على خمسمائة فارس، فنزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين وأصحابه وبين الماء أن يسقوا منه قطرة.. وذلك قبل قتل الحسين بثلاث)[4].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) و(٣) و(٤) الطبري ٣/ ٣١١ وراجع المصادر الأخرى.

إلا أن العباس وجماعة من أصحابه عليه السلام استطاعوا ملء عدة قرب وايصالها لمخيم الحسين عليه السلام.

وقد أرسل ابن زياد، مبعوثه شمراً برسالة لابن سعد يأمره فيها أن يبعث بالحسين عليه السلام وأصحابه سلماً إن هم استسلموا ونزلوا على حكمه، أو يقتلهم ويمثل بهم إذا أبوا الاستسلام ومبايعة يزيد، وقد أوصاه أن يوطىء الخيل صدر الحسين عليه السلام وظهره. وسبّه في رسالته. كما طلب من ابن سعد أن يتخلى عن قيادة الجيش إذا وجد أنه لا يستطيع القيام بالمهمة وتسليمها لشمر الذي أبدى انحيازه للنظام بشكل ملفت للنظر.

الحر: تراجع عن الخطأ بعد أن فهم الحجة

ولعل لاحتجاجات أصحاب الحسين عليه السلام وفي مقدمتهم زهير بن القين وحبيب بن مظاهر، على أصحاب ابن سعد من أهل الكوفة وتقريعهم وتوبيخهم. وقول زهير خاصة لهم: (أما والله ما كتبت إليه كتاباً قط، ولا أرسلت إليه رسولًا قط، ولا وعدته نصرتي قط، ولكن الطريق جمع بيني وبينه، فلما رأيته ذكرت به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومكانه منه، وعرفت ما يقدم عليه من عدوه وحزبكم، فرأيت أن أنصره، وأن أكون في حزبة وأن أجعل نفسي دون نفسه، حفظاً لما ضيعتم من حق الله وحق رسوله عليه السلام)[1].

وقول حبيب: (أما والله لبئس القوم عند الله غداً قوم يقدمون عليه، قد قتلوا ذرية بنيه عليه السلام وعترته وأهل بيته صلى الله عليه وآله وسلم وعبّاد أهل هذا المصر المجتهدين بالأسحار والذاكرين الله كثيراً)[2]. لعل لهذه الاحتجاجات والأقوال أثرها البالغ على الحر. إذ ما الذي يميز هؤلاء عنه وجعلهم يدركون ما لم يدرك؟.

أمام الحقائق والحجج البالغة:

ألم يستمع للعديد من خطب الإمام عليه السلام، وقد رافقه فترة كانت كافية لكي يدرك الأسباب الحقيقية وراء قدومه إلى الكوفة.

وقد استمع إلى خطبته الأخيرة قبيل بدء المعركة، وكلماته المؤثرة التي كان

(١) و(٢) الطبري ٣/ ٣١٤ والمصادر السابقة.

حرياً بها أن تقنع الجميع بالعدول عن موقفهم المعادي له والانضمام إليه، لولا أنهم قد فقدوا إرادتهم وشعورهم وحريتهم وجعلوها رهينة بإرادة حاكمهم الظالم الجهول.

فهذا ابن بنت النبي صلى الله عليه وآله، وابن وصيه وابن عمه، وأول المؤمنين بالله والمصدق لرسوله بما جاء به من عند ربه. وقد قال له رسول الله صلى الله عليه وآله ولأخيه: «هذان سيدا شباب أهل الجنة». جاء يواجه يزيد وحكومة يزيد ويريد منعه من التمادي في الانحراف والظلم.

لقد آلمه صمتهم وعدم قدرتهم على الرد عليه عندما قال لهم: (أفتشكون أثراً ما أني ابن بنت نبيكم. فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري منكم ولا من غيركم، أنا ابن بنت نبيّكم خاصة أخبروني، أتطلبوني بقتيل منكم قتلته، أو مال لكم استهلكته، أو بقصاص من جراحه ـ؟ فأخذوا لا يكلمونه)[1].

لأنهم لم يجدوا ما يردون به عليه. كانت حججه واضحة قوية، وكان الأحرى بهم أن يستجيبوا لها. وإن عجزوا عن الرد بالكلام، فما كان يجدر بهم أن يردوا بالسيوف، أو السباب أو التحريض؛ فلم يكن ذلك مما لا يزعج الحر ويؤلمه.

لقد أحزنه أن لا يستجيب هؤلاء لدعوته وينهضون معه لأداء مهمته العظيمة. وهي انقاذ الأمة كلها، بما فيها هؤلاء الذين يشهرون سيوفهم بوجهه، من الخطر الأموي المستشري وتنبيهها إلى الحال التي صارت إليها في ظل ملوك الانحراف.

لقد صمتوا بعد أن واجههم بأقواله وبعد أن واجههم برسائلهم وكتبهم إليه؛ وكان من هؤلاء قادة في هذا الجيش نفسه.

موقف الحسين عليه السلام موقف القوي الصابر «لا والله لا أعطيهم بيدي اعطاء الذليل ولا أقر اقرار العبيد»

وإذ أنهم عجزوا عن الالتحاق به والوقوف موقفه. كان من الأحرى بهم أن لا يستدعوه ويبذلوا الوعود لنصرته والوقوف معه، ويدعوه ـ على الأقل ـ ينصرف إلى مأمنه من الأرض كما قال لهم: (أيها الناس، اذ كرهتموني، فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض)[2].

---

(١) و(٢) الطبري ٣/٣١٨/ ١٣١٩ وراجع بقية المصادر السابقة الأخرى.

لم يكن موقف الإمام عليه السلام هنا موقف الضعيف العاجز الذي يطلب الرحمة والعفو من جلاده، وإنما موقف القوي الواثق من صواب نهجه وقراره. وربما بهر الحر باجابته قيس بن الأشعث، عندما دعاه للنزول على حكم ابن زياد وقوله له مشيراً إلى خيانتهم السابقة، وما يعتزم فعله أمام آلاف الأعداء المتحفزين لقتله:

(أتريد أن يطلبك بنو هاشم، بأكثر من دم مسلم بن عقيل. لا والله لا أعطيهم بيدي اعطاء الذليل، ولا أقر اقرار العبيد. عباد الله إني عذت بربي وربكم أن ترجمون. أعوذ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب)[1].

ثم موقفه بعد ذلك، وشجاعته الفائقة، عندما أناخ راحلته، وأمر عقبة بن سمعان فعقلها، غير مبال بالموت الذي أوشك أن يكون قريباً، وقد زحف نحوه الأعداء.

سكتوا ولم ينطق إلّا شمر

ثم عندما أصبح شمر الناطق الوحيد باسم الجيش وقد تصدى لزهير بن القين وشتمه عندما توجه بالنصيحة والارشاد. وقد لقيت نصائح زهير وارشادته، ومن قبلها نصائح إمام الأمة عليه السلام نفسه آذاناً صماء.

غير أنها وجدت هنا تقبلًا وفهماً، في نفس الحر الذي وعاها تمام الوعي. وإن جاءت في وقت متأخر.

وضح الصبح لذي عينين: الأذلاء يشهرون سيوفهم

لقد رأى الحر القضية هنا واضحة، انجلى الغموض وحُلَّ الالتباس.

لم ير وجه حق لهؤلاء القوم في مقاتلة الحسين عليه السلام ؛ وكان عليهم بمقتضى ما فعلوا قبل ذلك، ودعوتهم إياه للقدوم، أن يكونوا من أنصاره وأعوانه بدل أن يتخلوا عنه ويحاربوه، وما لم يستطيعوا فعله؛ وما لم يفعلوه فعله هو بكل ثبات وحسم. وقبل أن ينتقل إلى معسكر الحسين عليه السلام ، سأل عمر بن سعد عندما زحف بجنده: (أصلحك الله، مقاتل أنت هذا الرجل؟ قال: إي والله، قتالًا أيسره أن تسقط

---

(١) المصدر السابق.

الرؤوس وتطيح الأيدي. قال: أما لكم في واحدة من الخصال التي عرض عليكم رضا)[1].

وهي كما ذكرنا في فصل سابق ـ وكما سيتوضح في خطبة الحر نفسه بعد ذلك ـ تركه عليه السلام يعود أو يتوجه إلى مأمنه من الأرض، أو الاستجابة له.

وقد اعتذر ابن سعد مبرراً ذلك برفض سيده ابن زياد، وقال للحر: (أما والله، لو كان الأمر إليَّ لفعلت، ولكنَّ أميرك قد أبى ذلك)[2].

وما دام أميره قد أبى ذلك، فليذهب إلى الجحيم هو وأميره.

أما هو، فلم يعد ابن زياد أميره بعد اليوم. بل إنَّ الحسين عليه السلام هو أميره منذ هذه اللحظة. وعليه أن ينحاز إليه ويقف في صفه، رغم كثرة عدوه وقلة أنصاره.

وهكذا عزم على الالتحاق بالحسين عليه السلام ليقتل بين يديه، فقد كان يجد أنه عليه السلام مقتول لا محالة، وأن كل من كانوا معه سيقتلون أيضاً. ولم يقف القتل مانعاً أمام التحاقه بالحسين عليه السلام ولم يرَ أي موجب للخوف منه، ما دام قد أمن مستقبله في الآخرة.

لحظة فاصلة: «أخير نفسي بين الجنة والنار، ووالله لا أختار على الجنة شيئاً»

وكانت لحظة الالتحاق بالحسين عليه السلام لحظة فاصلة رهيبة. ولم يكن قد وطّن نفسه وأخذها على ذلك بعد. وكان عليه أن يبت بشأنها بشكل عاجل وسريع وحاسم، وإلا فأتت إلى الأبد، وفاتت معها فرصة الفوز الأبدي الذي كان يراه ماثلًا أمامه.

لقد أثارته قضية الحسين عليه السلام واستفزت مشاعره، ولعله فكر فيها منذ اللحظة الأولى التي قابله فيها، ورأى العزم والثبات اللذين أخذ بهما الإمام وأصحابه عليه السلام أنفسهم لانجاز المهمة رغم وعورة الطريق وغلاء الثمن، ورأى أن اللحظة الحاسمة قد حانت أخيراً. وها هو يرى تصميمهم لا يزال كما هو قوياً وأنهم لا يزالون يتمتعون بنفس تلك القوة التي وجدهم عليها أولًا.

وقد آلمه أن يستنجد هؤلاء بالحسين عليه السلام لينقذهم من جور الدولة الظالمة، ويعدونه بالنصر والالتفاف حوله، ثم يتخلون عنه بهذا الشكل الغادر القبيح الخالي من أية لياقة أو شعور بالمسؤولية أو الخجل ويقفون إلى جانب عدوه وعدوهم.

---

(١) و(٢) الطبري /٣/ ٣٢٠ والمصادر الأخرى السابقة.

لقد وجد أن أولئك المتبخترين في ساحة الحرب والشاتمين المعجبين بقوتهم، بل بقوة عدوهم الذي يتزعمهم الآن قد نقضوا عهداً قطعوه على أنفسهم من قبل. نقضوه مرتين: مرة عندما تخلوا عن الحسين عليه السلام؛ ومرة عندما وقفوا إلى جانب عدوه وأشهروا سيوفهم بوجهه. لم يستطع الحر أن يفهم كيف أن أولئك الناس قد انحدروا إلى هذا المستوى الهابط. وكيف تقبلت نفوسهم الذل إلى هذه الدرجة التي لا يطيقها إنسان يشعر بإنسانيته وكرامته.

كانت لحظة انتقال الحر من معسكر ابن سعد إلى معسكر الحسين عليه السلام لحظة فاصلة أريد لها أن تتمخض عن قرار سريع حاسم لا مجال معه لأي تردد أو نكول فيما بعد.

كان يقف ضمن محيط دائرة جيش ابن زياد الواسعة التي كانت تحيط بالإمام وأصحابه عليهم السلام ويريد ـ بعد اتخاذ القرار ـ أن ينتقل إلى مركز الدائرة، إلى حيث الإمام وصحبه، بطريقة لا يتمكن أحد معها من منعه أو ايقافه. وقد أراد أن يكون التحاقه ذا فائدة كبيرة للحسين عليه السلام.

أراد أن ينحاز إليه فيقاتل بين يديه، ويقوم بمهمة نصح المعتدين بمثل الحماس والوضوح الذي أبداه زهير بن القين وحبيب بن مظاهر وغيرهما من أصحاب الحسين عليه السلام.

وقد ظن أحد زملائه، من جيش ابن سعد، أنه كان يريد أن يتنحى، فلا يشهد القتال، عندما سأله: هل سقيت فرسك اليوم؟.. أما تريد أن تسقيه؟، وذلك أقصى ما يمكن أن يفكر فيه أولئك القوم المستسلمون المخدرون الذين كانوا يعيشون تحت وطأة الخوف والتهديد والارهاب. وقد قال هذا الرجل ـ وهو قرّة بن قيس ـ فيما بعد، ربما بعد هلاك يزيد. (ظننت والله أنه يريد أن يتنحى، فلا يشهد القتال، وكره أن أراه حين يصنع ذلك، فيخاف أن أرفعه عليه. فقلت له: لم أسقه، وأنا منطلق فساقيه. فاعتزلت ذلك المكان الذي كان فيه. فوالله لو أنه أطلعني على الذي يريد لخرجت معه إلى الحسين)[1].

---

(١) الطبري ٣/ ٣٢٠.

ربما كان بعضهم يمني نفسه بذلك، ولربما تمنى بعضهم فيما بعد لو أنهم فعلوه، وربما فعل ذلك عدد منهم لا يتجاوز عدد الأصابع. إلا أنهم بشكل عام لم يجدوا في أنفسهم الجرأة لوضع أمنياتهم موضع التطبيق، لأن تلك الجرأة التي لم تكن لتتصاعد إلا بفعل الإيمان والعزيمة والصدق قد اختفت نهائياً من تلك النفوس المنهزمة المشلولة، بل الميتة.

وقد ظن آخر رآه يدنو من الحسين عليه السلام قليلًا قليلًا أنه يريد أن يحمل عليه. وعندما سأله: **ما تريد يا بن يزيد؟ أتريد أن تحمل؟** (سكت وأخذه مثل العُرواء، فقال له: يا بن يزيد، والله إن أمرك لمريب. والله ما رأيت منك في موقف قط مثل شيء أراه الآن، ولو قيل لي من أشجع أهل الكوفة رجلًا ما عدوتك. فما هذا الذي أرى منك؟ قال: إنّي والله أخيِّر نفسي بين الجنة والنار، ووالله لا أختار على الجنة شيئاً، ولو قطّعت وحرّقت.

ثم ضرب فرسه فلحق بالحسين عليه السلام)[1].

آبَ أخيراً بعد أن اطمأنت نفسه: «إني قد جئت لك تائباً ومواسياً بنفسي»

لقد آب أخيراً، وقرَّ عيوناً بالاياب المسافر، وطابت نفسه، ووجد سبيله مع الحسين وأصحاب الحسين.. وها هو الآن معه. يخاطبه ويعتذر إليه مما سلف منه بحقه. فقد رأى أن ما ما ارتكبه كان أمراً عظيماً. إنّه يعلن توبته واستعداده للموت بين يديه تكفيراً عن ذنبه. كان يريد أن يطمئن إلى أن رحمة الله سوف تتداركه، وسوف يتوب الله عليه ويغفر له. كان الأمر الأهم لديه ضمان سلامته في الحياة الأبدية التي يريد أن يقدم عليها بروح واعية وإرادة حرة ترفض الظلم والخضوع والاستسلام.

توجه الحر إلى الله بالدعاء، والحزن والأسف والندامة تملأ قلبه وعلاماتها تبدو في وجهه:

(اللهم إليك أنيب، فتب عليَّ، فقد أرعبت قلوب أوليائك وأولاد بنت نبيك)[2].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) اللهوف لابن طاووس ص ٤٣ وأمالي الصدوق م ٣٠.

ثم تقدم نحو الحسين وقد قلب درقته، منكساً رمحه كهيأة المستأمن وهو يطاطىء رأسه خجلًا مما فعله قائلًا له:

(جعلني الله فداك يا بن رسول الله. أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع، وسايرتك في الطريق، وجعجعت بك في هذا المكان. ووالله الذي لا إله إلا هو، ما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضت عليهم أبداً، ولا يبلغون منك هذه المنزلة، فقلت في نفسي: لا أبالي أن أطيع القوم في بعض أمرهم، ولا يرون أني خرجت من طاعتهم. وإني قد جئتك تائباً مما كان مني إلى ربّي، ومواسياً لك بنفسي حتى أموت بين يديك. أفترى ذلك لي توبة؟.

قال: نعم، يتوب الله عليك ويغفر لك. ما اسمك؟.

قال: أنا الحر بن يزيد.

قال: أنت الحر كما سمتك أمك. أنت الحر إن شاء الله في الدنيا والآخرة، انزل.

قال: أنا لك فارساً خير مني راجلًا. أقاتلهم على فرسي ساعة، وإلى النزول ما يصير آخر أمري.

قال الحسين: فاصنع يرحمك الله ما بدا لك)[1].

لقد أكد له الإمام عليه السلام إن الله سبحانه سيقبل توبته ويغفر له، ما دام قد أتى بكل هذه العزيمة وهذا اليقين لنصرة الحق، وقضية الإسلام العادلة التي رفعها الحسين عليه السلام.

أنت الحر في الدنيا والآخرة

ولقد نرى أن من العجب سؤال الإمام الحسين عليه السلام الحر عن اسمه، هنا فقط. أتراه لم يسأل عنه قبل ذلك ولم يكلف نفسه هذا العناء وهو يراه مجرد رقم صغير في هذا الجيش المتخاذل المهزوم، وشخصاً معاداً مكرراً تافهاً لا قيمة له أمام

---

(١) (٢) والارشاد ص ٢٢٩ وابن الأثير ٣/ ٢٨٨ والخوارزمي ٢ - ١٠ وقد ذكر أنه قال: (يا بن رسول الله كنت أول خارج عليك فائذن لي أن أكون أول قتيل بين يديك. فلعلي أكون ممن يصافح جدك محمد صلى الله عليه وآله غداً في القيامة).

القوة التي تسيره وفق إرادتها ورغباتها، رغم أنها قوة ضعيفة أيضاً . . ؟ أم أنه قد نسيه ـ وهذا ما لا نرجحه ـ إذ لو كان قد تعرف عليه لم ينسه. خصوصاً وأنه قد رافقه لمسافة طويلة استغرقت عدة أيام حتى أوصله إلى المكان الأخير الذي وصل إليه وحط به رحاله.

ربما لم ير الحسين عليه السلام إلا قضيته، وإلا من تبناها عن وعي وفهم وادراك؛ لم يرَ أمامه حتى الجيش الكبير ذا العدة والعدد، بل لم ير أحداً جديراً بالنظر والاعتبار سوى أصحابه الذين تبنوا تلك القضية وعزموا على تقديم أرواحهم في سبيلها. أما أولئك الذين تصدوا له من قبل والذين يحيطون به الآن، وقد جردوا من إرادتهم وحريتهم وسخروا لخدمة الفراعنة والطواغيت الجدد، فإنهم ليسوا سوى أدوات صماء، كتلك التي يحملونها ويحاربون بها. كما أن أمرهم يثير الحزن والرثاء عليهم ولهم أكثر مما يثير السخط والغضب، لأنهم إنما يسعون بذلك لحتفهم ويسعون لذلهم وخزيهم الأبدي وعذابهم الدائم في هذه الدنيا وفيما بعد. ولقد كانت من كلماته الأخيرة لهم: (أعلى قتلي تحاثون؟ أما والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله، الله أسخط عليكم لقتله مني. وأيم الله اني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون. أما والله أن لو قد قتلتموني، لقد ألقى الله بأسكم بينكم، وسفك دماءكم، ثم لا يرضى لكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم)[1].

كانوا يسعون بقتله لهوانهم وسفك دمائهم وموتهم وعذابهم الأبدي المقيم. وإن كانوا لا يشعرون بذلك. فإنهم عندما استسلموا ذلك الاستسلام المهين ليزيد وابن زياد وأعوانهما، فإنهم أصبحوا من الهوان عليهما بحيث تتاح لهما فرصة التصرف بمصائرهم وحياتهم وأعراضهم كيفما شاءا وأرادا. ولقد أكد من قبل أنهم إذا ما قتلوه (سلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من فرم الأمة)[2].

الفئة الباغية: نفوس خاوية إلا من الذل والاستسلام:

وقال: (لتقتلني الفئة الباغية، وليلبسنّهم الله تعالى ذلّا شاملًا وسيفاً قاطعاً، وليسلطن الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من قوم سبأ، إذ ملكتهم امرأة منهم،

---

(١) الطبري ٣/ ٣٣٤ ومقتل العوالم للبحراني ص ١٨ ونفس المهموم للقمي ص ١٨٩ والخوارزمي ٢ – ص ٣٤ مع اختلاف يسير في بعض النصوص. .

(٢) الطبري ٣/ ٣٠٠.

فحكمت في أموالهم ودمائهم)[1]. فهم لم يقاتلوه من أجل قضية عادلة من قضايا الإسلام، بل قاتلوه ليرضى عنهم ابن زياد وحسب. وهم بذلك يدلُّون غيرهم على أنفسهم الضعيفة المهانة ويخبرونهم عن طبيعتها. إنها نفوس خاوية إلا من الاستسلام للسلطان والقوة وحسب ومن الحرص البغيض على مكاسب لم يحصلوا عليها ولم ينالوها في يوم من الأيام. وقد جعلوها رهينة بمشيئة فرعون وإرادته، وما عليه سوى أن يأمر، ليرى كيف ستكون سرعة استجابتها لأوامره. إنَّه لو طلب منهم أن يقتل أحدهم الآخر، هكذا، دون سبب، ولمجرد رغبته في ذلك لفعلوا ذلك دون تردد ودون سؤال.

إن غبشاً وضباباً كثيفاً، بل غباراً غليظاً يتصاعد أمام أنظارهم، فلا يرون أبعد من مواضع أقدامهم. وإن إرادة متسلطة تفوق إرادتهم هي التي تقودهم وتأخذ بزمامهم أذلة صاغرين.

لم يحاربوا الحسين عليه السلام بإرادتهم، ولأنهم شاءوا ذلك ورغبوا فيه، وإنما نزلوا على إرادة غيرهم ورغبته ومشيئته، ولو أتيحت لهم فرصة الاختيار الحر الواعي، لآثروا الانضمام إليه والوقوف إلى جانبه.

لقد رفض الحر رفضاً تاماً إرادة العدوان والبغي التي أرادت تجنيده لتنفيذ مآربها حتى النهاية والاشتراك بقتل الحسين وأصحابه عليه السلام. وعزم على الانضمام إليه، مخلصاً نفسه من أوهام التمني ومن هوان الاستسلام والذل والتبعية العمياء لدولة الانحراف وقادتها.

سباق مع الزمن لردع القتلة: «لا سقاكم الله يوم الظمأ إن لم تتوبوا»

حسب الحر أنه ما دام قد كان أحد أفراد جيش ابن سعد المعادي للحسين عليه السلام، وقد نفذ كل أوامر ابن زياد. ثم أدرك خطأه وانحاز إلى جانب الحسين عليه السلام لأنه أدرك أن ذلك هو الموقف الصائب الذي كان ينبغي أن يتخذه هو، ويتخذه كل فرد في ذلك الجيش. فإنه حسب أن تأثيره عليهم لا بد أن يكون أكثر من تأثير غيره من أصحاب الحسين الآخرين وأن حجته ستكون أبلغ إذا ما توجه إليهم بالخطاب ليقنعهم بخطأ تصرفهم حيال الحسين عليه السلام ويردهم عما عزموا عليه من قتله وأذاه.

---

(١) اللهوف ص ٢٩ والخوارزمي ج ١ ف ١١ وأعيان الشيعة ٤/ ١٨٤ وأمالي الصدوق م ٣٠.

استقدم أمام أصحابه وتوجه بخطابه لأهل الكوفة يوبخهم على موقفهم من الحسين عليه السلام ويحذرهم من مغبة عملهم. فقال:

(يا أهل الكوفة، لأمكم الهَبَل والعُبر، إذ دعوتموه، حتى إذا أتاكم أسلمتموه، وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه، ثم عدوتم عليه لتقتلوه، أمسكتم بنفسه، وأخذتم بكظمه، وأحطتم به من كل جانب، فمنعتموه التوجه في بلاد الله العريضة، حتى يأمن ويأمن أهل بيته، وأصبح في أيديكم كالأسير لا يملك لنفسه نفعاً، ولا يدفع ضراً، وحلأتموه ونساءه وأصبيته وأصحابه عن ماء الفرات الجاري الذي يشربه اليهودي والمجوسي والنصراني، وتمرّغُ فيه خنازير السواد وكلابه، وها هم أولاء قد صرعهم العطش.

بئسما خلفتم محمداً في ذريته. لاسقاكم الله يوم الظمأ إن لم تتوبوا وتنزعوا عما أنتم عليه من يومكم هذا في ساعتكم هذه)[1].

جيش كوفي وولاء أموي

لقد استفزه استسلام أهل الكوفة لابن زياد، فها هو يرى أن الجيش الذي جرد لقتال الحسين عليه السلام بما فيه أميره عمر بن سعد وقادته الآخرون، هو جيش كوفيٌّ خالص، ليس فيه شاميّ أو بصري. وأن الخوف من ابن زياد هو الذي جمعهم ووحّد موقفهم، وقد جعل كل واحد من نفسه عيناً على الآخرين.

وقد آلمه أن يتظاهروا بذلك الشكل الذي يبدون فيه وكأنهم أقوياء، رغم ما حفلت به نفوسهم من ضعف وتخاذل واستسلام. ويعرضوا ذلك الجانب الشرس من أخلاقهم وسلوكهم على ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، ومنقذهم الحقيقي لو استجابوا له. وقد استجاب دعوتهم حين دعوه لتخليصهم من شرور النظام الأموي الطارىء الغريب عن

(١) الطبري ٣/ ٣٢١ وردت هذه الخطبة باختلافات في بعض المصادر إلا أنها عموماً كانت تصب في هذا المضمون. وقد ورد أن الحر ألقى خطباً متعددة لا خطبة واحدة.. ومن المرجح أنه كان يتحرك في جوانب متعددة ويلقي كلمات مشابهة لخطبته الرئيسية هذه وأن الوقت لم يكن يتاح له بحكم جو القتال المتوتر للاطالة والاستطراد. وراجع الارشاد للمفيد ص ٢٥٠ وأنساب البلاذري ٣/ ١٨٨ وابن الأثير ٣/ ٢٨٩ والنويري ٢٠/ ٤٤٥ وجمهرة خطب العرب ٢/ ٤٨ وتذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي ٢٥٢.

الاسلام، والذي تسلط عليهم وسطا على كل مكتسباتهم وحياتهم وكيانهم والحق بهم أذى جسيماً ما كانت القوى المعادية لهم والمسفرة عن وجهها بقادرة على إلحاقة بهم.

لقد وجد زملاء الحر، من قادة جيش ابن سعد الآخرين، أنه تمرد عليهم وخرج على جماعتهم وخرّب وحدتهم، إذ انحاز إلى جانب الحسين عليه السلام ووقف في صفه يدافع عنه. وإذ أعياهم الرد على حججه وبيانه، ولم يجدوا ما يردون به عليه، فإنهم أمروا رجالة منهم ترميه بالنبل. وكان هذا هو كل ما استطاعوا فعله.

أشراف الكوفة: خرج الحر عليهم فكشفهم أمام الأمة

وقد رأى بعض أفراد الجيش أن خروج الحر عنهم، كان يمس كرامتهم الشخصية، وأنه قد ألحق بذلك اهانة بالغة بهم، لأنهم قد حرصوا على أن يظهروا أمام ابن زياد بمظهر الموالي المتحيز نهائياً إلى جانب السلطة الأموية. وقد شوّه الحر بذلك الصورة (الجميلة) التي أرادوا أن يظهروا بها أمامه وأمام سيده يزيد. لذلك فإن الحر عندما التحق بالحسين عليه السلام وأظهر الحرص على نصرته ودعوة الآخرين لذلك (قال رجل من بني تميم. يقال له يزيد بن سفيان: أما والله لو أني رأيت الحر بن يزيد حين خرج لأتبعته السنان. فبينما الناس يتجاولون ويقتتلون والحر بن يزيد يحمل على القوم مقدماً ويتمثل قول عنترة:

ما زلت أرميهم بثغرة نحرهِ ولبانه حتى تسربل بالدّمِ

وإن فرسه لضروب على أذنيه وحاجبه، وإن دماءه لتسيل. فقال الحصين بن تميم. ليزيد بن سفيان: هذا الحر بن يزيد الذي كنت تتمنى. قال: نعم، فخرج إليه فقال له: هل لك يا حر بن يزيد في المبارزة؟.

قال: نعم، قد شئت. فبرز له. [يقول النضر بن صالح أبو زهير العبسي راوي الخبر] فأنا سمعت الحصين بن تميم يقول: والله لأبرز له. فكأنما كانت نفسه في يده، فما لبثه الحر حين خرج إليه أن قتله)[1].

(١) الطبري ٣/ ٣٢٤ والبحار ٤٥/ ١٤ ورد فيه (.. فخرج إليه، فما لبث الحران قتله) ولم يرد فيه أن الحر قتل الحصين بل أنه قتل أشخاصاً آخرين لم يعيَّن أسماءَهم وربما كان الحصين أحدهم. والحصين بن تميم كان على شرطة عبيدالله بن زياد فبعثه إلى الحسين. وكان مع عمر بن سعد، فولاه عمر مع الشرطة المجففة.

يتباهون بالجرائم

حدّث نمير بن وعلة (أن أيوب بن مشرح الخيواني كان يقول: أنا والله عقرت بالحر بن يزيد فرسه، حشأته سهماً، فما لبث أن أرعد الفرس واضطرب وكبا، فوثب عنه الحر كأنه ليث والسيف في يده وهو يقول:

إن تعقروا بي فأنا ابن الحر   أشجع من ذي لِبَدٍ هَزْبرِ[1]

وقد حسب ابن مشرح الخيواني، أنه بقتله فرس الحر لم يفعل شيئاً. وقد جرى حوار طريف بينه وبين أبي الوداك، ربما كان بعد الواقعة بمدة طويلة.

شركاء في الجريمة:

قال أشياخ من أهل الكوفة لابن مشرح، وقد اعترف بأنه عقر بالحر بن يزيد فرسه: (أنت قتلته. قال: لا والله، ما أنا قتلته، ولكن قتله غيري، وما أحب أني قتلته. فقال له أبو الودّاك: ولم؟ قال: أنه كان ـ زعموا ـ من الصالحين. فوالله لئن كان ذلك إثماً، لأن ألقى الله بإثم الجراحة والموقف أحب إليَّ من أن ألقاه بإثم قتل أحد منهم.

فقال له أبو الودّاك: ما أراك إلّا ستلقى الله بإثم قتلهم أجمعين. أرأيت لو أنك رميت ذا، فعقرت ذا، ورميتَ آخر، ووقفت موقفاً، وكررت عليهم، وحرضْت أصحابك، وكثّرت أصحابك، وحُمل عليك فكرهت أن تفر، وفعل آخر من أصحابك كفعلك، وآخر وآخر، كان هذا وأصحابه يقتلون؟ أنتم شركاء كلكم في دمائهم. فقال له: يا أبا الوداك، إنك لتقنطنا من رحمة الله، إن كنت وليّ حسابنا يوم القيامة. فلا غفر الله لك إن غفرت لنا.

قال: هو ما أقول لك)[2].

إن كلمات أبي الودّاك جديرة بالتأمل والنظر حقاً. وهي جديرة أن يستمع إليها ويتدبرها كل سائر في ركاب الطغاة والظلمة.

---

(١) الطبري ٣/ ٣٢٥ وفي مقتل الخوارزمي اضافة للبيت المذكور:

ولست بالخوّار عند الكرّ   لكنني الثابت عند الفرّ

ج ٢ ص ١١ ورويت أبيات غير هذه في بعض المصادر.

(٢) الطبري ٣/ ٣٢٦.

كل جندي في جيش ابن زياد يتحمل وزر قتل الحسين وأصحابه أجمعين. فابن مشرح ليس مسؤولاً عن قتل الحر وحده، لأنه عقر بالحر فرسه وحسب، بل كان مسؤولاً عن قتل الجميع. موقفه المتحيز لابن زياد والمحرض ضد الحسين وأصحابه، وقيامه بقتل فرس الحر دون أن يسأله أحد ذلك لا بد أن يجعل الآخرين يحذون حذوه ليكون مثالاً شيئاً لهم. سيرى عديدون من أفراد هذا الجيش أمثال ابن مشرح وابن حوذة وشمر والحصين بن تميم وأشباههم، وسيرون اندفاعهم وحرصهم على قتل الحسين وأصحابه عليهم السلام وسيكونون مضطرين لمسايرتهم واتخاذ مواقفهم وابداء حماسهم وإلّا تعرضوا للأذى، وكان هؤلاء سبباً في أذاهم، إذ ربما كانوا عيوناً عليهم يسجلون حركاتهم وسكناتهم.

التحريض على القتل قتل والسكوت عن الجريمة جريمة:

أصحاب فرعون قد لا يقتلون الناس بأيديهم، وفرعون نفسه قد لا يفعل، إلا أنهم يحرضونه على القتل، يزينونه له أنه حل جيد لكي يحافظ على عرشه ومصالحه. أما القتل المباشر فيقوم به آخرون جنّدوا لخدمته وأسلموا زمامهم له، ولم يكن لهم إلا أن ينفذوا ما يريد، مهما كان هذا الشيء الذي يريد.

ولم يبلغ الأمر بابن مشرح أن كان أحد الحاشية المقربين، بل كان جندياً بسيطاً، قد يكون أرسل إلى كربلاء تحت الضغط والتهديد. إلا أنه انساق وراء هواه وهوى أسياده. أراد أن يبادر دون أن يسأله أحد ذلك لأمر رأى أنه سيقرِّبُ من مكانة وسيُمنح مكآفات من السلطان وربما كلمات ثناء ترفع من قدره. أراد لفت الأنظار إلى موقفه ليجعل الجميع يتحدثون به. ولقد جعل الجميع يتحدثون به، إلا أنه لم يجن من ذلك شيئاً، إلا لوماً وتقريعاً وعذاباً للضمير فيما بعد. وإلا فهل كان الحر وحده من الصالحين حتى يندم ابن مشرح على موقفه معه.

ألا يعرف ابن مشرح الحسين عليه السلام وبعض أصحابه؟ ألم يعلم أنهم كانوا من الصالحين أيضاً، بل وفي مقدمتهم؟ ومع ذلك فإنه لم يندم على موقفه معهم.

أكان ندمه قد جاء في وقته؟ أم أنه جاء في وقت متأخر لم يعد يجدي فيه شيئاً. بعد أن نفذ جريمته وحصل ما حصل؟.

مع زهير يواجهان جيشاً كاملًا: «آليت لا أُقتل حتى أقتلا»

كانت حسابات العدو في المعركة تشير إلى أنه سيخسر كثيراً إذا ما قبل أسلوب المبارزة الفردية، فأمامه على حد تعبير عمرو بن الحجاج، فرسان المصر، قوم مستميتون، وقد رأى أن لا يبارز أحد من أفراده أحداً منهم. وأن يتبع أسلوب الهجوم العام، حيث لا يتكافأ عدد أصحاب الحسين القليل مع عدد أفراده الكثير بل الهائل جداً مقارنة بهم.

وقد قُتل في المعركة حبيب بن مظاهر، فآلم ذلك الحسين عليه السلام وأحزنه كثيراً. وقال عند ذلك: أحتسب نفسي وحماة أصحابي. عندها (أخذ الحر يرتجز ويقول:

آليت لا أُقتل حتى أَقتلا ... ولن أُصاب اليوم إلا مقبلا
أضربهم بالسيف ضرباً مِقصلا ... لا ناكلًا عنهم ولا مُهلِّلا
لا عاجزاً عنهم ولا مبدّلا ... أحمي الحسينَ الماجد المؤملا[1]

وأخذ يقول أيضاً:

أضرب في أعراضهم بالسيف ... عن خير من حلّ منىً والخيف[2].

فقاتل هو وزهير بن القين قتالًا شديداً، فكان إذا شدَّ أحدهما؛ فإن استُلم شدَّ الآخر حتى يخلصه، ففعلا ذلك ساعة، ثم إن رجَّالةً شدت على الحر بن يزيد فقتل)[3].

قبل صلاة الظهر؛ قبل أن يصلي الحسين عليه السلام بأصحابه صلاة الخوف.

(فاحتمله أصحاب الحسين عليه السلام من الميدان حتى وضعوه بين يديه أمام الفسطاط الذي يقاتلون دونه، وكان به رمق، فجعل الحسين عليه السلام يمسح الدم

---

(١) ورد هذا البيت الأخير في (أعيان الشيعة ٢٠ - ٣٨١).

(٢) ورد في المناقب لابن شهرآشوب ٤/ ١٠٠ والأنساب للبلاذري ٣/ ١٩٥ البيتان التاليان مع تقديم وتأخير..

إني أنا الحر ومأوى الضيف ... أضرب في أعناقكم بالسيف
عن خير من حلّ بوادي الخيف ... أضربكم ولا أرى من حيف

(٣) الطبري ٣/ ٣٢٧ والمصادر السابقة مع اختلافات يسيرة في النصوص.

والتراب عن وجهه وهو يقول: «أنت الحر كما سمتك أمك. أنت الحر في الدنيا وأنت الحر في الآخرة»[1].

«ولنعم الحر حرّ بني رياح»

وقد رثاه بعض أصحاب الحسين عليه السلام قيل أنه علي بن الحسين، وقيل أن الأبيات للحسين عليه السلام.

لنعم الحر حر بني رياح	صبور عند مشتبك الرماح
ونعم الحر إذ نادى حسين	فجاد بنفسه عند الصَّباح[2]

وهكذا ألقى عصاه، واستقر به النوى وانتهت رحلة حياته تلك الخاتمة الملحمية السعيدة. وقرَّ عيناً بالإياب إلى الحسين وأصحاب الحسين عليه السلام، ذلك المسافر الذي ابتعد عن أهله وقومه الحقيقيين فترة من الزمن، عاد بعدها وفي أحرج لحظة ليقتل في مباراة حاسمة كوّن فيها مع زهير بن القيّن فريقاً يشار إليه بالبنان في حلبة المجد والنصر والسمو أمام الخائفين والمتخاذلين والمترددين، ليظل بعد ذلك مثلًا واضحاً وشاهداً ماثلًا للعيان على الدوام لمن يأتي بعده من أجيال المسلمين، وليظل مصدر تأمل عميق من قبلنا جميعاً، ومن قبل كل من يتردد في الانحياز إلى جانب الإسلام انحيازاً حقيقياً لا رجعة عنه.

٣ - عبد الله بن عُمير الكلبي

جهاد الظالمين أيسر ثواباً عند الله.

كان (عبدالله بن عمير، من بني عليم، [و] كان قد نزل الكوفة، واتخذ عند بئر الجعد من همدان داراً، وكانت معه امرأة له من النمر بن قاسط، يقال لها أم وهب بنت عبد.

فرأى القوم بالنُخيلة يعرضون ليُسرَّحوا إلى الحسين. فسأل عنهم، فقيل له: يسرّحون إلى حسين بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: والله لقد كنت على جهاد

(١) الخوارزمي ٢ - ١١ والمجلسي ج ٤٥ - ١٤.

(٢) المصادر السابقة وأمالي الصدوق م ١٠ وروضة الواعظين للقتال ص ١٨٦.

أهل الشرك حريصاً، وأني لأرجو ألا يكون جهاد هؤلاء الذين يغزون ابن بنت نبيّهم أيسر ثواباً عند الله من ثوابه إياي في جهاد المشركين.

فدخل إلى امرأته فأخبرها بما سمع، وأعلمها بما يريد.

فقالت: أصبت، أصاب الله بك أرشد أمورك. افعل وأخرجني معك. فخرج بها ليلًا حتى أتى حسيناً. فأقام معه)[1].

بهذه البساطة وهذا الوضوح نظر عبدالله بن عمير الكلبي وزوجه أم وهب، للمسألة كلها، وقررا الالتحاق بالحسين عليه السلام لينصراه ويجاهدا بين يديه.

فهذان مسلمان يعرفان رسول الله صلى الله عليه وآله حقاً، ويريان حرمته وحقه على جميع المسلمين فرضاً واجباً. ويريان أن من أحبَّه فقد أحب الله، ومن أحبَّ آله فقد أحبّه وأحب الله أيضاً. ومن أبغضهم فقد أبغضه وأبغض الله. أما إذا وصل البغض حداً يصل إلى استهدافهم بالقتل والأذى، فذلك أمر لا يستطيع بن عمير وزوجه فهمه واستيعابه ولم يفكرا أنه قد يحصل في يوم من الأيام. إذ كيف يجوز لمن يدعون الإسلام أن يقدموا على قتل ابن نبيِّهم صلى الله عليه وآله.؟.

ومع ذلك فقد حصل هذا الأمر. وها هو ابن زياد يستعرض جيشاً من أهل الكوفة في النخيلة ليسرحوا إلى الحسين عليه السلام لقتله أو اجباره على الاستسلام. وها هوالجيش يستعد للقيام بالمهمة التي ندبه إليها ابن زياد استجابة لممثل الدولة الطاغوتية في العراق.

وإذ أن ابن عمير كان حريصاً على جهاد أعداء المسلمين من أهل الشرك، ولعله قد شارك بحملات عديدة ضد المشركين. وإذ أنه رأى شركاً جديداً يتمثل بعبادة طواغيت جدد من دون الله، وأن إرادتهم هي الغالبة والقاهرة، وأن هؤلاء يستهدفون ابن الرسول وخليفته بالقتل والأذى في سعيهم المحموم لتثبيت عرشهم ومصالحهم؛ فإنه رأى أن خروجه لحرب هؤلاء والوقوف مع الحسين عليه السلام بوجوههم، سيكون فرصة لن تعوض لأنها لا تتاح له كل يوم. وقد تتاح مرة واحدة في العمر كله.

وإذاً فليكن خروجهما مع الحسين عليه السلام خروجاً مع رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه، وجهادهما معه جهاداً مع الرسول صلى الله عليه وآله.

---

(١) الطبري ٣/ ٣٢١.

فرصة نادرة لن تتكرر أبداً

رأي أم وهب كرأي أبي وهب: جهاد هؤلاء الذين يغزون ابن بنت نبيّهم

ولا شك أن عبدالله بن عمير رأى أن تلك كانت فرصة نادرة، وعليه استثمارها وعدم التفريط بها وإلا ضاعت منه إلى الأبد. لم يكن لديه شك في صحة موقف الحسين عليه السلام وسلوكه وثورته، كما لم يكن لديه شك بدوافع أولئك الذين استهدفوه وأرادوا قتله. وإذا كان ثمة أمل للأمة ووجودها كأمة إسلامية حيّة، فإن وجود الحسين عليه السلام هو ذلك الأمل الذي يحقق كل ما ترجوه من عز وكرامة في ظل الإسلام.

كان الالتحاق بالحسين عليه السلام يعني الموت المحقق. إلا أن ذلك سيسجل لصالح الإسلام، وسيكون نصرة حقيقية له تثبت لأعدائه أن هناك من هو مستعد حقاً للتضحية في سبيله.

لقد حبذت زوجته، أم وهب، فكرته، ورأت أنه كان مصيباً بخروجه مع الحسين عندما أخبرها عن عزمه، وطلبت منه أن يخرجها معه، إلى حيث يقتل، بل إلى حيث يقتلا معاً. إذ يبدو أنها قررت القتال إلى جانبه، مع أنه لم يكن مفروضاً عليها.

لم ير ابن عمير الكلبي، كما لم تر زوجته أم وهب، أن أمر الالتحاق بالحسين عليه السلام قابل للأخذ والرد والنقاش. فقد عرفا الحق وعرفا أهله رغم قلتهم ووعورة الطّريق إليه.

وهكذا تسللا تحت جنح الظلام خوفاً أن يعيقهما أحد من الالتحاق بالحسين عليه السلام، وقد حوصر معسكره ومنع الماء والطعام والعون.، وأقاما في المعسكر انتظاراً للحظة المناسبة للانتصار للإسلام وممثله الحقيقي، ابن رسول الله وخليفته.

عملاق بطل: «إني لأحسبه للأقران قتّالًا»

وقد أتيحت لعبدالله الكلبي فرصة القتال دون الحسين عليه السلام وأهل بيته، عندما بدأ ابن سعد القتال، ورمى بسهم، وارتمى الناس. وقد خرج يسار مولى زياد ابن أبيه، وسالم مولى عبيدالله بن زياد، وطلبا من يبارزهما. وقد وثب إليهما حبيب بن

مظاهر وبرير بن خضير إلا أن الحسين أمرهما بالجلوس. وعندها قام عبدالله بن عمير الكلبي، وطلب الاذن من الإمام عليه السلام لقتالهما قائلًا له (أبا عبدالله، رحمك الله، إئذن لي فلأخرج إليهما. فرأى الحسين رجلًا آدم طويلًا، شديد الساعدين، بعيد ما بين المنكبين، فقال الحسين: إني لأحسبه للأقران قتالًا. اخرج إن شئت فخرج إليهما)[1].

وكان هذا الرجل هو الذي طلب بنفسه أن يخرج لمبارزة العبدين. فهو لم يلتحق بالحسين عليه السلام إلّا لكي يقاتل بين يديه. ولكي يقتل بعد ذلك. فهذا مصير علم أنه سيلاقيه، وإن لم يقتله هذان العبدان فسيقتله غيرهما. فالحرب سجال وجيش العدو الكثيق قد جاء لمهمة قتل الحسين وأصحابه واستئصالهم.

في مواجهة الأذلاء: «ما يخرج إليك أحد من الناس إلا وهو خير منك»

أما هما، فربما حسبا نفسيهما في مصاف علية القوم نسباً ومقاماً، وتناسيا في غمرة شعورهما بالتفوق على مجموعة العبيد الذين يحيطون بهما، باعتبارهما ينتميان إلى زياد وابنه العبدين الذليلين لمعاوية ويزيد، من هما وتناسيا أصلهما الوضيع. فها هما الآن يخوضان هذه الحرب ويقفان في مقدمة من يتقدم للمبارزة والقتال. وينتفخان ببطولة مزعومة مصطنعة، حتى لقد حسبا نفسيهما أبطالًا حقاً.

وقد قالا لعبدالله الكلبي، عندما برز لهما: (من أنت؟ فانتسب لهما. فقالا: لا نعرفك، ليخرج إلينا زهير بن القين، أو حبيب بن مظاهر، أو برير بن خضير. ويسارٌ مستنتلٌ أمام سالم. فقال له الكلبي: يا بن الزانية، وبك رغبة عن مبارزة أحد من الناس، وما يخرج إليك أحد من الناس إلّا وهو خير منك)[2].

لقد أعلمهما بحقيقتهما، فهما لم يكونا سوى عبدين ذليلين من عبيد السوء، حسبا نفسيهما أعلى مقاماً من الآخرين لقربهما من الطاغيتين زياد وابنه عبيدالله. فمقاييس الوجاهة لم تعد على أساس القرب من الإسلام والتمسك به وإنما على أساس القرب من الطغاة والتفاني في خدمتهم. وإذ أن مجموعة العبيد (الأحرار) قد خضعت لهما وطأطأت رؤوسها لهما.

---

(١) و(٢) الطبري ١٣/ ٣٢١ والخورزمي ٢/ ٩ والارشاد للمفيد ص ٢٥٠.

أنهما في مقام أعلى من مقام الجميع. وهكذا راحا يطالبان عبدالله الكلبي أن يدعو لهما زهير أو حبيب أو برير. ظناً منهما أنهم في مقامهما. ولم يعلما أنهما ـ كما قال عبدالله ـ لا يبلغان قدر أي أحد من الناس يبرز إليهما، وما يخرج إليهما أحد من الناس ألا وهو خير منهما.

وقد شدّ على يسار في البداية (فضربه بسيفه حتى برد، فإنه لمشتغل به يضربه بسيفه إذ شدَّ عليه سالم، فصاح به [أحد أصحابه]: قد رهقك العبد. فلم يأبه له، حتى غشيه فبدره الضربة، فاتقاه الكلبي بيده اليسرى، فأطار أصابع كفه اليسرى، ثم مال عليه الكلبي حتى قتله، وأقبل الكلبي مرتجزاً وهو يقول، وقد قتلهما جميعاً:

إن تنكروني فأنا ابن كلب　　حسبيَ بيتي في عُلَيم حسبي
إنـي امرؤٌ ذو مِرّة وعصب　　ولست بالخوار عند النكبِ
إنـي زعيم لكِ أم وهب　　بالطعن فيهم مُقدماً والضربِ
ضربِ غلامٍ مؤمن بالرب(1)

وانتهت هذه الجولة الأولى وقد قَتل عدوّيه وعدوّي الله. وقطعت أصابع كفه اليسرى.

أم وهب: «قاتل دون الطيبين ذرية محمد. لن أدعك دون أن أموت معك»

ولم تشأ امرأته أم وهب، تلك المرأة التي قدمت بنيّة جهاد من قدموا لقتل ابن بنت نبيهم ﷺ. مع أن القتال لم يكن مفروضاً على أمثالها من النساء، أن تترك زوجها وحيداً أمام هذين العبدين وغيرهما من عبيد السوء الآخرين. وقد اندفعت لتشارك زوجها شرف مقاومة أولئك الأشرار القادمين لحرب الحسين عليه السلام وقتله، (فأخذت عموداً، ثم أقبلت نحو زوجها تقول له: فداكَ أبي وأمي، قاتل دون الطيبين، ذرية محمد، فأقبل إليها يردها نحو النساء، فأخذت تجاذب ثوبه، ثم قالت: إني لن أدعك دون أن أموت معك. فناداها الحسين فقال: جُزيتم من أهل بيتٍ خيراً. إرجعي رحمك الله إلى النساء فاجلسي معهن، فإنه ليس على النساء قتال فانصرفت إليهنّ)(2).

---

(1) و(2) الطبري ٣/ ٣٢٢ وأنساب الأشراف للبلاذري ٣/ ١٩٠ وابن الأثير ٣/ ٢٨٩ والنويري ـ نهاية الارب ٢٠/ ٤٤٧.

إن حماس أم وهب، تلك المرأة الضعيفة العزلاء إلا من عمود لا يصمد في وجه سلاح العدو، مبعث تأمل كبير. فأي شيء جعلها تقاوم أعداء الحسين عليه السلام بتلك الصلابة التي لم تعهد في النساء؟ وأي شيء جعلها تقدم على ما نكل عنه الرجال وتراجعوا وتكون ضمن المقاتلين الذين نصروا الحسين عليه السلام ودافعوا عنه؟ فهي لم يدركها ما يدرك النساء من الضعف والخور، عندما يتعرضن للمصائب والشدائد. ولم تكتف بحث زوجها على الالتحاق بالحسين عليه السلام، والاستشهاد بين يديه، بل أرادت أن تساهم معه في مقاتلة أعدائه وأعداء الحسين عليه السلام. لو لم يردها الإمام بنفسه هذه المرة.

وعندما حمل شمر بن ذي الجوشن وعمرو بن الحجاج على الحسين وأصحابه من كل جانب، كان عبدالله بن عمير الكلبي في مقدمة الذين ثبتوا لهم وواقفوهم. (فقتل الكلبي وقد قتل رجلين بعد الرجلين الأولين، وقاتل قتالًا شديداً. فحمل عليه هانىء بن ثُبيت الحضرمي، وبكير بن حَيّ التيمّي، من تيم الله بن ثعلبة، فقتلاه. وكان القتيل الثاني من أصحاب الحسين)[1] بعد مسلم بن عوسجة، وكان أول من قتل منهم.

وهكذا كان ابن عمير من أواخر من التحق بالحسين عليه السلام وأوائل من استشهدوا معه وقد مضى إلى نصرته دون تردد أو خوف متيقناً أن ما كان يفعله هو الصواب حقاً، دفاعاً عن الإسلام وعن إمام الأمة وقائدها وابن قائدها وحبيبها.

أم وهب شهيدة الإسلام. واست زوجها فاغتالها الشمر

ولم تترك أمُّ وهب الفرصة هذه المرة دون أن تنتهزها. وذهبت تجري إلى زوجها القتيل، تريد أن تدركه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة لتواسيه وتخفف عنه آلام النزع. وقد (جلست عند رأسه تمسح الدم والتراب عنه وتقول: هنيئاً لك الجنة. فقال شمر بن ذي الجوشن لغلام يسمى رُستَم: اضرب رأسها بالعمود، فضرب رأسها فشدخه، فماتت مكانها)[2].

ومضت أم وهب مع زوجها، وتمرغت بالتراب الذي أرادت أن تمسحه عنه. وأقبلت على الجنّة التي هنأته بها. مضت ثائرة محتجة على أولئك الخانعين الأذلاء الذين استسلموا وشلّت إرادتهم وعقولهم وبصائرهم.

---

(١) و(٢) الطبري ٣/ ٣٢٥ ونهاية الارب ٢٠/ ٤٥ وابن الأثير ٣/ ٢٩١ والخوارزمي ٢ - ١٢.

إن إقدام أم وهب المرأة العزلاء التي انتصرت للحسين عليه السلام، على قتال أعدائه وتحديهم والوقوف إلى جانب زوجها ورفضها التخلي عنه في ذلك الموقف الصعب، يشكل ملحمة بحد ذاته، جديرة بالتأمل والنظر. فما كان شيء سوى الإسلام وحب الله ورسوله صلى الله عليه وآله وذريته، يستطيع دفع امرءاً مثل أم وهب وزوجها لفعل ما فعلاه[1].

إن حال أولئك الذين التحقوا بالحسين عليه السلام، وكانوا من جملة أصحابه وأنصاره والمستشهدين بين يديه، رغم علمهم أنهم يقدمون على موت مؤكد في ظل أوضاع استنفر فيها العدو كل قواه واستطاع محاصرة الحسين عليه السلام مستهدفاً قتله وابادته، لتثير في النفوس العديد من التأمُّلات والأفكار. فهؤلاء بشر عاديون مثل غيرهم لا يتميزون عنهم بشيء، غير أنهم استطاعوا فعل ما لم تفعله الأمة كلها وما لم يجرؤ عليه أحد من أبنائها، وصمدوا أمام الخيار الصعب الوحيد الذي كان لا بد أن يتخذوه وهو الانحياز إلى جانب الحسين عليه السلام متحدِّين إرادة الدولة المستبدة وقوتها وجيشها الكبير المحدق بالحسين وأصحابه، واغراء الحياة وحبها، والخوف من القتل الذي لوح به أعداؤهم وبدا لهم أنهم ملاقوه لا محالة، واخترقوا جدار الخوف والذل والعبودية، ووصلوا إلى ما كان ينبغي أن تصل إليه الأمة في ظل الأوضاع الصحيحة التي أرادها الإسلام قبل أن تسلب حريتها، وتشل إرادتها.

---

(١) وقد ور،دت روايات عديدة بخصوص استشهاد (وهب الكلبي)، قيل في بعضها انه (وهب بن عبد الله الكلبي) الذي يحدثنا عنه الآن كما في المناقب ١٠١/٤ والخوارزمي ١٣/٢ والمجلسي ١٦/٤٥. وفي غيرها (وهب بن حباب الكلبي) و (وهب بن عبد الله بن جناب الكلبي)، و (وهبة بن وهب) فيكون اسمه:
وهب الكلبي، وهب بن عبد الله الكلبي، وهب بن عبد الله بن جناب الكلبي.
وهب بن وهب، ولا ينافي في الاسماء الثلاثة الاولى ان يكون شخصاً واحداً، ولعل أحد اسماء أبيه وهب أيضاً. وقد ورد انه جاء مع امه وزوجه. وقد حثته امه في البداية على القتال ولم ترض إلا استشهاده بين يدي الحسين عليه السلام، اما زوجه فلم ترض موته في البداية، إلا انها ذهبت تقاتل معه حتى ارجعها الحسين عليه السلام، وقد تضاربت الروايات بشأن مقتل أم وهب ورجوعها مع زوجه إلى نساء الحسين وأصحابه. وقد يكون وهب ابناً لام وهب من غير زوجها عبد الله وقد ذهب يقاتل معه دون الحسين، وربما اصطحب معه زوجه أيضاً. فيكون او بعثهم قد التحقوا بمعسكر الحسين عليه السلام، ولعل المؤرخين لم يعتنوا منذ البداية بذكر التفاصيل

الأصحاب الأوائل

المقاتلون في بدر والطف: نفس الأهداف والعزيمة، نصرة الإسلام

وهم الذين قدموا معه من المدينة أو مكة حتى وردوا كربلاء. وأمر هؤلاء عجيب حقاً فكيف لم يحصل أن تردد أحدهم خلال هذه المسيرة الطويلة المضنية ولم يتخلف عن الحسين عليه السلام أو يفارقه رغم كل ما تعرضوا له وسمعوه.

لا بد أنهم أيقنوا ـ كما أيقن هو عليه السلام ـ أنهم مقتولون لا محالة، ولا بد أنهم ـ قبل غيرهم سمعوه يؤكد ذلك أو يشير إليه، وسمعوا من يحذرهم من مواصلة المسير معه ويحذره هو عليه السلام أيضاً مغبة ذلك المسير. ولقد رأوا العشرات ممن التحق بهم من الأعراب طمعاً في مكاسب محتملة، ورأوا كيف تخلوا عنهم بعد ذلك عندما رأوا أن الموقف العسكري والبعثوي لم يكن لصالح الحسين عليه السلام وأن لا مكاسب ترتجى من وراء المسير معه.

كما أن هؤلاء الأنصار لم يتراجعوا أو يترددوا في مواصلة المسيرة معه، رغم أنه سمح لهم بذلك بل وطلبه منهم صراحة لمواجهة أعدائه بمفرده إذ أنهم كانوا يطلبونه شخصياً، وسيلهون به عن غيره إذا ما وقع في أيديهم، فلقد كان يمثل بنظر أولئك الأعداء الخطر الرئيسي على النظام الحاكم بأكمله.

ولم يتردد هؤلاء الأنصار باعلان تصميمهم وعزمهم الثابت للمضيّ معه حتى النهاية. فهم قد تلقوا رسالته وفهموها ووعوها وأدركوا طبيعة المهمة الكبيرة التي كان يريد انجازها، فكيف لا يشاركوه بها، وكيف يتركون هذه الفرصة الكبيرة، بل الوحيدة، التي أتيحت لهم فلا يستثمروها؟ كان ذلك أمراً بعيداً عن التصديق أو التصور من قبلهم، فهم نموذج خاص تعامل مع الإسلام وقيمه، كما تعامل معه صفوة أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله من المسلمين الأوائل، تعامل الرساليين الواعين لكل أهداف الإسلام، لا تعامل الانتهازيين والنفعيين وطلاب المصالح والجاه والثروة. ومن هنا جاء عدم فهم الكثيرين لهم، من أولئك الذين لم يحملوا تصور الإسلام وفهمه ولم ينظروا إليه بالمقاييس التي أرساها القرآن الكريم والرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله، وآله

قبل أن تمتد إليها يد التحريف والتزوير فتعرضها عرضاً مشوهاً مبهماً يستهدف تكريس مصالح الطبقة الطفيلية العدوة للإسلام والتي تزعمت المسلمين وتربعت على كرسي الحكم بكل الوسائل غير المشروعة التي لم يقرها الإسلام.

كيف يتسنى لمن لا يحمل فكر الإسلام ووعيه وتصوره ونظرته للأمور أن يفهم ما يقوم به المسلم الذي حمل الإسلام ووعاه ورأى أنه الضمانة الوحيدة لحياته ومستقبله.؟.

إن الثبات الذي اتصف به أصحاب الحسين منذ بداية انطلاقة مسيرتهم معه، هو نفس الثبات الذي ميّز البدريّين الأوائل الذين حاربوا تحت لواء رسول الله ﷺ في بدر وغيرها من معارك الإسلام الكبيرة. وقد حملوا نفس عقلية وتصور أولئك الصحابة الواعين المنحازين للإسلام، وكان يقينهم بصحة موقف الحسين عليه السلام وضرورته، نفس يقين أولئك الرجال بصحة موقف رسول الله ﷺ، وما جعل هؤلاء يستشهدون بين يدي الحسين عليه السلام هو نفسه الذي جعل أولئك يقدمون على الشهادة بين يدي رسول الله ﷺ ويخوضون الحرب معه غير مبالين بالموت، بل مستبشرين به، بحماس وصبر لا يتاح إلا لأولئك الذين امتلكوا قدراً غير عادي من الإيمان وسلامة البصيرة ونفاذ الرؤية.

ولن نستطيع بدراسة محدودة كهذه، الإلمام بكل الشخصيات التي قاتلت تحت لواء الحسين عليه السلام غير أننا سنتستعرض بعضها تكلمة لموضوع هذا الفصل، لتوضيح بعض جوانب المهمة الكبيرة التي اضطلعوا بها مع الحسين عليه السلام وطبيعة الأدوار التي أدوها في معركة كربلاء.

١ - العباس بن علي بن أبي طالب

الأخ المدافع عن أخيه، المجيب إلى طاعة ربّه

ليس الحديث عن العباس بن علي عليه السلام مما يسهل في دراسة محدودة كهذه، إذ أن لهذه الشخصية العظيمة جوانب عديدة لا بد من استيعابها والاحاطة بها وهو أمر لا يتاح بسهولة، خصوصاً وأن سيرته السابقة على أيام الطف لم تكن معروفة بشكل دقيق ولم يُشر إليها إشارات مسهبة وافية بالغرض جديرة بتلك الشخصية، ولعل بعض الاهمال كان مقصوداً ومتعمداً بفعل الحملة الأموية المضللة الظالمة التي استهدفت آل البيت وأهلهم وذويهم.

غير أننا سنتعرض لجانب من هذه السيرة خلال مسيرته مع أخيه الحسين عليه السلام من المدينة إلى الكوفة مروراً بمكة.

وأبو الفضل العباس بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام هو أكبر اخوة أربعة لأم البنين ابنة حزام بن خالد بن ربيعة بن الوحيد بن صعصعة بن كلاب وأمها ثمامة بنت سهيل بن عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب.

وقد روي أنه ليس في العرب أشجع من آبائها واخوانها الذين كانوا من سادات العرب وزعمائهم.

وردَ عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال لأخيه عقيل، بعد وفاة الزهراء عليها السلام، وكان نسّابة العَرب، وعرّافة بأحسابها وعاداتها: «ابغني امرأة قد ولدتها الفحولة من العرب لأتزوجها، فتلد لي غلاماً فارساً». وقد اقترح عليه أخوه عقيل أن يتزوج فاطمة بنت حزام بن خالد الكلابية، أم البنين. التي ولدت له العباس واخوته عبدالله وعثمان وجعفر، وقد استشهدوا كلهم بين يدي أخيهم الحسين عليه السلام في معركة كربلاء بعد أن أبلوا بلاءً حسناً في المعركة وخصوصاً العباس الذي كانت له مواقف مشهودة فيها.

كان عمر العباس يوم استشهد أربعة وثلاثين عاماً؛ إذ إنَّ من المعلوم أن أمير المؤمنين عليه السلام تزوج بعد وفاة الزهراء عليها السلام أُمامة بنت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وأبوها أبو العاص، وقد أوصته الزهراء عليها السلام بتزوجها بعد وفاتها. وبعد ذلك تزوج أم البنين الكلابية والدة العباس عليه السلام.

عاش في ظل أبيه أربعة عشر عاماً وفي ظل أخيه الحسن عليه السلام عشر سنوات وقضى ما تبقى من عمره في ظل أخيه الحسين عليه السلام ورعايته.

ولاء للإسلام وبيت الرسالة ــ جوانب من شخصية أبي الفضل:

إن المشاهد العديدة التي لاح لنا فيها العباس خلال تلك المسيرة الملحمية تشير بوضوح إلى أمور عديدة وفي مقدمتها:

معرفته التامة بموقع أخيه الحسين عليه السلام كإمام مفترض الطاعة وخليفة شرعي لرسول الله صلى الله عليه وآله.

ومنها: ولاؤه الشخصي الذي يفرضه قربه منه كأخ كبير حميم تنبغي محبته لا عليه وحده بل على جميع المسلمين كما تحدث رسول الله صلى الله عليه وآله عن ذلك، ولما

يفرضه الالتزام العائلي الصحيح في ظل القانون الإسلامي. وقد برزت أفضل صورة لهذا الالتزام في عائلة أمير المؤمنين عليه السلام حيث حمل إخوة الحسن والحسين عليهما السلام من غير أمهما آيات الولاء والمحبة الصادقة لهما طيلة حياتهما وبعد وفاتهما.

ومنها فروسيته وشجاعته وقوته وبأسه، التي لم يبخل بها في أي وقت حتى استشهاده على يد الطغمة التي حاولت منع الحسين وأصحابه الماء.

ومنها حزمه وهدوؤه في المواقف الصعبة والأزمات وتصرفه بحكمة اقتضتها طبيعة تلك المواقف، كما رأينا أسلوبه في التفاوض مع ابن سعد وأصحابه عندما أرادوا بدء المعركة عصر اليوم التاسع من محرم ونجاحه في ردهم وتأخيرهم.

ومنها ايثاره الحسين عليه السلام بنفسه واخوته إذ قدمهم ليستشهدوا قبله، وقد أعلمهم أنه قادم على الأثر وأنه سيستشهد بعدهما دون أن يساوره أو يساور أي أحد من اخوته أي خوف أو تردد أو شك.

ومنها رقته على أخيه الحسين عليه السلام وعلى النساء والأطفال، حتى أنه ليخجل من أن تراه سكينة وقد طلبت منه ماء. عندما أراد الحسين عليه السلام حمله إلى مخيمه وطلب منه أن يدعه في مكانه حتى لا يثير في نفسها الحزن والألم وحتى لا يزيد في حزن وألم النساء والمكروبات الحزينات.

ونرى مزيجاً من هذه المواقف العجيبة في لحظات ومشاهد قصار تتسارع فيها الأحداث حتى ليكاد أمرها يبهر المشاهد العادي. إذ كيف تتاح لفرد واحد القيام بكل تلك الأعمال والأفعال في وقت قصير يعلم فيه أنه مقبل على موت محتم على يد أعداء شرسين يضمرون له الشر والأذى.

أداء فريد واستجابة تامة للحق:

ولا عجب أن العباس عليه السلام قد تصرف بذلك الأداء الرائع، فهو ابن أمير المؤمنين عليه السلام؛ وابن من لم يعرف إلا الحق ولم يمل إلا معه ومن لم تأخذه في الله لومة لائم. ولا بد أنه قضى معه فترة من حياته كانت كافية لكي يتخرج من مدرسته ويعتمد أسلوبه في الحياة. لقد عاش معه أدق فترة من حياته، وهي فترة قيامه بالدور القيادي الفعلي للأمة عقب الأحداث الخطيرة التي مرت بها الأمة خلال حكم عثمان وبني أمية. ولا بد أنه وعى أحداثها جيداً، فلم تكن تلك الأحداث عادية، ولم تكن

حياة أمير المؤمنين عليه السلام هادئة راكدة لا تستثير شاباً في مركز العباس وقد اكتسب بعض صفاته الوراثية المشهورة مثل الشجاعة والقوة والثبات والبأس.

كماأن الذي يثير انتباهنا حقاً هو تلك الاستجابة المطلقة من اخوته الثلاثة الآخرين لأخويهم كلاهما الحسين والعباس عليه السلام، وتقدمهم للمعركة بنفس الثبات والحماس اللذين أبداهما أخوهم العباس في نصرة أخيه الحسين عليه السلام وقضيته. ولعلهم، في غمرة الأضواء التي سلطت على أخيهم لما أبداه من بطولة استثنائية ومواقف نادرة في معركة الطف، لم يشر إليهم كما أشير إلى أخيهم، ولعلهم لم يتمتعوا بما تمتع به من قوة وبأس بحكم نضجه وسنه وبحكم أعمارهم الغضة التي تصغر عمر أخيهم.

إن تلك الاستجابة لم تكن مقصورة على العباس واخوته، بل إنَّها كانت استجابة عامة تميز بها كل من رافق الحسين عليه السلام سواء من آله وأقاربه أو من أصحابه، وهو أمر لا بد أن يثير الانتباه حقاً، إذ كيف لم يحصل أن تردد أي أحد من ذلك العدد الذي رافقه، بل واصلوا السير معه جميعاً إلى النهاية مستجيبين له استجابة تامة ومطلقة؟.

وقد برزت هذه الظاهرة العامة بين الشباب والشيوخ من أصحاب الحسين عليه السلام على السواء. وقد كان هؤلاء أمة مصغرة ولا بد أنهم كانوا طليعة نموذجية للأمة التي أرادت أن تتخلص من عبث الدولة الأموية التي سطت على المكاسب التي حصلت عليها في ظل الإسلام، فاستخدمت اسمه وشعاراته لسلب كل شيء منها، حتى إرادتها ووعيها وتصورها الصحيح للإسلام وأردتها جثة هامدة لا نرى فيها شبهاً للأمة الإسلامية الحقيقية التي كان يفترض أنها قد نضجت ووصلت إلى مرحلة من التقدم والازدهار والوعي بعد ستين عام من التجربة الإسلامية والحكم الإسلامي لتكون دولة إسلامية محمدية حقاً لا دولة أموية يزيدية. وإن شئت فقل فرعونية أو هرقلية كلما مات هرقل جاء هرقل على حد تعبير أحد الأدباء المعاصرين للدولة نفسها.

العباس: الساعد الأيمن لإمامه الحسين عليه السلام

لقد أشارت الروايات كلها إلى الثقل الذي كان يشكّله العباس بالنسبة لأخيه الحسين عليه السلام وإلى اعتماده عليه في العديد من الأمور والمواقف التي كانت تتطلب

حزماً ورأياً وشجاعة. وقد رأينا أنه قد رافق أخاه الحسين عليه السلام في لقاءاته مع عمر بن سعد بين المعسكرين في محاولة منه لاقناعه بالعدول عن موقفه بالوقوف إلى جانب دولة الظلم وكان معهما عليٌّ الأكبر الذي استشهد في معركة الطف أيضاً.

وقد ادعى ابن سعد ـ بعد ذلك عندما خلا له الجو وانتهت المعركة ـ أن الحسين عليه السلام طلب منه أن يدعه يذهب ليزيد ويبايعه فيرى ما بينه وبينه رأيه أو يدعه يرجع أو يذهب إلى ثغر من الثغور فيكون رجلًا من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم.

ومتى ما علمنا أن ذلك اللقاء لم يحضره مع الحسين عليه السلام وابن سعد إضافة للعباس وعلي بن الحسين الأكبر، إلا ابنه حفص وغلام له يدعى لاحق. أدركنا أن مصدر هذا الخبر الكاذب كان هو ابن سعد نفسه. وقد نشره بعد ذلك وروّجه إذ إنَّ من كان يقدر على تكذيبه كان قد اختفى من الساحة. وقد رأينا يكذب الخبر صراحة إضافة للدلائل الأخرى التي علمنا منها أنه خبر كاذب لم يصمد أمام دليل سوى ادعاء ابن سعد نفسه وهو عدو لدود للحسين عليه السلام أراد بذلك أن ينفي اقدامه على قتل الحسين عليه السلام إلا أنّه اضطر لذلك من قبل ابن زياد وأراد القاء تبعة ذلك عليه وحده. وقد تحدثنا عن هذا الموضوع باسهاب في موضع سابق.

ساقي العطاشى: «لا أشرب منه قطرة وحسين عطشان»

عندما أصدر ابن زياد أوامره لابن سعد ليحول بين الحسين وأصحابه وبين الماء، ولا يذوقوا منه قطره ـ، بعث ابن سعد عمرو بن الحجاج على خمسمائة فارس، فنزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين وأصحابه وبين الماء ومنعوهم أن يستقوا منه، ولم يكتفوا بذلك، بل قام بعضهم مثل عبدالله بن أبي حصين الأزدي بتوجيه كلمات التشفي والسباب الرخيص مؤكدين على أنهم سيبذلون كل جهدهم لمنع الحسين وأصحابه الماء. في محاولة منهم لاستفزازهم وتوهينهم. وكان ذلك الموقف حرياً أن يستفز ويضعف أية جماعة أخرى لو لم تكن جماعة الحسين عليه السلام بالذات؛ التي كانت تحتمل أن يقوم الأعداء بكل الاجراءات التي من شأنها اضعافها واجبارها على الاستسلام خصوصاً وأن معسكر الحسين عليه السلام كان يضم أعداداً كبيرة من النساء والأطفال الذين لا صبر لهم على العطش والجوع، وكانت تشكل عامل ضغط عليها.

ولما اشتد العطش على من كان يضمهم معسكر الحسين عليه السلام. (دعا العباس بن علي بن أبي طالب أخاه، فبعثه في ثلاثين فارساً، وعشرين راجلًا، وبعث معهم بعشرين قربة، فجاءوا حتى دنوا من الماء ليلًا، واستقدم أمامهم باللواء نافع بن هلال الجملي، فقال عمرو بن الحجاج الزبيدي: من الرجل؟ فجيء، فقال: ما جاء بك؟.

قال: جئنا نشرب من هذا الماء الذي حلأتمونا عنه.

قال: فاشرب هنيئاً.

قال: لا والله، لا أشرب منه قطرة، وحسين عطشان، ومن ترى من أصحابه، فطلعوا عليه، فقال: لا سبيل إلى سقي هؤلاء، إنما وضعنا بهذا المكان لنمنعهم الماء.

فلما دنا منه أصحابه، قال لرجاله: إملئوا قربكم، فشدّ الرجالة فملؤوا قربهم، وثار إليهم عمرو بن الحجاج وأصحابه، فحمل عليهم العباس بن علي، ونافع بن هلال فكفّوهم، ثم انصرفوا إلى رحالهم. فقالوا: امضوا، ووقفوا دونهم، فعطف عليهم عمرو بن الحجاج وأصحابه واطردوا قليلًا.

وجاء أصحاب الحسين بالقرب فأدخلوها عليه[1].

كان تصدي العباس عليه السلام بالعدد القليل الذي كان معه لعمرو بن الحجاج وأصحابه، الذين بلغ عددهم خمسمائة شخص، أمراً مفاجئاً لهذا العدد الكبير الذي لم يحسب أن الجرأة ستبلغ بالعباس وصحبه إلى حد الهجوم عليهم وانتزاع الماء على رغمهم. ولعلهم حسبوا أنهم سيواجهون أناساً خائفين مرهقين قد أضناهم العطش وزلزلهم كثرة الجند، وأنهم سيلجأون إلى استعطافهم للحصول على قليل من الماء لأنفسهم. غير أن دهشتهم ازدادت حينما عرضوا عليهم أن يشربوا فرفضوا ذلك ـ رغم عطشهم المؤكد ـ وقال العباس لابن الحجاج:

(لا أشرب منه قطره ـ وحسين عطشان ومن ترى من أصحابه).

(١) الطبري ٣/ ٣١١ - ٣١٢ وابن شهرآشوب ٤/ ٩٧ والارشاد ٢١١ وأنساب الأشراف ٣/ ١٨٠ ونهاية الارب ٢٠/ ٤٢٨ والخوارزمي ١ ف ١١ ومقتل العوالم ص ٧٨ والمجلسي ٤٤ – ٣٨٨ والنص الأصلي عن الطبري، ولم ترو الحادثة بالتفصيل في كافة المصادر، ورويت ببعض الاختلافات البسيطة في بعضها.

كان موقف العباس وأصحابه عجيباً، مذهلاً. فهو من المواقف الإنسانية النادرة القليلة التي لا تطالعنا إلا في النادر القليل من الأوقات. وأعجب من ذلك قدرتهم على إدامة المواجهة وقدرتهم على تخليص قربهم رغم العدد الكبير من أفراد الجيش المعادي وأخذها إلى معسكر الحسين .. وإن كانت لم تكفهم بعد ذلك في غمرة الحر الشديد والجو اللاهب.

لا للظالمين: «لا حاجة لنا في أمانكم. أمان الله خير من أمان ابن سمية»

ويطالعنا منظر آخر للعباس واخوته عليه السلام جدير بالاهتمام والتأمل أيضاً. فقد حصل لهم عبدالله بن أبي المحل، على أمان من ابن زياد، وعبدالله هذا هو ابن أبي المحل بن حزام بن خالد بن ربيعة بن الوحيد بن كعب بن عامر بن كلاب، وعمته أم البنين ابنة حزام بن خالد.

قال لابن زياد قبيل انصرافه إلى كربلاء ليلتحق بابن سعد: (أصلح الله الأمير، إن بني أختنا مع الحسين، فإن رأيت أن تكتب لهم أماناً فعلت.. قال: نعم، ونعمة عين. فأمر كاتبه، فكتب لهم أماناً)[1].

وربما رأى ابن زياد أن تلك كانت فرصة سانحة للتفريق بين الحسين وبين اخوته وأصحابه، فإذا ما تخلى عنه العباس واخوته ـ بعد أن يرسل لهم الأمان، فإن الآخرين سيتخلون عنه حتماً. هكذا فكر ابن زياد. وسره أن يظل الحسين وحيداً وقد يضعف أمام ذلك ويستسلم، وربما، إذا ما تخلّى العباس عن الحسين عليه السلام فإنه سيجد نفسه مرغماً على الانضمام لمعسكر يزيد، وسيكون ذلك مكسباً كبيراً لابن زياد، إذ إنّه سيضفي طابعاً من الشرعية على الحكم الأموي القائم بقيادة يزيد ويعطي المبرر الكافي للتذرع به أمام الأمة معلناً أنه الإمام الحقيقي والخليفة الشرعي وسيضعف ذلك قضية الحسين أمام الأمة ويبرزها على أنها اعتداء وخروج سافر على الشرعية المزعومة. وربما سيرفعون من شأن العباس إذا ما تخلى عن الحسين عليه السلام وانضم إليهم، لكي يرفعوا من شأنهم ويعززوا موقفهم.

لقد كانت تلك فرصة نادرة لابن زياد، وربما فرح أشد الفرح عندما طلب منه

---

(١) الطبري ٣/ ٣١٣.

ابن أبي المحل الأمان للعباس واخوته، فلم يعط الأمان ويأمر بكتابته بدوافع انسانية بحتة كما قد يتصور أحد، ولا بدافع رد الجميل لجنديه الشريف.

غير أن العباس واخوته فوّتوا هذه الفرصة الذهبية على ابن زياد، وقطعوا أحلامه بشأنها. فعندما أرسل إليهم ابن أبي المحل بهذا الأمان المكتوب، مع مولى له يقال له كزمان وقال لهم هذا: (هذا أمان بعث به خالكم. فقال له الفتية: أقرىء خالنا السلام، وقل له لا حاجة لنا في أمانكم. أمان الله، خير من أمان ابن سمية)[1].

لم يكونوا خائفين ولا مستسلمين. لم يبد على أحد منهم شيء من الخوف أو التردد، وقد غلّف الأدب الذي اتّسم به ردهم على ابن أبي المحل، حزم وثبات وصلابة. إذ ربما كان يرغب حقاً في الابقاء على حياتهم بدافع قرابته لهم. وقد شكروه على ذلك. غير أنهم أكدوا له بنفس الوقت أنهم ليسوا بحاجة لذلك الأمان من إنسان قد يكون هو نفسه بحاجة ماسة إليه. وأنهم لا ينتظرون سوى أمان الله، فذلك هو الأمان الحقيقي.

وكان ردهم القوي صفعة لابن زياد الذي لا بد أنه قد تمنى في قرارة نفسه لو استجاب هؤلاء الفتية لخالهم وانحازوا إليه، فقد كان ذلك بنظره مكسباً كبيراً ونصراً محققاً.

شمر يحاول استمالة العباس، والعباس يردعه: «لعنك الله ولعن أمانك أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له»

وعشية الخميس، لتسع مضين من المحرم، أراد شمر أن يدلي بدلوه أيضاً ويستميل الفتية إلى جانبه ويعزلهم عن الحسين عليه السلام. كان ذلك أثناء الاستعداد الأول للهجوم الذي أجل بعد ذلك حتى صبيحة اليوم التالي. وطبول الحرب تقرع بعد ورود تهديدات ابن زياد لابن سعد الضعيف المتخاذل الطامع بامارة الري.

(جاء شمر حتى وقف على أصحاب الحسين، فقال: أين بنو أختنا؟ فخرج إليه العباس وجعفر وعثمان بنو علي، فقالوا له: مالك وما تريد؟ قال: أنتم يا بني أختي آمنون. قال له الفتية: لعنك الله ولعن أمانك. لئن كنت خالنا، أتؤمننا، وابن رسول الله لا أمان له؟)[2].

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٣١٣.

(٢) نفس المصدر ٣/ ٣١٤.

لقد كان الحسين عليه السلام أمام أعينهم وفي قلوبهم دائماً، وكانوا يريدون الأمة كلّها أن تضعه نصب أعينها وفي ضمائرها إلّا أنَّ كانت مشلولة، مسلوبة الإرادة، تتصرف دون وعي أو شعور بالمسؤولية تحت وطأة السلطة الظالمة المتجبرة.

العباس يفاوض القوم ليوقف الهجوم:

وفي عصر ذلك اليوم نفسه، عندما زحف ابن سعد نحو مخيم الحسين عليه السلام، كان العباس هو من أخبر الحسين عليه السلام بذلك... فقال له الإمام: (يا عباس، اركب بنفسي أنت يا أخي، حتى تلقاهم فتقول لهم: ما لكم؟ وما بدا لكم؟ وتسألهم عما جاء بهم. فأتاهم العباس، فاستقبلهم في عشرين فارساً فيهم زهير بن القين وحبيب بن مظاهر. فقال لهم العباس: ما بدا لكم؟ وما تريدون؟ قالوا: جاء أمر الأمير بأن نعرض عليكم أن تنزلوا على حكمه أو ننازلكم. قال: فلا تعجلوا حتى أرجع إلى أبي عبدالله، فأعرض عليه ما ذكرتم. فوقفوا، ثم قالوا: إلقه، فأعلمه ذلك، ثم القنا بما يقول.

فانصرف العباس راجعاً يركض إلى الحسين، يخبره بالخبر، ووقف أصحابه يخاطبون القوم)[1].

«فإن استطعت أن تؤخرهم إلى غدوة لعلنا نصلّي لربنا الليلة»

وقد استمعنا لنصائح وخطابات حبيب بن مظاهر وزهير بن القين التي ألقياها خلال فترة ذهاب العباس عليه السلام وعودته.. وكان من الأجدر بمن استمع إليها أي يعي معانيها حقاً، ويعي الدوافع التي جعلت أنصار الحسين عليه السلام وهم قلة، يقبلون على الموت بذلك الثبات والعزيمة، وينضم إليهم ويناصرهم في المهمة الكبيرة التي أخذوا على عواتقهم انجازها، لا الانضمام إلى جانب أعدائهم، وهم بالتأكيد أعداء الأمة كلها.

(وكان العباس بن علي حين أتى حسيناً بما عرض عليه عمر بن سعد، قال: ارجع إليهم، فإن استطعت أن تؤخرهم إلى غدوة وتدفعهم عند العشيّة لعلنا نصلي لربنا الليلة، وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أني قد كنت أحب الصلاة له وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار)[2].

---

(١) نفس المصدر ٣/ ٣١٤.

(٢) الطبري ٣/ ٣١٥.

غير أن العباس عليه السلام لم يبلغهم بالسبب الحقيقي الذي دعاه لطلب تأجيل القتال تلك الليلة ولم يوصل إليهم نفس رسالة الحسين عليه السلام وأقواله، فإذا ما أحب عليه السلام لنفسه وأصحابه أن يقضوا تلك الليلة في الصلاة وتلاوة الكتاب والدعاء والاستغفار. فربما لن يكون هذا السبب في نظر أعدائه كافياً لتأجيل القتال أو مانعاً منه. إذ ما تعني الصلاة وقراءة القرآن والدعاء بنظر أناس يقدمون بتلك السهولة على قتل إمامهم وابن نبيهم صلى الله عليه وآله وابن وصيه عليه السلام، حتى أن هذا الطلب من الحسين عليه السلام قد يستفزهم عندما يرون منه ومن أصحابه اهتماماً خاصاً بفريضة الصلاة وتلاوة القرآن.. فما عساهم أن يفعلوا هم في تلك الليلة وقد جاءوا للحرب والقتال؟ أتراهم لم يعرفوا الصلاة ولا القرآن ولم يهتموا بهما؟ وقد يلاقي بعضهم الموت كما سيلاقيه الحسين وأصحابه فماذا سيكون موقفهم أمام الحسين عليه السلام وأصحابه أو أمام أنفسهم على الأقل عندما لن يقضوا الليلة كما سيقضيها هؤلاء،؟!ستكون رغبة الحسين عليه السلام الحقيقية حافزاً على قيامهم بمنعه منها والاصرار على عدم تأجيل القتال وحسم المسألة واكمال الجريمة في تلك الليلة نفسها، إذ ماذا ستقول الناس عنهم بعد ذلك. هل سيقولون إنَّ الحسين وأصحابه قضوا ليلتهم في الصلاة والدعاء والذكر استعداداً للقاء الله، وقضاها أعداؤهم في اللهو والعبث والسمر والاستعداد والتحضير للجريمة.

وهكذا أقبل العباس عليه السلام يركض إليهم، وهو يعرف من هم، وأنهم أبعد ما يكونون عن الصلاة وعن الإسلام وعن التفكير الحقيقي بالصلاة ومعانيها التي لا يعرفها إلا أناس كالحسين وأصحابه عليهم السلام.

طلب ينسجم مع واقع حال الخصوم

(فقال: يا هؤلاء، إن أبا عبدالله يسألكم أن تنصرفوا هذه العشية حتى ينظر في هذا الأمر، فإن هذا أمر لم يجر بينكم وبينه فيه منطق، فإذا أصبحنا التقينا إن شاء الله، فإما رضيناه فأتينا بالأمر الذي تسألونه وتسومونه، أو كرهنا فرددناه، وإنما أراد بذلك أن يردهم عنه تلك العشية حتى يأمر بأمره، ويوصي أهله)[1].

كان هذا الجواب المناسب الوحيد فما عسى الحجة الحقيقية، وهي الاستعداد

(١) المصدر السابق ٣/ ٣١٤.

للقاء الله بالصلاة وتلاوة القرآن والدُّعاء والاستغفار، أن تصمد أمام هؤلاء الذين أضاعوا الصلاة وأهملوها واستهانوا بها. ولم يشأ العباس أن يجيبهم جواباً لا يجد صدى في نفوسهم ويفسح المجال للنقاش والرفض. فقال إنَّ عليهم أن يصبروا حتى اليوم التالي ليرى الحسين عليه السلام رأيه. ورأي الحسين عليه السلام كان معروفاً مسبقاً حتى من قبل أعدائه الذين يعرفون حقاً أنه لن يتراجع عن موقفه ويبايع يزيد مهما كانت خطورة الموقف، غير أن حجة العباس كانت قوية لا يمكن ردّها.

وقد قال قيس بن الأشعث لابن سعد: (أجبهم إلى ما سألوك، فلعمري ليصبحنك بالقتال غدوه)[1]. إذ إنّه كان واثقاً من اصرارهم وعزيمتهم. وقد وافق ابن سعد مذعناً لحجة العباس القوية ورأي قواده، إلا أنه قال مكابراً، ردّاً على ابن الأشعث: (والله لو أعلم أن يفعلوا ما أخرتهم العشية)[2].

وهل كان بمقدوره أن يقول غير ما قال. هل كان يستطيع أن يقول إنه سيؤخرهم وهو يعلم أنهم سيقاتلونه في الغد، ويتيح لهم هذه الفرصة من العمر، وإن كانت ليلة واحدة، ليستميلوا بها بعض أفراد جيشه وربما استمالوا أغلبية الجيش فعكسوا الموقف بأكمله.

وربما عُدَّ هذا منه ضعفاً لن يرضاه ابن زياد الذي بث عيونه وأرصاده، وجواسيسه عليه وعلى القادة الآخرين، بل على الجيش برمته. مع أنه يعلم قبل غيره أن الحسين عليه السلام لن يستسلم أو يبايع يزيد مهما كان الأمر، وقد خاطب هو نفسه شمراً في معرض تبادل التهم معتقداً أنه هو الذي حرض ابن زياد على شن الحرب على الحسين عليه السلام قائلًا: (لا يستسلم والله حسين، إن نفساً أبيّةً لبين جنبيه)[3].

ليلة المعركة: «إني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي»

وفي تلك الليلة، عندما رجع عمر بن سعد، جمع الحسين عليه السلام أصحابه وخطب فيهم قائلًا: (أُثني على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء، وأحمده على السراء والضراء. أللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة، وعلمتنا القرآن، وفقهتنا في

(١) و(٢) المصدر السابق ٣/ ٣١٤.
(٣) نفس المصدر ٣/ ٣١٣.

الدين، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، ولم تجعلنا من المشركين. أما بعد فإني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي. فجزاكم الله عني جميعاً خيراً. ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، ألا وأني قد رأيت لكم فانطلقوا جميعاً في حل، ليس عليكم مني ذمام، هذا ليل قد غشيكم فاتخذوه جملًا. ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، تفرقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرّج الله، فإن القوم إنما يطلبوني، ولو قد أصابوني لهوا عن طلب غيري)[1].

وكانت هذه المرة الثانية التي يطلب فيها الإمام عليه السلام منهم ذلك ويجعلهم في حل من مغادرته وتركه. وكان من المحتمل في الظروف العادية، ولو كان الأمر لا يمنع من التخلي عنه، وكان أصحابه غير أولئك الأصحاب الذين كانوا خير الأصحاب، أن نجد من بينهم من يتخاذل ويتراجع ويتخلى عنه. غير أننا وجدنا حالة واحدة وموقفاً واحداً من كل أولئك الأصحاب، رفضوا فيه بأجمعهم دون استثناء التخلي عنه، فكيف حصل أن لم نجد أحداً منهم يفكر بتركه رغم جو الحرب ونذره وعواصفه..؟.

العباس مع الحسين دائماً.. لن نتخلى عنك «لمَ نفعل لنبقى بعدك، لا أرانا الله ذلك أبداً»

لقد أعلنوا بوضوح: (لمَ نفعل لنبقى بعدك، لا أرانا الله ذلك أبداً. ثم إنَّهم تكلموا بهذا ونحوه. بدأهم بهذا القول العباس بن علي)[2].

كان تركه أمراً مستحيلًا بنظرهم، إذ كان وجودهم على هذه الأرض بعد موته يعني موتاً دائمياً لهم، حتى وإن ظلوا أحياء لسنوات معدودة من العمر، فهل يستسلمون ويبايعون يزيداً أو يبقون مشردين خائفين لمجرد أن يعيشوا بضع سنوات أخرى من العمر، ويتركون ما عرضه عليهم الحسين عليه السلام والإسلام، وهو البقاء الدائم في ظل الله ورعايته، في جنته آمنين سعداء. كانوا يرون حياتهم في القتل مع

---

(١) و(٢) الطبري ٣/ ٣١٥ وابن طاووس ٣٨ وابن الأثير ٣/ ٢٨٥ والخوارزمي ١ ف ١١ والارشاد ٢١٠ وأمالي الصدوق م ٣٠ وجمهرة خطب العرب ٢/ ٤١ - ٤٢ والبحار ٤٤ - ٤٩٢ - ٤٩٤ وابن شهر آشوب ٤/ ٩٩ وأنساب الأشراف ٣/ ١٨٥ والنويري ٢٠/ ٤٣٥.

الحسين عليه السلام والموت معه والمبعث معه، لا العيش في ظل فراعنة أمية الظالمين الذين أرسوا قواعد للظلم باسم الإسلام رافعين شعاراته مدعين حرصهم على المسلمين ووحدتهم، مع أنهم كانوا أبعد الناس عن الإسلام وأشد المناوئين له، وموقف العباس عليه السلام هنا موقف واضح يضاف إلى جملة مواقفه العديدة في تلك الساعات الحرجة التي توشك أن ترتكب فيها أكبر جريمة عرفتها البشرية.

حامل الراية

وبعد أن عبأ الحسين عليه السلام أصحابه وصلى بهم صلاة الغداة، جعل زهير بن القين في ميمنة أصحابه وحبيب بن مظاهر في ميسرتهم، أعطى رايته العباس بن علي أخاه، وقد ظل محافظاً عليها، وكان آخر من قتل من أصحاب الحسين عليه السلام بعد أن بقي وحيداً وهو يحاول اختراق سور الحبد المحيط بالفرات في محاولة منه لجلب الماء للأطفال العطاشى.

كانت الراية التي حملها العباس وهي ترفّ فوق أصحاب الحسين القلائل. تعني الكثير مقابل تلك التي كان يحملها أصحاب ابن سعد، تعني أن قضية ترفع هنا، بل قضية الأمة كلها، مقابل ادعاءات مزعومة بحق السيادة والسلطان على الأمة يرفعها يزيد وابن زياد وأعوانهما.

لا بد أن المشهد يهز كل النفوس، بل أنه غير قابل للتصور عند الكثيرين. هل كان الحسين عليه السلام وأصحابه جادين وهم يقفون وقفة التعبئة والاستعداد لمواجهة جيش يفوقهم ألف مرة..؟ وهل كانوا يعتقدون أنهم سيتغلبون على عدوهم بتلك المواجهة العسكرية غير المتكافئة؟ وهل كانوا يحسبون أنفسهم جيشاً حقيقياً يحمل راية بمواجهة ذلك الجيش الكبير الذي يحمل راية أيضاً؟ وإذا ما كانوا يعتقدون أنهم سيقتلون بتلك المواجهة فلم ذلك الاستعداد للقتال؟ وما جدواه أصلًا إذا كان مصيرهم القتل؟.

تساؤلات المتخاذلين

ونحسب أن الذي يطرح هذه الأسئلة قد يريد القول: ما جدوى الثورة كلها إذا ما كان الأمر سينتهي تلك النهاية المأساوية..؟ وما جدواها وقد سكتت الأمة كلها عن يزيد واستسلمت له؟

أما بواعث الثورة فقد عرفناها، وعرفنا أنها ما كانت تحقق هدفها ـ في ظل الأوضاع التي قامت فيها ـ لو لم تتم بتلك الصورة المأساوية.

كان الحسين عليه السلام يسلم العباس رايته لتخفق فوق رؤوس أصحابه متحدياً كل عنجهية وكبرياء دولة الظلم وكل جيوشها وطغاتها، ليرسل بذلك إشارة واضحة للأمة كلها: أن مواجهة الظلم ينبغي أن تتم في كل ظرف ومهما كانت قوة الظالم.

والراية لا بد أن ترفع مهما كان عدد الذين يقفون تحتها ويستظلون بطلبها. والسكوت عن الظالم يعني الاقرار (بشرعية) وجوده وظلمه.

كيف كنا سنلتفت نحن إلى ظلم يزيد لو لم يرفع الحسين عليه السلام رايته بوجهه؟.

وإذا ما كان الحسين عليه السلام قد قرر الثورة والموجهة، فهل يذهب ليسلم نفسه لأعدائه في كربلاء دون قتال أو دفاع عن النفس؟ أيصح منه هذا لو فعله؟ وهل كنا نحن نقبل ذلك؟.

الحسين عليه السلام لم يذهب إلا مقاتلًا، حتى ولو بقي وحده. ولقد قاتل عندما بقي وحده، وقُتل وهو يحمل الاصرار على مواجهة دولة الظلم وتحديها ومقاتلتها، وبذلك حُفظت لنا تلك الصورة الفريدة للمواجهة وظلت أمام أنظار المسلمين دائماً. وقد ظلت شاخصة مثالًا للتحدي اللازم والواجب لدولة الظلم أينما وجدت، تهز كل منتم حقيقي للإسلام وتقلق كل أعدائه وكل من لا يجد في نفسه قوة على حمل رايته أو الوقوف تحتها.

ولعلها صورة تفزع كل ضعيف، أن تقوم تلك القلة من أصحاب الحسين عليه السلام بتعبئة نفسها ورفع رايتها بمواجهة جيش كبير حاشد متعطش لدمها، مدفوع بإرادة ظالمة لسحقها وإبادتها واستئصالها.

إن الذي وَجَدَ، أن الأمر كان يستحق المواجهة والثورة، وَجَد أنَّ عليه أن يموت ميتة جديرة بتلك الثورة. يموت مقاتلًا بعد أن يقتل فرداً أو فردين من أعوان دولة الظلم وإلا فهل يقدم على المواجهة، ويجلس مقابل أعدائه، ينتظر اللحظة التي يقضون فيها على حياته دون أن يرفع يداً للدفاع عن نفسه؟.

ومع أن الصورة كانت محزنة، وقوف تلك القلة المستبسلة التي ترفع راية الإسلام الحقيقية بمواجهة البحر المتلاطم من الجند، إلا أنها كانت صورة بديعة لن

يتاح للبشرية أن تشهد مثلها، وكان لها معنى واحد ورسالة واحدة كتبتها تلك القلة للأمة كلها:

لا بد للإسلام أن يجد من ينتصر له. وإن عجز الجميع عن ذلك وخافوا من مواجهة دولة الظلم، فها نحن نواجهها غير عاجزين ولا خائفين رافعين راية الإسلام، وإن الأمر الذي كان غير قابل للتصديق قد حصل.. وها نحن نقدم حياتنا في سبيل الإسلام ونقاتل في سبيله، وها نحن ننتصر على أعدائنا رغم كل قوتهم وكيدهم وعددهم.

وقد وصلت رسالة الحسين عليه السلام للأمة فعلًا ووجدت من يستقبلها ويعيها، ووجدت من يلتحق بموكب أصحبه وإن بعدت الشقة وطال الزمن.

تهدئة مخاوف النساء

وقبيل القتال رأى الحسين عليه السلام أن يبيّن لجيش ابن زياد دوافعه من القدوم إليهم ويعرفهم بأهمية موقعه ومركزه من رسول الله صلى الله عليه وآله ومن الأمة كلها وقد أثارت مقدمة خطبته التي كان يحتمل فيها عدم استجابتهم لدعوته ونداءاته مخوف النسوة في معسكره وقد رأيت احتمال قتله عليه السلام وأصحابه أمراً وارداً، بل قريباً[1] وقد بكين وصحن عندما سمعنه، وكان من العسير اسكاتهن لو لم يتصد العباس وعلي الأكبر لذلك، وقد أرسلهما الإمام الحسين عليه السلام لهذه المهمة التي لم تكن تبدو يسيرة في ذلك الحين، فالنّسوة كن قد اعتدن حياة الأمان، واعتدن أن يحترمن في ظل آبائهن وأزواجهن واخوتهن، وها هنَّ يواجهن الآن من يريد الفتك بهم والقضاء عليهم ويواجهن مصيراً مبهماً سيلقين فيه المزيد من اوذى والتشريد والإهانة وربما القتل أيضاً، فأي شيء يمنع أعداء الحسين من فعل ذلك ما داموا قد تجرَّؤوا عليه وواجهوه تلك المواجهة الظالمة.؟.

(١) وقد جاء في مقدمة تلك الخطبة: (اسمعوا قولي ولا تعجلوني حتى أعظكم بما لحقٌ لكم عليَّ، وحتى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عذري، وصدقتم قولي، وأعطيتموني النصف، كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم عليَّ سبيل، وإن لم تقبلوا مني العذر، ولم تعطوا النصف من أنفسكم ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ يونس ٧١ ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ الأعراف ١٩٦، الطبري ٣/٣١٨.

كان أمر اسكاتهن يحتاج جلداًورفقاً وصبراً، وكنَّ يحتجن إلى من يثقن به ويسكنَّ إليه، إلى رجل قوي حازم أريب، وهذا ما كان عليه العباس وعلي الأكبر أيضاً، وقد نجحا باسكات النساء، فليس من المعقول أن يمصني الحسين عليه السلام في خطبه وبياناته وحججه ويسمع صوته أعداءه، وأصوات النساء ترتفع بالصياح والبكاء، وكان لا بد أن يرى هؤلاء الأعداء صبراً وهدوءاً من الجميع، ولعل أصوات البكاء ستثيرهم وتجعلهم يشعرون بقوة وبأس أكبر من التي كانوا عليها عليها ويتحمسون حماس الوحوش الضارية وهي ترى استسلام فرائسها وتسمع صراخها وعويلها.

الحسين عليه السلام يلقي الحجة على جيش ابن زياد ويوضح أسباب ثورته

وقد أكمل الحسين عليه السلام خطبته[1] وأوضح للجيش المعتدي أسباب قدومه إلى الكوفة، وذكرهم بموقعه ومنزلته وما ذكره رسول الله صلى الله عليه وآله بحقه وحق أخيه الحسن عليه السلام وعدم جواز قتله والاعتداء عليه وانتهاك حرمته وطلب منهم أن يتأكدوا من ذلك من مجموعة من الصحابة ذكرهم لهم، وقد أنكروا بالطبع كل رسائلهم وكتبهم ودعواتهم إليه وطلبوا منه الاستسلام لابن زياد ومبايعة يزيد، وإذ لم ير جدوى في الاستطراد بالكلام لاقناعهم بعد أن حاول ذلك أكثر من مرة وحاوله بعض أصحابه، فإنه صرخ فيهم قائلًا: (لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر اقرار العبيد، عباد الله إني عذت بربي وربكم أن ترجمون، أعوذ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب.

ثم إنه أناخ راحلته، وأمر عقبة بن سِمعان فعقلها، وأقبلوا يزحفون نحوه)[2].

العباس عليه السلام: المهمات الصعبة:

كان العباس عليه السلام يظهر في كل المواقف الصعبة التي تستدعي ذلك ويظهر فيها خطر حقيقي يتعرض له أصحاب الحسين عليه السلام وقد استنقذ في إحدى المرات جماعة من أصحاب الحسين عليه السلام وقطعهم من أصحابهم، وهم الأربعة الذين وردوا من الكوفة والتحقوا بالإمام عليه السلام. وكان هؤلاء وهم: عمر بن خالد الصيداوي

(١) وطد ذكرنا هذه الخطبة فيما مضى من هذه الدراسة.

(٢) تراجع المصادر السابقة، والنص عن الطبري ٣/ ٣١٩.

وجابر بن الحارث السلماني وسعد مولى عمر بن خالد، ومجمّع بن عبدالله العائذي، قد (قاتلوا في أول القتال فشدّوا مقدمين بأسيافهم على الناس، فلما وغلوا عطف عليهم الناس، فأخذوا يحوزونهم، وقطعوهم من أصحابهم غير بعيد، فحمل عليهم العباس بن علي فاستنقذهم، فجاءوا قد جرّحوا، فلما دنا منهم عدوهم شدّوا بأسيافهم، فقاتلوا في أول الأمر حتى قتلوا في مكان واحد)[١].

كان العباس عليه السلام يشكل وحده قوة لا يستهان بها، وقد رأينا كيف انتزع الماء مع مجموعة قليلة من أصحابه، رغم عمرو ابن الحجاج وأصحابه الخمسمائة، وكيف يقوم الآن بانقاذ هؤلاء الأربعة من عدوهم الذي لا بد أنه كان يضم أفراداً عديدين، وكان الحسين عليه السلام يعتمد عليه بشكل استثنائي لبأسه وشجاعته واستجابته التامة غير المتحفظة وفهمه لإمامه وأخيه فهماً واعياً أمكنه من تنفيذ رغباته وأوامره بأسرع وقت وبأداء جيد لا يحسنه غيره.

كلنا فداء للحسين عليه السلام، العباس يقدم اخوته: «تقدموا يا بني أمي حتى أراكم قد نصحتم لله ولرسوله»

وعندما بدأ أصحاب الحسين وآله يتساقطون في المعركة، وكان أولهم من آله، علي بن الحسين (الأكبر)، كان العباس لا يزال يجول في المعركة ويصول على أعدائه، وقد أدرك أن دوره في الشهادة قد اقترب، فأراد أن يقدم اخوته ليموتوا قبله ليحتسبهم عند الله... وقد قال لهم: (تقدموا يا بني أمي حتى أراكم قد نصحتم لله ولرسوله،)[٢]. ومع أنهم ليسوا بحاجة لمن يحثهم على القتال، فقد كانوا شباباً يعون مهماتهم تمام الوعي[٣].

---

(١) الطبري ٣/ ٣٣٠.

(٢) الارشاد للمفيد ص/ ٣٥٥ وذكر الطبري قائلًا: (وزعموا أن العباس بن علي قال لاخوته من أمه (عبدالله وجعفر وعثمان: يا بني أمي تقدموا، حتى أرثكم فإنه لا ولد لكم. ففعلوا، فقتلوا..) ٠٣/ ٣٣٢.

(٣) المشهور أن عبدالله عاش خمساً وعشرين سنة وعثمان إحدى وعشرين وجعفر تسع عشرة سنة وروي غير ذلك.

اخوة العباس: نحن فداء لأخينا الحسين.. نحمي حسيناً ذا الندى المفضالِ

دعا اخوته قائلًا لكل منهم: (تقدم يا أخي حتى أراك قتيلًا وأحتسبك، لا)[١].

وقد تقدم عبدالله بين يديه واستأذن أخاه الحسين عليه السلام في البروز إلى الميدان ومقاتلة الأعداء، وقد قاتلهم وهو يقول:

أنا ابن ذي النجدة والافضال ذاك عليُ الخير في الأفعال
سيف رسول الله ذو النكال في كل يوم ظاهر الأهوال[٢]

وقد قتله في النهاية هانىء بن ثبيت الحضرمي عندما ضربه بالسيف على رأسه.

أما عثمان ـ الذي سماه أبوه عليه السلام باسم الصحابي الجليل عثمان بن مظعون ـ فقد تقدم وهو يرتجز ويقول:

إني أنا عثمان ذو المفاخر شيخي عليٌّ ذو المغال الطاهر
أخي حسين خيرة الأخاير وسيد الكبار والأصاغر
بعد الرسول والوصي الناصر[٣]

وقد رماه خولي بن يزيد بسهم غادر وقع في جبينه فأضعفه حتى سقط على الأرض، فجاءه رجل من أبان بن دارم، فاحتزَّ رأسه.

أما جعفر فتقدم يشدّ على الأعداء وهو يقول:

إني أنا جعفر ذو المعالي ابنُ علي الخير ذي النوالِ
حسبي بعمي شرفاً وخالي أحمي حسيناً ذا الندى المفضال

وقاتل حتى رماه خولي بن يزيد الأصبحي[٤]، وقيل هانىء بن ثبيت الحضرمي[٥] فأصاب عينه فقتله.

---

(١) البحار ٤٥/٣٨ والخوارزمي ٢ - ٢٩ ومقاتل الطالبين ٥٨ وابن شهرآشوب ٤ - ١٠٧.
(٢) نفس المصدر.
(٣) مقاتل الطالبيين ص ٥٩ والمصادر السابقة الأخرى.
(٤) مناقب ابن شهرآشوب ٤- ١٠٧ والبحار ٤٥ - ٣٨.
(٥) مقاتل الطالبين ص ٥٨.

قتلوا فبقوا أحياء عند ربهم يرزقون

لقد استجاب اخوة العباس لنداء أخيهم استجابة تامة، عندما نصروا إمامهم وأخاهم الحسين عليه السلام واستشهدوا بين يديه. فلماذا عساهم قدموا إلى هنا؟ وماذا كانوا يتوقعون من مواجهة دولة الظلم وتحديها سوى الأذى والقتل؟.

وقد قتلوا وقطعت رؤوسهم وأخذت مع رأس الحسين عليه السلام ورؤوس أصحابه إلى ابن زياد، ثم إلى يزيد بعد ذلك. لتظل شاهدة على نوع جديد من الجرائم يبتكر في ظل الدولة الأموية اليزيدية. فقطع الرؤوس (فن) لم يستحدث إلا الآن ورفعها على الأعمدة كان قمة الابداع في هذا الفن الجديد، كان نوعاً من الارهاب تمارسه السلطة لتسكت أعداءها ومناوئيها. ولا يهم إن كان الإسلام قد أقرَّ ذلك أم لم يقرّه، إنما المهم في نظرها تثبيت دعائم العرش وإن كان على أشلاء وجماجم المسلمين.

وكأن الجيش الهمام الذي قطع الرؤوس وداس الجثث بسنابك خيله قد أدى عملاً جليلًا للمسلمين فتح فيه أبواب الصين أو روما لهم.

ولم يدرك القائمون بالجريمة فضاعة عملهم إلا بعد أن انتهوا منها، وربما أدرك بعضهم ذلك حال الانتهاء منها مباشرة. كما أن الأمة قد انتبهت إلى شناعتها ووعت مخاطرها وآثارها بعد مدة قصيرة جداً، ثم بدأ وعيها يتعمق بعد ذلك، حينما أدركت أنها بسكوتها قد ساهمت بأكبر جريمة قيض للبشرية أن تشهدها في تاريخها. وأن المنفذين لها قد أعلنوا بذلك حقيقة موقفهم المعادي للإسلام ولرسول الله صلى الله عليه وآله نفسه أيضاً.

ألم يحذرها الحسين عليه السلام ويلفت نظرها لذلك بشكل واضح؟ فلماذا لم تحذر ولم تلتفت وتغاضت بشكل مهين مستسلمة لحكامها وجلاديها الذين جردوها من أبسط مكاسبها وحقوقها وحرياتها متذرعين بالإسلام نفسه بعد أن شوهوا وحرفوا الكثير من أحكامه وتشريعاته وتاريخه..؟.

إن كان لا بد من القتل فلتجلب الماء للعطاشى: «يا نفس من بعد الحسين هوني..».

ويبدو أن عبدالله وعثمان وجعفر كانوا يشكلون من أخيهم العباس الدرع الأخير وقوة الحماية الرئيسية للحسين عليه السلام، وبد أن استشهدوا لم يبق منهم إلا العباس.

وقد بدا الآن، بعد أن تساقط أنصار أخيه جميعاً، وقد ظل وحيداً معه، أن دوره في الشهادة قد حان الآن، ليعقبه دور أخيه وإمامه بعد ذلك، وهو ما كان يؤلمه ويحزنه كثيراً، فقد كان أعلم الناس بمنزلته ومقامه، وها هو يرى كيف يتجرأ عليه أعداؤه رغم كل شيء.

كان صاحب لواء الحسين عليه السلام وحامل رايته، فإذا قتل وسقطت الراية، فإن ذلك سيكون ايذاناً بانتهاء المعركة لصالح العدو.. وهكذا فإنه عندما طلب منه الاذن في القتال لم يأذن له، ثم عندما ألحَّ طلب منه أن يجلب قليلًا من الماء للأطفال العطاشى الذين كانوا يصرخون ويطالبون بالماء وكان منهم سكينة بنت الحسين عليه السلام.

وإذا أن أعداءه منعوه الماء، وأعدوا عدتهم للحيلولة بينه وبين الوصول للنهر، بعد أن أخذه بالقوة قبل ثلاثة أيام. فإنه قرر أن يعيد الكرّة هذه المرة مهما كانت النتائج ومهما كان عدد الأعداء المتربصين المتأهبين لمواجهته ومنعه.

وهكذا اقتحم النهر، غير مبال بجمع الأعداء واستطاع أن يقتل من تصدى له منهم ووقف بوجهه ووصل النهر سالماً.

وهنا نشاهد منظراً فريداً للايثار والحب، فقد مدّ العباس يديه ـ بطريقة عفوية تلقائية لعطشه وحاجته للماء ـ ليغترف منه غرفة وإذا أدناها من فمه، قفزت إلى ذهنه صورة أخيه الحسين والعطاشى من النساء والأطفال الذين كان يضمهم مخيّمه، ولم يستطع رغم أنه كان بأشد الحاجة للماء أن يشرب منه شيئاً. وقيل أنه أنشد في تلك اللحظة قائلًا:

يا نفس من بعد الحسين هوني   وبعده لا كنت أو تكون
هذا الحسين وارد المنون   وتشربين بارد المعين
تالله ما هذا فعال ديني[1]

الايثار بالنفس ومواجهة الموت: «نفسي لنفس المصطفى الطهر وقا»

كان مشهداً عجيباً بهر أعداءه وأذهلهم. فلم يدر بخلد أحدهم أن شخصاً ما يمكن أن يؤثر الآخرين على نفسه لهذا الحد.

(١) البحار ٤٥/ ٤١ والمناقب لابن شهر آشوب ٤/ ١٠٨.

كان موقفاً أخلاقياً رفيعاً. ولعل قيمته الأخلاقية ـ التي كان تفوق ما كان يمكن أن يتحقق عملياً إذا ما شرب العباس الماء وأصبح أكثر قوة على مواجهة عدوه ـ ستحقق كسباً مضافاً لقضية الحسين عليه السلام كلها، فمن يجود بنفسه ليوفر حياة أخيه، مع أنه كان يستطيع ضمان حياته والبقاء حياً إذا ما طلب ذلك، وقد أتيحت تلك الفرصة فعلًا، لا يرى أنه حينما يتنازل عن الماء ولا يشرب منه، أنه قدّم الشيء الكثير مقابل حياته التي سيقدمها، ومقابل ما سيقدمه أخوه إمام الأمة وسيدها كلها، وهي حياته، أغلى حياة. ونفسه وهي أعزّ نفس عند الله وأكرمها مقاماً لديه.

ملأ قربته وحملها على كتفه الأيمن وركب جواده تجاه المخيم وهو على استعداد لمواجهة من يتصدى له ويمنعه من المسير وايصال الماء لمن يحتاجه. وجميع من في المخيم كانوا بحاجة ماسة إليه.

كان كوالده أمير المؤمنين عليه السلام لا يقدر أحد على مواجهته في ساحة الحرب، فقد كان أعداؤه يهربون ويتفرقون من بين يديه خشية من سيفه.

كان يتقدم وينشد:

(لا أرهب الموت إذا الموت زقا حتى أواري في المصاليت لقى
نفسي لنفس المصطفى الطهر وقا إني أنا العباس أغدو بالسقا
ولا أخاف الشرَّ يوم الملتقى[1])

اغتالوه بعد أن لم يستيطعوا مواجهته

غير أن هؤلاء الأعداء، حينما لم يلجأوا إلى المواجهة المباشرة معه وحينما لم يجرؤ أحد منهم على الوقوف بوجهه، لجأوا إلى أسلوب الغدر، وهو الأسلوب الذي طالما لجأ إليه رأس الدولة ومؤسسها نفسه وأصبح أمراً مقبولًا طالما أنه كان يوفر عليها كل خسارة محتملة.

كمن له في الطريق زيد بن الرقاد الجهني وحكيم بن الطفيل السنبسي، وضربه أحدهما على يمينه فقطعها قبل أن ينتبه إليهما[2].

غير أنه استطاع أن يتدارك القربة ويحملها على كتفه الأيسر، وكان ذلك يبدو

(١) و(٢) البحار ٤٥/ ٤٠ والارشاد ص ٢٥٥ ومناقب ابن شهراشوب ٤/ ١٠٨.

أمراً خارقاً من رجل قطعت ذراعه اليمنى. غير أن العباس كان يريد أن يحقق هدفاً بدا له كبيراً جداً في تلك اللحظة، وهو ايصال الماء لأخيه الحسين عليه السلام.

كان يخوض سباقاً ضارياً مع أعدائه. فلا بد من ايصال الماء وإن كان الثمن حياته، وقد أنشد في تلك اللحظة أيضاً:

(والله إن قطعتموا يميني   إني أحامي أبداً عن ديني
وعن إمام صادق اليقين   نجل النبي الطاهر الامين[1]

ويبدو أن أعداءه أرادوا استثمار فوزهم وضعفه عن القتال، فكمن أحد عدويه الغادرين حكيم الطفيل وراء نخلة وضربه على شماله فقطعها من الزند أيضاً. . . وفي تلك الحال أنشد

يا نفس لا تخشي من الكفار   وأبشري برحمة الجبار
مع النبي المصطفى المختار   قد قطعوا ببغيهم يساري
فأصلهم يا رب حر النار[2]

«عليك مني السلام أبا عبدالله»

كان سباقه معهم يوشك أن ينتهي، وقد نجحوا بقطع شماله أيضاً. وكان ايصال قربة الماء يمثل له الهدف الرئيسي في تلك اللحظات المتبقية له من العمر.

ولن يتاح لأحد على هذه الأرض أن يشهد مشهداً كالذي شهده أعداء العباس. فها هنا فارس يحيط به أعداؤه ينتهزون منه ضعفاً أو غفلة ليجهزوا عليه، وقد قطعوا يديه وأوشكت قربة الماء التي يحملها أن تسقط لو لم يتداركها بما بقي من زنديه وربما بفمه كذلك ليظل محافظاً عليها حتى يوصلها سالمة إلى الحسين وإلى الأطفال والنساء والعطاشى. وإذا أنه أمر لم يحدث أبداً ولم يقيض لأحد أن يشهد مثله، فإنه يظل ماثلاً في الأذهان إلى الأبد.

فالفارس يقبل أن يتخلى عن كل شيء، حتى حياته، لكنه يرفض أن يتخلى عن هذه القربة التي أمره إمامه وقائده بجلبها إليه. وإذ أنه لم يعد قادراً على القتال، فإن أعداءه استهدفوا القربة هذه المرة، ولم يستهدفوها قبل ذلك عندما كان سالماً لأنهم

(١) و(٢) نفس المصادر السابقة.

كانوا سيدفعون الثمن غالياً، أما هذه المرة، وقد قطعت يداه وسقطت سيفه فإن أعداءه، رشقوه ورشقوا قربته بعشرات السهام. وكان قتل حامل الراية والفارس الذي رفض أمانهم وانتزع منهم الماء بالقوة قبل ثلاثة أيام يمثل بنظرهم نصراً كبيراً وإن كان قد تم بالغدر والخديعة. أريق ماء القربة وأصاب سهمٌ صدره وآخر إحدى عينيه، وضربه آخر على رأسه فانقلب عن فرسه إلى الأرض. وكانت فرصة ثمينة لم يُضِعها أعداؤه. وهو على تلك الحال فبادروا إليه يقطعونه بأسيافهم. فقد كان هو الذي أخر المعركة إلى ذلك الحين وجعلهم يتكبدون خسائر فادحة، وكأنهم إذ يوجهون إليه أسيافهم ينتقمون بذلك من الحسين عليه السلام ومن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام ومن الرسول صلى الله عليه وآله نفسه.

وكانت كلماته الأخيرة نداء حميماً وجهه لأخيه الحسين عليه السلام:

«عليك مني السلام أبا عبد الله»

«الآن انكسر ظهري»

وكان مشهده الأخير مما لم يطق الحسين عليه السلام عليه صبراً. لقد أدركه وهو يجود بنفسه، وضع رأسه في حجره وأخذ يمسح الدم والتراب عنه، ثم بكى بكاء عالياً وقال: (الآن انكسر ظهري، وقلّت حيلتي، وشمت بي عدوي..)[1].

لقد بقي وحيداً الآن بمواجهة أعدائه المتعطشين لدمه.. وها هو أخوه العباس يمضي مع من مضوا من أنصاره وأصحابه، وكان وقع المصيبة عليه شديداً حتى أنه لم يطق حمله ليضع جسده مع أجساد بقية أصحابه.. ولعل ما بالجسد من جروح كثيرة جعل عملية نقله شاقة بل مستحيلة. ولعل رؤية جسد العباس بذلك الشكل المروّع سيثير أحزان وآلام كل من في المخيم من نساء وأطفال، ولعله سيجد بذلك شغلاً له عن القتال، وقد حان دوره الآن بعد أن لم يبق له ناصر ولا معين.

«آثر وأبلى وفدى أخاه بنفسه حتى قطعت يداه..»

وإذ لا نستطيع عندما نصف العباس عليه السلام أن نفيه حقه، فإننا نستمع لوصف الإمام زين العابدين عليه السلام وقد كان شاهداً على كل فصول المعركة وعلى كل ما قام

(١) الخوارزمي ج ٢ ص ٣٠.

به العباس فيها وكان أعرف الناس به. . (ر رحم الله عمي العباس، فلقد آثر وأبلى، وفدى أخاه بنفسه حتى قطعت يداه، فأبدله الله عز وجل بهما جناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنة، كما جعل لجعفر بن أبي طالب، وإن للعباس عند الله منزلة يغبطه بها جميع الشهداء يوم القيامة)[1].

ولنستمع لقول أبي عبدالله الصادق عليه السلام فيه: (كان عمنا العباس بن علي نافذ البصيرة، صلب الإيمان، جاهد مع أبي عبدالله عليه السلام وأبلى بلاء حسناً، ومضى شهيداً)[2].

كان بلاء العباس مع الحسين عليه السلام ملحمة لوحدها جديرة أن يلتفت إليها، لتدرس مواقفه دراسة واعية عميقة، فلوحة الطف لن تكتمل دون رسم تلك المشاهد رسماً دقيقاً.

وأعجب من موقف العباس موقف السيدة أم البنين

وأعجب من موقف العباس، موقف أمه، أم البنين[3]، التي لم يبلغ حزنها على فقد أولادها الأربعة القدر الذي بلغه حزنها على الحسين عليه السلام. لقد كانت تسأل عنه وتتابع أخباره قبل سؤالها عن أولادها الأعزاء.

كان حزنها على أولادها كبيراً ـ بلا شك ـ لا يُحتمل وفوق طاقة امرأة ضعيفة، غير أن حبها وولاءها لإمامها الشهيد وابن زوجها الإمام الشهيد كان أكبر من ذلك الحزن، وربما رأت في استشهادهم معه تسلية كبيرة تريح قلبها الكبير، وكانت هي التي تهدىء نساء بني هاشم المكروبات المحزونات وتسكتهن وتطيّب خواطرهن وكأنها لم تخسر تلك الخسارة الفادحة التي لا تضاهيها خسارة أخرى. . اللهم إلا خسارة الإمام عليه السلام؛ غير أن كل ذلك ما دام بعين الله وفي سبيله، فإن ذلك كان ادعى لرضا واطمئنان وهدوء تلك المرأة المؤمنة العظيمة.

---

(١) الخصال/ للصدوق باب الانين والأمالي م ٧١.

(٢) مقتل الحسين/ محمد تقي بحر العلوم ص ٣١٣.

(٣) لم يرد دليل قطعي على أن أم البنين حيّة في زمن واقعة الطف، وما روي لا يثبت كونها حية في ذلك الحين، وربما قد توفيت قبل ذلك. وللسيد عبد الرزاق المقرم الموسوي ـ حرمه الله ـ تحقيق لطيف حول ترجيح وفاتها أورده في كتابه مقتل الحسين عليه السلام ـ ط ٥ـ ١٣٩٩ - ١٩٧٩ بيروت/ لبنان ص ٣٣٦ - ٣٤٠.

٢ - علي (الأكبر) بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام

فهم وبصيرة ووعي

وأمه ليلى ابنة أبي مرة بن عروة بن مسعود الثقفي. جدها عروة أحد العظيمين اللذين ورد ذكرهما في القرآن الكريم على لسان قريش ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1] وكان ممثل قريش في صلح الحديبية مع الرسول ﷺ، وقد أسلم بعد ذلك في السنة التاسعة من الهجرة، ورجع إلى قومه يدعوهم للإسلام فرموه بالنبل فوقع قتيلًا. . فقال رسول الله ﷺ فيه: «ليس مثله في قومه إلا كصاحب ياسين في قومه»[2].

ولد أبوها (أبو مرَّة) في عهد الرسول ﷺ وله معه صحبة، وله مواقف معروفة لصالح المسلمين.

ورد في بعض الأخبار أنها كانت مع الحسين عليه السلام في مسيره إلى كربلاء، وورد في بعضها أنها توفيت قبل ذلك، والمرجح في أغلبها أنها لم تكن معه في كربلاء.

وإذا ما اطلعنا على بعض مواقفه وجوانب من سيرته، نجد أنه لم يشر إليها إلا بعد مسيره مع أبيه عليه السلام، ولم تكن حياته السابقة مثار اهتمام من كتاب السيرة والتاريخ. وربما كان ذلك يعود إلى اهتمام الدولة بطمس أخبار آل البيت عليهم السلام وأولادهم وذرياتهم، إن لم تعمد إلى تشويهها.

كان المرجح لدى المؤخرين أنه كان أكبر من أخيه علي زين العابدين عليه السلام. وكان عمره عام الطف (عام ٦١) نحواً من سبع وعشرين سنة، إذ كانت ولادته سنة (٣٣) هجرية بينما كان عمر زين العابدين نحواً من ثلاث وعشرين سنة.

كان في ذروة شبابه ونضجه حين سار مع أبيه الحسين عليه السلام من المدينة إلى الكوفة مروراً بمكة، وكان على بصيرة من أمره، واعياً بطبيعة المهمة التي كان يتصدى لها مع أبيه الحسين عليه السلام وآله بيته وأصحابه.

---

(١) الزخرف ٣١ والقريتان هما مكة والطائف والعظيم الثاني هو الوليد بن المغيرة المخزومي الملقب بالوحيد لشرفه وشوكته وثروته.

(٢) ابن حجر ـ الاصابة ٢ - ٤٧٨.

وإذا ما علمنا أنه ولد في فترة حافلة بالأحداث والمتغيرات، وعاش في ظل ورعاية جده أمير المؤمنين عليه السلام وعمه الحسن وأبيه الحسين عليه السلام، وربما كان بحكم نشأته وموقعه شاهداً على العديد من الأحداث المهمة التي وقعت في تلك الفترة، وإذا ما دققنا في مواقفه خلال واقعة الطف وقبيلها، نعلم أن علياً الأكبر لم يكن إنساناً عادياً تجرفه الحياة بهمومها اليومية البسيطة، وإنما كان إنساناً رسالياً على مستوى المهمة التي شارك فيها وكان له دور بارز فيها.

بارّ بأبيه مسارع إلى طاعة ربّه

لم تهز التحذيرات العديدة التي وجهت للإمام الحسين عليه السلام لمنعه من المسير إلى الكوفة، علياً الأكبر، كما لم تهز أياً من أصحابه الآخرين، وقد علموا طبيعة العمل الذي كانوا بصدد القيام به. ولم يهن أو ينكل ويتراجع، بل مضى بكل ما تفرضه عليه واجبات البنوّة البارّة المخلصة ومقتضيات الولاء لإمام الأمة المفروض عليها طاعته واتّباعه.

كان يعلم أنهم على الحق ما دام والده عليه السلام قد علم ذلك وتيقنه. وإذ أنَّ خط الدولة المنحرف كان يبتعد باضطراد عن الخط المحمدي العلوي المستقيم الذي نشأ في ظله أبوه ونشأ هو بعد ذلك عليه. وإذ أنه كان يعيش الأجواء التي تم فيها الانحراف وعاصر الأحداث والمتغيرات العديدة التي مهدت له ورسخته في ظل معاوية، وكان يتمتع بحصانة ووعي يتيحان له الصمود بوجه ذلك الانحراف وعدم الانجراف بتياره، بل ونقده ومحاولة منعه، فإنه كان يدرك الحاجة الماسة لتجاوز الحالة النقدية البحتة التي قد تكون مفيدة وقد لا تصمد طويلًا، إلى حالة فعل مؤثر كبير بل ثورة بوجه النظام، كتلك التي قام بها أبوه وكان هو أول مناصريها وجنودها.

كان يعلم أن تلك الثورة وتلك المسيرة نحو كربلاء سوف تحدثان أثرهما البالغ في الأمة. وأنهما لا بد أن توقظانها من سباتها، وتجعلانها تدرك الخطر الذي يحيق بها ويكاد يقضي على وجودها كأمة إسلامية. كما إنّه كان يعلم أنهم مقبلون على موت أكيد لأن رموز الدولة وأعوانها ما كانوا ليقبلون التنازل بسهولة عن امتيازاتهم وثرواتهم ومراكزهم التي حصلوا عليها بالقوة والخديعة والغدر، وأنهم سيلجأون إلى نفس الأساليب التي لجأ إليها مؤسس الدولة لمقاومة أي نقد أو توجيه أو ثورة من شأنها تقويم الانحراف أو منعه أو استئصاله.

وكانت كل تصرفات الإمام عليه السلام وتوجيهاته وأقواله تدل على أنه كان يعد أصحابه لتقبل مصير القتل، وقد ساروا إليه بشكل طوعي وإرادي بعد أن أدركوا الحاجة إليه لانقاذ الأمة من مصير أشد ايلاماً وأذى.

روى عقبة بن سمعان، وهو مولى للحسين عليه السلام شهد معه الطف وقد نجا من القتل بأعجوبة قال:

عرف أهداف أبيه فنصره على عدوّه: «ألسنا على الحق؟ إذاً لا نبالي، نموت محقّين»

(.. لما ارتحلنا من قصر بني مقاتل، وسرنا ساعةً خفقَ الحسين برأسه خفقة، ثم انتبه وهو يقول: إنّا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين.

ففعل ذلك مرتين أو ثلاثاً. فأقبل إليه ابنة علي بن الحسين على فرس له، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين. يا أبتِ، جعلت فداك، ممَّ حمدتَ الله واسترجعت؟.

قال: يا بنيَّ، إني خفقت برأسي خفقة فعنَّ لي فارس على فرس، فقال: القوم يسيرون والمنايا تسري إليهم، فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا.

قال له: يا أبتِ، لا أراك الله سوءاً، ألسنا على الحق؟.

قال: بلى، والذي إليه مرجع العباد.

قال: يا أبت إذاً لا نبالي، نموت محقّين.

فقال له: جزاك الله من ولدٍ خير ما جزى ولداً عن والده)[1].

لقد كشف هذا الحوار عن تعلق الابن الشديد بوالده، والحب الغامر الذي كان يشعر به تجاهه، كان الحسين عليه السلام محور اهتمامه على الدوام. وكان يترقب كل حركة وكل كلمة تخرج من شفتيه ليكون طوع اشارته وأول مستجيب له. وإذ أنه كان من أعلم الناس بوالده وأكثرهم معرفة به وبموقعه من رسول الله صلى الله عليه وآله ومن المسلمين فإنه كان دائماً، لاخلال مسيرة الطف وحسب، يلازمه ويتتبع سلوكه وسيرته التي هي جزء مكمل لسيرة جده صلى الله عليه وآله نفسه. وكان يعد نفسه ليكون عالماً من علماء الأمة وهو

(١) الطبري ٣/ ٣٠٩.

يرشف من علم والده الذي يفيض في مجالسه في المدينة وغيرها، كما سبق لنا أن ذكرنا عند التحدث عن سيرته عليه السلام.

لم تفت الابن البار حركة والده واسترجاعه وحمده. وإذ أنه كان رفيقاً به حفياً، حريصاً على أمنه وهدوئه وراحته. فإنه لم يفاجئه بالسؤال وإنما استرجع كما استرجع وحمد الله كما حمده والده. وكان ذلك بداية لاقدامه على سؤاله بكل العطف الذي تفيض به نفسه عن سبب استرجاعه وحمده. وقد أعلمه الإمام عليه السلام أنه يشعر أنهم سيموتون في سفرهم هذا.

وهنا، لم يهم علياً الأكبر سوى أمر واحد، وهو أنهم على صواب وأنهم على الحق. كان هذا هو الأمر الوحيد الذي يهمه، أما ما عداه؛ أما آلام الموت والجراحة وما سيلاقيه من متاعب ومشاق، فلم يكن تبدو له أية أهمية في نظره.

ولم يكن بحاجة لمن يطمئنه على صواب ما كان يقوم به مع والده. فالشك لم يعرف طريقاً إليه منذ البداية. ولعل تساءله: ألسنا على الحق. إقرارٌ لأمر واقع وحقيقة مؤكدة، لقد أراد أن يقول: ما دمنا على الحق، إذاً لا نبالي، نموت محقّين، وإذ أن الإمام عليه السلام يؤكد له ذلك فإنما كان يؤكد تلك الحقيقة وكان يثير في ولده شحنة عاطفية كبيرة ليكون انحيازه إلى جانب الإسلام ونصرته تاماً لا نقص فيه.

كانت كلمات ذلك الشاب المكتمل رجولة وشجاعة، وأشبه الناس خَلقاً وخُلُقاً برسول الله صلى الله عليه وآله تثير اعجاب الوالد بشكل واضح. فها هو ابنه أول من يعلن عن استعداده لمواجهة الموت وقد تيقن أنه على حق، وكان يرى أن الخسارة الحقيقية هي التخلي عن الإسلام لا بذل الحياة في سبيله.. ولعلها ستثير اعجاب الأمة كلها حتى أولئك المتخاذلين المستسلمين الذين التحقوا بركب ابن سعد وشاركوا بجريمة القتل النكراء، خصوصاً وإن كلماته قرنت بفعل حقيقي كبير، جرد فيه عليٌّ الأكبر سيفه ليواجه خصوم الإسلام وأعداءه في معركة غير متكافئة من حيث العدد والعدة، وقدم نفسه فيها كأول شهيد من آل الحسين وآل أبي طالب.

فارس مقدام.. حزم مع العدو وعطف ورقة على الأطفال والنساء

وقد كان علي بن الحسين الأكبر فارساً شجاعاً دون شك، ولعل هدوءه وصبره هو الذي جعل أباه يكلفه بمرافقته مع عمه العباس لمقابلة ابن سعد لاقناعه بالعدول عن موقفه المتحيز لابن زياد والمعادي للإسلام، ويكلفه بمهمة الاشراف على شؤون

المخيم وتهدئة النساء والأطفال، فليس من المعقول أن يقوم من لا صبر له على القتال ومواجهة الموت بهذه المهمة الدقيقة في ذلك الظرف الشديد. ولا بد أن مشهد امرىء يخاف الموت ويخشى الأعداء، وهو يحاول تهدئة أناس خائفين مروعين سيعمل على اثارة مخاوفهم أكثر مما سيعمل على تهدئتهم.

وقد ذكر أن أباه الحسين عليه السلام كلفه يوم الثامن من المحرم بجلب الماء إلى المخيم، وأرسله على رأس ثلاثين من أصحابه إلى الفرات[١].

ولا بد أن استعدادات العدو لمواجهة موقف مماثل لذلك الذي وقفه العباس عندما اقتحم النهر بأصحابه قبل يوم، كانت أشد وأتم، وكانت مهمة علي الأكبر في تلك الحال ستكون أصعب. لأن العدو سيكون متأهباً حتى لا يفاجأ فإذا ما جلب الماء، فإنه يكون قد حقق نصراً كبيراً على أعدائه في معركة غير متكافئة، وأثبت جدارة غير عادية في معركة الطف العظيمة.

يطلب الشهادة قبل الجميع:

وإذ أن علياً الأكبر كان يفيض حماساً وغيرة على الإسلام، وإذ أنه كان رسالياً واعياً يدرك أن الإسلام قد انتهك حقاً ويرى أن عودة الأمة إليه لا بد أن تكون عودة واعية تستهدف تخليصه من كل ما ألحقه به حكام الانحراف، وأن تلك العودة لا بد أن تكون سريعة وإلا ضاعت الفرصة للأبد. وإذ أنه كان يعي بشكل واضح هدف والده عليه السلام من المواجهة مع دولة الظلم. تلك المواجهة التي اتخذت طابعاً دموياً لحرص أقطاب تلك الدولة على امتيازاتهم ومصالحهم، ولسنوح الفرصة لهم للنيل ممن كانوا يرونه مصدراً لازعاجهم وقلقهم، معتقدين أنهم إذا ما قتلوه قتلة شنيعة ومثلوا بجثته وجثث أصحابه وآذوا أطفاله وعياله، فإنهم بذلك يقطعون دابر كل معارضة في المستقبل ويتجنبون كل مواقف المواجهة المحتملة، فإن علي بن الحسين، كان كوالده ـ يرى أن دماءهم هي وحدها الكفيلة بلفت نظر الأمة إلى مدى الحظر الذي كانت تتعرض في ظل دولة الظلم والانحراف. وكان لون الدم الأحمر القاني هو وحده الذي سيظل يتراءى أمامها كلما غفت أو استسلمت للانحراف أو هادنته.

(١) مقتل الحسين/ السيد محمد تقي بحر العلوم/ ٣٤٢.

وكان حريصاً على تقديم دمه قبل آل أبي طالب كلهم وعلى أن يموت دون والده ليحتسبه عند الله كما احتسب أصحابه الغيارى ولكي يرد قبله على جدِّه ﷺ، وكانت كل وقفة منه تدل على أنه كان متلهفاً على القتال بل وفرحاً به وبمواجهة الموت طالما أن ذلك سيكون من شأنه نصرة الإسلام ورفع كلمته واعادته إلى مكانته ـ التي فقدها ـ من المسلمين، ولم يحسب أنه كان يقوم بأمر عادي بسيط ينال بمجرد التمني وإنما كان يرى أنه يساهم بأكبر مهمة أتيح للمسلمين أن يشهدوها في تاريخهم وهي العودة الواعية للإسلام المحمدي والتراجع عن (الإسلام) الأموي المغشوش المزيف. وإذ أن ذلك كان يبدو شبه مستحيل في ذلك الوقت. إلا أن الذي يرى الله حقاً لا يراه كذلك، ويرى أن من واجبه في كل الأحوال تحمل مسؤوليته وأداء ما عليه من واجبات، أما النصر وما يتحقق من نتائج لصالح الإسلام فذلك مرهون بالمشيئة الإلهية الحكيمة المدبرة.

لم يكن عليه أن يتساءل عن السر وراء تسلط طواغيت أمية على الأمة، فذلك أمر لم يجر بشكل مفاجىء وإنما جرى التمهيد له عبر مدة طويلة جردت فيها الأمة من مقومات الوعي والصمود. وإنما كان يتساءل عن مسؤولياته في ظل أوضاع كتلك ساد فيه الانحراف وأبعد الإسلام عن حياة الأمة وواقعها، ومسؤولياته كانت تؤكد أن عليه أن يقاوم ويقاتل ويواجه السيف بالدم مهما كانت النتائج، حتى وإن أريق هذا الدم في ساحة المواجهة.

وهكذا عزم علي الأكبر على القتال واستأذن أباه في الخروج إلى الساحة، أي مشهد ادعى للحزن من ذلك المشهد الذي يرى فيه أب ابنه وهو يوشك على مواجهة قتلة مريعة على يد أعداء غادرين متربصين متلهفين على سفك دمه؟

وإذا ما كان هذا الأب هو الحسين عليه السلام، ومن ينبغي للأمة أن تقابل صنيع جده ﷺ وأبيه عليه السلام وصنيعه هو معها إذ يرفض الانحراف ويحاول العودة بها إلى ظلال العهد المحمدي الصافي المبرء من العيوب والأخطاء، بردٍ يساوي ذلك الصنيع والجميل الذي أسدوه للأمة. وإذ لم تكتف بذلك ولم تكتف بمجرد التخلي عنهم، وإنما تنحاز إلى صف أعدائهم ومناوئيهم وتساندهم وتشهر سيوفها دفاعاً عن مصالحهم وامتيازاتهم. ويكون من تشهر سيوفها بوجوههم هذه المرة آل النبي ﷺ أنفسهم، ومن ينبغي عليها برّهم وانتهاج طريقهم واتباع منهجهم، فأية مراراة وأي حزن سيشعر بهما وهو يرى هذه الأمة المتخاذلة المهزومة تتظاهر بالقوة أمامه هو

وتستهدف قتله وقتل بنيه وآله وأصحابه لأنهم أرادوا تخليصها هي من ذلها وعبوديتها وهزيمتها واعادتها أمة سليمة لا تشتكي المرض والانحراف ولا تعاني من الجور ومن الفراعنة الجدد الذين سطوا على مقدارتها ومكاسبها.

هل جزاء الاحسان إلا الاحسان؟

هل هذا هو الجزاء الذي ينبغي أن يقابل به مثل ذلك الصنيع؟

تقتل الأمة قائدها وإمامها الحقيقي وأملها في الخلاص من كل أشكال الانحراف والظلم. لكي تقتل نفسها بعد ذلك، وتوقع ـ بعملها هذا ـ وثيقة استسلامها النهائي لفراعنة الشر؟.

أين ذهبت هذه الأمة عن الإسلام، وهل نسيت رسول الله ﷺ حقاً حتى تقدم على مثل هذه الفعلة النكراء..؟.

كانت آلام الحسين الكبيرة مما لا يمكن تصوره وهو يرى موقفاً لن يتاح للبشرية أن تشهد مثله، كما أنها لم تشهد مثله من قبل. فها هي الأمة التي تهتف باسم جده ﷺ وتقرّ أنه رسول الله حقاً، وتعترف أن عملها غير مقبول ما لم تواله وتدين بطاعته وحبه، ومع ذلك تقدم على قتل ذريته وعترته ولما يكد يغيب عنها بنصف قرن فقط.

هل هي هذه الأمة الإسلامية التي رباها ورعاها رسول الله ﷺ. أم هي بقايا أمة ضعيفة جاهلة محطمة..؟.

ماذا كان الحسين عليه السلام يرى أمامه؟ هل كان يرى أمة لا تدين بالإسلام ترفع السيف بوجهه؟ أو الأمة التي تدعي الانتساب للإسلام والولاء لجده رسول الله ﷺ تفعل ذلك وتقدم بتلك الجرأة الوقحة على انتهاك حرمته وسفك دمه؟.

وما الذنب الذي ادعت أنه اقترفه؟ لم يكن سوى أنّه لم يقر الانحراف ولم يعترف بشرعية يزيد قائداً للدولة الإسلامية خليفة لرسول الله ﷺ.

وماذا أرادت منه؟ طراح كل ما جاء به جدّه ﷺ ونبذ الإسلام، والاستسلام ليزيد والاقرار له بالعبودية.

أليس هذا ما أرادته منه حقاً، وجاءت ترفع السيف بوجهه لتجبره عليه؟.

هل هناك مأساة أكبر من هذه يمكن أن يحزن لها المرء؟

وإذ أنه يجد مقابل موقف الأمّة الضعيف هذا، موقفاً قوياً من أهل بيته وأصحابه موقف اليقين بصواب موقفه وسداده ويصل الأمر بهم إلى حد تقديم أنفسهم قرابين في سبيل الله ولوجهه ولاعزاز دينه ونشر رسالته، فإن آلامه تزداد عندما يرى تناقض الموقفين. موقف الأمَّة ذات الأعداد الغفيرة الواسعة وهي تستسلم ليزيد وتنفذ أوامره وخططه حتى وإن كانت ضد الإسلام، وموقف هذه الأمة المصغرة من أصحابه التي تمثل الإسلام حقاً وتقدم حياتها ودماءها في سبيله.

كيف لم تدرك الملايين الواسعة ما أدركته هذه القلة القليلة؟ وكيف يجرِّد هذا الجيش لاستئصالها والفتك بها وهي تريد انقاذه من العبودية والذلّ؟

آلام الحسين عليه السلام لم يكن جديراً بتحملها سوى الحسين.

وها هو ولده الشاب الذي أدرك وعرف ما لم يدركه ويعرفه الشيوخ يسعى لتقديم نفسه في ساحة المواجهة والقتال قرباناً لله. إنه سيقتل حتماً، وهو يعرف ذلك، حتى وإن استطاع أن يقتل أفراداً من هذا الجيش، ومع ذلك فإنه يتحرق شوقاً لهذه المواجهة، حتى أنه كان يبدو سعيداً بها. فأية غيرة على الإسلام كانت تجيش بقلبه؟ وأي ولاء لرسول الله ﷺ كان يعصف بجوانحه؟.

«اللهم اشهد على هؤلاء، فقد برز إليهم أقرب الناس خلقاً وخُلقاً ومنطقاً برسولك محمد ﷺ..»

وعندما استأذن عليٌّ الأكبر أباه في الخروج إلى الساحة، رفع الحسين عليه السلام بصره إلى السماء وقال: (اللهم اشهد على هؤلاء، فقد برز إليهم أشبهُ الناس خَلقاً وخُلقاً ومنطقاً برسولك محمد ﷺ. وكنا إذا اشتقنا إلى رؤية نبيك نظرنا إليه[1].

اللهم امنعهم بركات الأرض، وفرّقهم تفريقاً، ومزقهم تمزيقاً، واجعلهم طرائق قددا، ولا ترض الولاة عنهم أبداً، فإنهم دعونا لينصرونا، فعدوا علينا يقاتلوننا)[2].

هكذا دعا الله أن يشتت تلك الأمة المستسلمة المهزومة، وأن لا يقر لها قرار في ظل تلك العبودية وذلك الاستسلام، إلى أن تعود ثانية إلى الإسلام وتعيش في ظلاله

(١) اللهوف لابن طاووس ص ٤٧.

(٢) الخوارزمي ج ٢/ ٣٠ والأمين أعيان الشيعة ج ٤ ق ١ ص ٢٣٨.

حقاً، أما إذا بقيت هكذا، فإنها ستقوم هي بقتل نفسها، ولن تكون إلا خيال أمة غابرة، وستكون بضعفها المشين هذا أداة صماء في أيدي الظالمين، يتلاعبون بها وفق مشيئتهم وهواهم.. ومهما حاولت كسب رضاهم، فإنها ستقصر عن ذلك.. لأنهم لا يرونها شيئاً جديراً بالرعاية والاهتمام والرضا.

ثم رفع صوته وتلا قوله تعالى: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾)[1].. وقدّم ولده بعد أن ألبسه بيده لامة حربه وأفرغ عليه درعه ومغفرة.

إلى القتال: «.. والله لا يحكم فينا ابن الدعي..»

وهكذا تقدّم عليٌّ الأكبر بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام للساحة وهو يقول:

أنا علي بن الحسين بن علي ... نحن وبيتِ الله أولى بالنبي
والله لا يحكم فينا ابن الدعي ... أطعنكم بالرمح حتى ينثني
أضربكم بالسيف أحمي عن أبي ... ضرب غلام هاشمي علوي[2]

وقد حمل عدة مرات، ومرَّ يشد على الناس بسيفه وقتل كثيراً منهم[3] رغم عطشه الشديد (حتى رُمي بسهم وقع في حلقه فخرقه، وأقبل يتقلب في دمه، وضربه مرة بن منقذ العبدي بالسيف على مفرق رأسه، ثم طعنه بالرمح في ظهره، وضربه الناس بأسيافهم، فاعتنق فرسه، فاحتمله الفرس إلى معسكر الأعداء، فقطعوه بسيوفهم إرباً إرباً..)[4].

وقد رُوي أن مرّة بن منقذ عندما أبصر علياً الأكبر يشد على الناس بسيفه قال: (.. عليَّ آثام العرب إن مرّ بي يفعل مثل ما كان يفعل إن لم أثكله أباه، فمر يشدّ على

---

(١) آل عمران ٣٣/ ٣٤ ـ راجع مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٣٠.
(٢) الطبري ٣/ ٣٣٠ وابن الأثير ٣/ ٢٩٣ ومقاتل الطالبيين ص ٨٤ والخوارزمي ٢/ ٣٠ ومناقب ابن شهرآشوب ٤/ ١٠٩ مع بعض الاختلاف البسيط.
(٣) روى الخوارزمي في مقتله أن علياً الأكبر قتل ـ على عطشه مائة وعشرين رجلاً ج ٢ ص ٣٠.
(٤) اللهوف ص ٤٨ ومثير الأحزان ٣٥ والأخبار الطوال ٢٥٤ والطبري ٣/ ٣٣١ وابن الأثير ٣/ ٢٩٣.

الناس بسيفه، فاعترضه مرّة بن منقذ فطعنه فصرُع، واحتوله الناس فقطعوه بأسيافهم)[1].

قُتل علي الأكبر وهو يشد على أعدائه ويقاتلهم ويدفعهم عن أبيه، وقد استغل أحد القتلة الأذلاء جرحه فغدر به وطعنه، متطوعاً لتلك المهمة الغادرة دون أن يكلفه بها أحد، أو يطلب منه ذلك.

إنَّ موقف هذا القاتل الغادر يثير دهشتنا حقاً، لقد أراد أن يثكله أباه ويؤذيه بفعلته هذه، وكأن الأمر أمر عداوة شخصية وكأنه أمر خلاف يجوز فيه اللجوء إلى كافة الأساليب المشروعة وغير المشروعة، وكأن قتل امرىء أمر جائز في أي وقت ولأي سبب.

وقد أراد أن يبدو أمام ابن سعد وابن زياد وأمثالهما من الأذلاء الخائفين الخانعين، أنه لا يقل ولاء عنهم ليزيد وحباً لدولته الأموية الخارجة عن الإسلام، كان يريد أن يبدو يزيدياً أكثر من يزيد نفسه وأكثر من أي فرد آخر من آل أمية الراتعين بالملك والسلطان.

لم يطلب أحد منه أن يفعل ذلك، وكان بإمكانه أن لا يقوم بهذه المهمة، فلا يؤاخذه أحد. لكنه لم يكن يأخذ المسألة كلها مأخذ الجد، بل حسب أن تصديه لإمام الأمة الشرعي وأصحابه أمر بسيط ما دام ذلك يرضي سادته الأذلاء الخانعين.

ولعل القاتل، لم يحلم حتى برؤية يزيد أو مقابلته لنيل كلمة عطف وابتسامة منه.

ولعله لم يكن يتمنى أكثر من نظرة رضا من ابن سعد، الذي لم يكن يتمنى أكثر منها من ابن زياد الذي جعل هدفه رضا يزيد عنه، إذ كان غاضباً عليه فيما مضى. كما علمنا.

عند الشهادة: «هذا رسول الله قد سقاني بكأسه الأوفى شربة لا أظمأ بعدها أبدا..»

وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، وجه سلاماً حميماً لأبيه رافعاً صوته بأقصى ما قدر عليه: (يا أبتاه، عليك مني السلام، هذا جدي رسول الله قد سقاني بكأسه الأوفى

(١) الطبري ٣/ ٣٣١.

شربة لا أظمأ بعدها أبداً، وهو يقول لك: العجل، العجل، فإن لك كأساً مذخورة حتى تشربها الساعة.

وشهق شهقة كانت فيها نفسه، وفارقت روحه الدنيا)[1].

كانت روحه متعلقة بأبيه، وكان يعلم أنه في أثره إلى حيث يلقى جده رسول الله ﷺ ليسقيه كأسه المذخورة، هتف به: العجل العجل، فما كان ينبغي له البقاء مع تلك الأمة الضعيفة المستسلمة التي أصبحت أداة صماء بأدي حكامها المنحرفين المعادين للإسلام. وكان على الأمة بعد ذلك أن تثبت جدارتها للانتساب للإسلام ولمحمد ﷺ وعلي والحسين عليهما السلام وأن تكون بمستوى رسالتها ومسؤولياتها، وإلّا فإنها ستظل عاجزة، فاقدة الإرادة، غير قادرة على التخلص من نير الظالمين والعابثين وأعداء الإسلام إلى الأبد.

كان جزاء الحسين عليه السلام من أمته أن تقدم على قتل ابنه وآله وأصحابه وتستهدفه بالأذى والموت بذلك الشكل الوحشي المريع.

حدَّث حُميد بن مسلم الأزدي وكان مقرباً من ابن سعد، وأحد أفراد الجيش المستنفر لحرب الحسين عليه السلام وقتله، قال: (سماع أذني يومئذٍ من الحسين يقول: قتل الله قوماً قتلوك يا بني. ما أجرأهم على الرحمن، وعلى انتهاك حرمة الرسول، على الدنيا بعدك العفاء)[2].

لقد أثار مقتل علي الأكبر موجة من الحزن في معسكر الحسين عليه السلام وكان صداه بين الجميع مؤلماً مفجعاً وخصوصاً بين النساء والأطفال.. أما الشباب والرجال فكان يخفف من أحزانهم علمهم بأنهم لاحقون به على الأثر. وكانوا جميعاً شهداء على هذه الأمة التي جعل منها حكامها أمة سوءٍ وجهل وأداة للشر والعدوان. أما الحسين عليه السلام فكان ألمه لا يطاق من هذه الجرأة التي استهدفته شخصياً، وكان أجدر أن يعامل بنفس الاحترام والتقدير اللذين عومل بهما جده رسول الله ﷺ من قبل.

---

(١) الخوارزمي ٢ - ٣١ ومثير الأحزان ص ٥٣ ومقتل العوالم ص ٩٥ واللهوف ص ٤٨ ومقاتل الطالبيين ص ٨٥.

(٢) الطبري ٣/ ٣٣١ وابن اوثير ٣/ ٢٩٣ والخوارزمي ج ٢ ص ٣١.

وقد تغلّب على آلامه والتفت إلى فتيانه من آل أبي طالب وقال لهم: (احملوا أخاكم، فحملوه من مصرعه حتى وضعوه بين يدي الفسطاط الذي كانوا يقاتلون أمامه)[1].

وكانت جرأة على الله وعلى الرسول ﷺ أن يتصدى لآل الله ورسوله، من قاموا يقتلونهم ويذبحونهم ويحملون رؤوسهم لابن زياد ويزيد فيما بعد، وكأنهم لم يعرفوا الإسلام ولم يلهجوا بذكر الرسول ﷺ. وكأن الإسلام كان كلّاً عليهم وكأنه حمّلهم ما لا يطيقون فأرادوا الانتقام ممن جاءهم به، وما كان أحد يستطيع بلوغ الحدِّ الذي بلغوه في انتقامهم وقسوتهم.

٣ - حبيب بن مظاهر الأسدي

انتظر الحسين عليه السلام ليلتحق به: الشيخ الذي تشوّق للشهادة:

مع أن حبيب بن مظاهر لم يقدم مع الحسين عليه السلام من مكة.. وكان في الكوفة إبان الأحداث التي وقعت فيها. وكان يتوقع قدوم الحسين عليه السلام إليها. فإنه لا بد أن يكون قد أضمر الالتحاق به قبل أن يقدم. وإذ أنه علم بمقتل مسلم وهانيء وانقلاب الكوفة عليهما، فإن اصراره على الالتحاق بالحسين عليه السلام، رغم أن الموقف السياسي والعسكري لم يكونا لصالحه، يجعلنا نصنّفه على أنه من أصحاب الحسين الأوائل خصوصاً وأنه كان قد كتب إليه يدعوه للقدوم إلى الكوفة. فالتحاقه به لم يتم صدفةً وقد جمعهما طريق واحد كما كان الحال مع زهير بن القين، ولم يسمع بخبر وصوله وتجمّع الجيش لاستقباله واعلان الحرب عليه وقتله فقرر الانضمام إليه ومساندته، كما كان حال عبدالله الكلبي.

بل إنّه كان يدري أن الحسين عليه السلام قد سار من مكة إلى الكوفة، فقرر الانضمام إليه حال علمه بانقلاب الموقف لغير صالحه. وأنه بحاجة لمن ينصره ويقف إلى جانبه.

وإذ أنه كان من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وتلامذته ومحبيه، فإن وعيه بأهداف المسيرة الحسينية كان يجعله على يقين من ضرورة تلك المسيرة التي ستنتهي

---

(١) الطبري ٣/ ٣٣١ وابن الأثير ٣/ ٢٩٣ والخوارزمي ٢/ ٣١ والنويري ٢٠/ ٤٥٥.

بمواجهة ساخنة بينه وبين النظام الحاكم. كما أن معرفته بطبيعة الموقف جعلته يدرك أن الموقف العسكري لن يكون لصالح الحسين عليه السلام، وأن من يلتحق به سيواجه خطر الموت لا محالة؛ ورغم ذلك فإنه لم يتردد عن اتخاذ قرار الالتحاق.

داعية للحسين عليه السلام وللإسلام

ومهما يكن، فإننا نلمس حضوراً واضحاً لحبيب قبل يوم عاشوراء بعدة أيام. ولم يشر المؤرخون إشارة واضحة إلى اليوم الذي التحق فيه حبيب بالحسين عليه السلام غير أنهم ذكروا أن ابن سعد حينما قدم كربلاء[1] أرسل مبعوثه قرّة بن قيس الحنظلي ليستفسر من الحسين عليه السلام عن سبب قدومه، بعد فشل مبعوثه الأول كثير بن عبدالله الشعبي لسوء سلوكه وتهوره، وقد كان حبيب يعرفه وله به صلة قربى.

قال حبيب بن مظاهر للحسين عليه السلام عن قرّة: (هذا رجل من حنظلة، تميمي، وهو ابن أختنا، ولقد كنت أعرفه بحسن الرأي، وما كنت أراه يشهد هذا المشهد)[2].

وقد أراد حبيب حثه على التخلي عن موقفه الموالي ليزيد وحكومته والانضمام للحسين عليه السلام. لأنه كان يرى في الانضمام له مكسباً حقيقياً وضماناً لمستقبل آمن يوم الحساب.

وهكذا بدأ يلومه على موقفه ويدعوه للتخلي عنه، وقال له: (ويحك يا قرّة بن قيس، أنّى ترجع إلى القوم الظالمين، أنصر هذا الرجل الذي بآبائه أيدك الله بالكرامة وإيانا معك.

فقال له قرة: ارجع إلى صاحبي بجواب رسالته وأرى رأيي. فانصرف إلى عمر بن سعد)[3].

ولم يعد، إذ لم يجد في نفسه القدرة على تصحيح موقفه، وقد رأى أن الثمن لا بد أن يكون باهظاً ونذر الحرب قد لاحت في الأفق.

---

(١) و(٢) الطبري ٣/ ٣١١ وكان قدوم ابن سعد إلى كربلاء كان بعد قوم الحسين عليه السلام إليها بيوم واحد.. قدم الحسين يوم الخميس في الثاني من المحرم وقدم ابن سعد في اليوم الثالث. الطبري ٣/ ٣١٠.

(٣) الطبري / ٣/ ٣١١.

أما حبيب فبقي مع الحسين عليه السلام وأصحابه، وربما أحزنه مصير قرّة وعجزه عن الالتحاق بالحسين عليه السلام، لأن مخاوفه لا بد أن تكون قد تغلبت عليه، فلم تدعه قادراً على اتخاذ القرار الصحيح الذي كان لا بد أن يتخذه كل ذي إرادة حرة واعية، وربما أحزنه أيضاً تخلف كل جند ابن زياد بل كل أهل الكوفة عن نصرة الحسين والالتحاق بركبه الكريم، وقيامهم بدل ذلك بالالتحاق بعدوه وعدو الإسلام اللَّدود.

أحزنه أن يرى هذه الفئة من الأمة تتصدى بالسيف لمن جاء ينصرها ويقف إلى جانبها وينقذها من الهاوية الأموية المريعة. ومن المؤكد أنه عدّ نفسه موفقاً حقاً، إذ أتيحت له هذه الفرصة العظيمة ليكون في صف الحسين يفديه بنفسه ويموت بين يديه، لينال السعادة الدائمية التي كان موقناً منها طالما أنه بنصرة الحسين، كان ينصر الإسلام.

مواجهة الموت لا تمنع من توجيه النصيحة للعدو

وقد رافق حبيب العباس وزهير بن القين وجماعة آخرين من أصحاب الحسين عليه السلام في مساء اليوم التاسع لمقابلة ابن سعد الذي بدأ هجومه على مخيم الحسين بناء على أوامر مشددة تلقاها من ابن زياد لمحاولة منعه من الهجوم ومعرفة الدوافع التي دعته لذلك دون سابق انذار.

وقد استغل فرصة عودة العباس بجواب ابن سعد للحسين عليه السلام وحث زهير بن القين على تقديم النصائح لابن سعد وأتباعه لكي يردهم عن عزمهم في قتال الحسين عليه السلام ويستميلهم إلى جانبه.

قال لزهير بن القين: (كلم القوم إن شئت، وإن شئت كلمتهم)[1].

وهو عرض مؤدب أراد فيه أن يقدم زهيراً لما علمه من اخلاصه في الذود عن قضية الحسين عليه السلام بعد أن كان يقف موقفاً آخر منه. ولا بد أن كلامه سيكون مؤثراً ونافذاً غير أن زهير ـ وقد عزم على مخاطبة القوم فعلاً ـ قابل عرضه المؤدب بعرض مؤدب آخر وقد أراده أن يكون هو البادئ طالما أنه كان صاحب الاقتراح بذلك، فقال له:

(١) المصدر السابق ٣/ ٣١٥.

(أنت بدأت بهذا، فكن أنت تكلمهم. فقال لهم حبيب بن مظاهر: أما والله لبئس القوم عند الله غداً، قوم يقدمون عليه، قد قتلوا ذرية نبيّه عليه السلام وعترته وأهل بيته ﷺ وعبّاد أهل هذا المصر المجتهدين بالأسحار، والذاكرين الله كثيراً)[1].

كانت خطبة حبيب القصيرة التي قوطعت من قبل أحد أعوان ابن سعد، عزرة بن قيس الذي قال له عند وصوله هذا الحد منها: (إنك لتزكي نفسك ما استطعت)[2] واضحة وصارمة بما فيه الكفاية لتلفت أنظار أولئك المضللين السائرين بركاب الدولة الظالمة والقادمين لقتال الحسين عليه السلام وتجعلهم يتراجعون ويتخلون عن ارتكاب جريمتهم النكراء.

ولعلها كانت تمهيداً لخطبة أخرى مؤثرة، ألقاها بعده زهير بن القين، كما رأينا عند استعراض جانب من سيرة زهير.

ابحث عن المخبرين

وعندما ضيق ابن سعد الحصار على معسكر الحسين عليه السلام وتوالت امدادات ابن زياد له، اقترح حبيب على الإمام أن يذهب لدعوة حيّ من بني قومه (أسد) يسكنون قريباً من كربلاء، لنصرته. وقد أذن له الإمام بذلك، فذهب في الليل متنكراً حتى صار إليهم وفاتحهم بالأمر الذي قدم له، واستجاب له منهم سبعون أو تسعون رجلًا، إلا أن عيناً منهم أوصل خبرهم لابن سعد الذي قام إثر ذلك بتجريد حملة لمنعهم من الالتحاق بالحسين عليه السلام، وقد جرت بين الفريقين مناوشات واقتتال انسحب على أثرها الفريق الذي أراد نصرة الحسين، ورحل عن المنطقة بأسرها خوفاً من ابن سعد، ورجع حبيب إلى الحسين عليه السلام بخبر ذلك بعد أن أخفق مسعاه[3].

ويبدو من مسعى حبيب وذهابه لاستنهاض الأسديين ورجوعه مع جماعة منهم لنصرة الحسين عليه السلام وربما قيامه بالمشاركة بالمناوشات التي جرت بينهم وبين أتباع ابن سعد، أنه كان متلهفاً على قلب ميزان القوى لصالح الحسين، مع أنه كان يدرك أن عدداً بسيطاً كالذي استنهضه لا يمكن أن يغير معادلة القتال. إلا أنه ربما سينجح بلفت نظر الآخرين من أفراد جيش ابن سعد لموقف هؤلاء الملتحقين الجدد. وربما حذا

---

(١) و(٢) الطبري/ المصدر السابق ٣/ ٣١٥.

(٣) الخوارزمي ج ١ ف ١١ وأنساب الأشراف للبلاذري ج ٣ ص ١٨٠ والبحار ٤٤ ص ٣٨٧.

بعضهم حذو هؤلاء والتحقوا بالحسين أيضاً وسجلوا كسباً لقضيته وموقفه؛ وهو ما كان حريصاً عليه إلى حد بعيد.

حبيب يواجه وقاحة شمر: «إني أراك تعبد الله على سبعين حرفاً.. قد طبع الله على قلبك»

لقد أحزن حبيباً عدم استجابة أتباع ابن زياد لدعوته واصرارهم على مقاتلة الحسين عليه السلام أو تسليمه لابن زياد دون قيد أو شرط، وتهيأ مع الحسين عليه السلام وأصحابه لخوض الحرب معهم. وقد جعله الحسين في ميسرة أصحابه عند التعبئة للقتال.

وعندما ألقى الحسين عليه السلام خطبته التي أشار فيها إلى السبب الذي دعاه للقدوم وبيّن فيها مكانته من رسول الله صلى الله عليه وآله، وطلب منهم الاستفسار من بعض الصحابة المعروفين الذين كانوا أحياء عن مقولة قالها رسول الله صلى الله عليه وآله فيه وفي أخيه الحسن عليه السلام: «هذان سيدا شباب أهل الجنة» وتصدى له شمر مقاطعاً.. كان حبيب أول من انتهره على وقاحته ومقاطعته للإمام عليه السلام قائلًا: (والله، إني لأراك تعبد الله على سبعين حرفاً، وأنا أشهد أنك صادق ما تدري ما تقول، قد طبع الله على قلبك)[1].

وقد فتح الباب ثانية لزهير ليلقي فيهم خطبة أخرى ـ ذكرناها عند استعراض سيرته ـ.

وكان حبيب متلهفاً على القتال ولقاء العدو. وقد أراد أن يخرج مع برير بن خضير عندما دعيا للمبارزة من قبل يسار مولى زياد بن أبيه وسالم مولى عبيد الله بن زياد، إلا أن الحسين عليه السلام منعهما وأمرهما بالجلوس وسمح لعبدالله بن عمير الكلبي بالخروج، فخرج وقتلهما.

ومن الطريف إن عبدالله الكلبي عندما خرج للقائهما رفضا مبارزته في البداية، رغم أنهما عبدان لعبيدالله وأبيه زياد، وقد حسبا أنهما من أشراف القوم ـ وطلبا أن يخرج إليهما زهير بن القين أو حبيب بن مظاهر إلا أن الكلبي رد على يسار أحد

(١) الطبري ٣/٣١٩.

العبدين الذي كان هو المتصدي للكلام، بقوله: «يا بن الزانية، وبك رغبة عن مبارزة أحد من الناس، وما يخرج إليك أحد من الناس إلّا وهو خير منك»[1].

تسابق إلى الشهادة.. أوصيك بالحسين أن تموت دونه

وهنا نشهد موقفاً عجيباً منه ومن مسلم بن عوسجة وقد كان يجود بأنفاسه، وما ندري أيهما أعجب، موقف حبيب وهو يواسي صاحبه ويطمئنه إلى المصير السعيد الذي سيصير إليه، أم موقف مسلم الذي أوصاه قبل استشهاده أن يموت دون الحسين عليه السلام.

فعندما صرع مسلم بن عوسجة ومشى إليه الحسين عليه السلام، وكان به رمق.. وقال له (رحمك ربك يا مسلم بن عوسجة ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[2]. دنا منه حبيب بن مظاهر فقال: عزَّ علي مصرعك يا مسلم، أبشر ب الجنة.

فقال له مسلم قولًا ضعيفاً: بشَّرك الله بخير.

فقال له حبيب: لولا أني أعلم أني في أثرك لاحق بك من ساعتي هذه لأحببت أن توصيني بكل ما أهمك حتى أحفظك في كل ذلك بما أنت أهل له في القرابة والدين.

قال: بل أنا أوصيك بهذا رحمك الله، وأهوى بيده إلى الحسين، أن تموت دونه، قال: أفعل وربِّ الكعبة)[3].

وفعل، ووفى بوعده، ومات دون الحسين عليه السلام.

إن في أقوال حبيب معاني عظيمة لا بد أن يلتفت إليها كل دارس لسيرة أنصار الحسين عليه السلام لمعرفة الدوافع الكبيرة وراء وقفتهم الشجاعة خلفه وتقديم أنفسهم قرابين دون الإسلام. فحبيب لا يبدو هنا مشغولًا بنفسه والموت الذي ينتظره بعد لحظات، بل إنَّه بدا به سعيداً وكان يعد نفسه لاستقباله بحفاوة واشتياق. وقد ذهب ليواسي صاحبه ويطمئنه إلى المصير السعيد الذي سيصير إليه ويعلمه أنه لاحقٌ به على الأثر.

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٣٢١.

(٢) الأحزاب: ٢٣.

(٣) الطبري ٣/ ٣٢٤ - ٣٢٥.

وأعجب من قوله، قول صاحبه وهو يجود بنفسه. فقد كان لا يشعر بآلام الجراحة والموت. وكان أشد ما يؤلمه أن يرى إمام الأمة سيتعرض للقتل بيد طغاتها وجهالها وعتاتها. لا لسبب إلا لأنه أراد انقاذها من المصير المحزن الذي ستنتهي إليه على يد الطغمة الأموية الفاسدة.

الشيخ ينازل الفرسان

إن مشهداً آخر يطالعنا في غمار المعركة، وهو المشهد الذي طلب الحسين عليه السلام في بدايته من أصحابه أن يسألوا أصحاب ابن سعد ليكفّوا عنهم حتى يصلوا صلاة الظُّهر، وقد حان وقتها. وقد سألوهم ذلك فعلًا، إلا أن الحصين بن تميم أحد أفراد الجيش المعادي، وممن عرف بمواقفه المتطرفة ضد الحسين وأصحابه أجابهم قائلًا: (إنها لا تقبل. فقال له حبيب بن مظاهر: لا تقبل ـ زعمتَ ـ الصلاة من آل الرسول صلى الله عليه وآله، وتقبل منك يا حمار؟.

فحمل عليهم حصين بن تميم، وخرج إليه حبيب بن مظاهر، فضرب وجه فرسه بالسيف، فشبَّ ووقع عنه، وحمله أصحابه فاستنقذوه. وأخذ حبيب يقول:

أقسم لو كنا لكم أعدادا أو شطركم وليتم أكتادا
يا شر قوم حسبا وآدا

وجعل يقول يومئذٍ:

أنا حبيب وأبي مظاهر فارس هيجاء وحرب تسعر
أنتم أعدّ عدة وأكثر ونحن أوفى منكم وأصبر
ونحن أعلى حجة وأظهر حقاً وأنقى منكم وأعذر[1])

لقد آلمه أن يسمع من حصين بن تميم قوله المتجني، أن الصلاة لا تقبل من آل الرسول صلى الله عليه وآله، وتقبل من أعدائهم. فهل أن الأمر كما قال حصين حقاً؟ هل ستقبل من أولئك القتلة، ولا تقبل ممن ينتصر لله ودينه ورسوله؟.

لم ير حبيب وجه عذر لأولئك الذين أرادوا منعهم الصلاة، وقد حان وقتها، فصال عليهم وتصدى لذلك (المتطوع) السمج الذي تبرع بفتواه متهجماً على الحسين وأصحابه. وقد أوشك حبيب أن يقتله لو لم يستنقذه أصحابه.

---

(١) الطبري ٣/٣٢٦ - ٣٢٧.

وقد أوضحت مواقفه وأقواله عن قناعته المطلقة بصحة مسيرة الحسين. وكان يبدو في كل وقت حريصاً على تلبية ندائه والمضي معه إلى النهاية، وكان يعلم أن النهاية تعني القتل المؤكد، وهو ما لم يكن يهابه، بل رآه نهاية سعيدة.

(وقاتل قتالاً شديداً، فحمل عليه رجل من بني تميم، فضربه بالسيف على رأسه، وكان يقال له بُديل بن صريم من بني عقفان، وحمل عليه آخر من بني تميم فطعنه، فوقع، فذهب ليقوم، فضربه الحصين بن تميم على رأسه بالسيف، فوقع، ونزل إليه التميمي فاحتز رأسه)[1] ليأخذه لابن زياد، وقد حسب أنه سينال أجراً كبيراً منه على جريمته. وحسب بذلك أنه سيضمن منزلة وجاهاً وثروة يسعد بها إلى الأبد.

رغم شيخوخته، كان طوداً شامخاً: «احتسب نفسي وحماة أصحابي»

لقد كان لحبيب شأناً كبيراً، فقد كان فارساً مقداماً لم يتوان عن رمي نفسه بأشد المواقف خطراً، وكان من أشد أصحاب الحسين نصرة له وتفانياً في الذب عنه وعن أهل بيته وأصحابه. فعندما (قتل حبيب بن مظاهر، هدَّ ذلك حسيناً، وقال عند ذلك: أحتسب نفسي وحماة أصحابي)[2].

أما قتلة حبيب، فقد حسبوا أن من حقهم أن يتباهوا بقتله وحزّ رأسه، وقد تنافسوا على (الفوز) به. أيهم يقدمه لابن زياد، فعندما احتز التميمي الرأس أراد حصين أخذه منه بحجة أنه شريكه في قتله، وقال له: (أعطنيه أعلقه في عنق فرسي كيما يرى الناس ويعلموا أني شركت في قتله، ثم خذه أنت بعَدُ فامض به إلى عبيدالله بن زياد، فلا حاجة لي فيما تعطاه على قتلك إياه. فأبى عليه، فأصلح قومه فيما بينهما على هذا، فدفع إليه رأس حبيب بن مظاهر، فجال به في العسكر قد علقه في عنق فرسه، ثم دفعه بعد ذلك إليه.

فلما رجعوا إلى الكوفة، أخذ الآخر رأس حبيب فعلقه في لبان فرسه، ثم أتى إلى ابن زياد في القصر)[3].

حسب حصين أن رضا ابن زياد عنه أهم من المال الذي سيكسبه منه، فربما سيزداد حظوةً لديه، إذا ما علم أنه تفانى في خدمته وقتال عدوه، وربما سيعمد في

(١) المصدر السابق.

(٢) و(٣) المصدر السابق ٣/ ٣٢٧.

تلك الحال إلى تعيينه في وظيفة كبيرة أو منحه مالًا أكثر من ذلك الذي كان سيعطيه إياه فيما لو أخذ الرأس إليه مع التميمي، وإلا فما الدافع له على قتل حبيب والافتخار بقتله. اللهم إلا إذا كان غرضه الانتقام منه لما ألحقه به من إهانةٍ وقد كاد أن يقتله عندما تهجم على الحسين وأصحابه وقال إنَّ الصلاة لا تقبل منهم.

ولم يسلم قاتل حبيب من القتل، ولو بعد حين؛ فقد قتله ابن حبيب، القاسم عندما أصبح شاباً، وقد بصر به وهو يومئذٍ قد راهق، فأقبل معه لا يفارقه عند دخوله قصر ابن زياد وخروجه منه. وقد سأله عن سبب ذلك، فقال له: (إن هذا الرأس الذي معك، رأس أبي، أفتعطينيه حتى أدفنه؟.

قال: يا بني لا يرضى الأمير أن يدفن، وأنا أريد أن يشيبني الأمير على قتله ثواباً حسناً، قال له الغلام: لكن الله لا يثيبك على ذلك إلا أسوأ الثواب. أما والله لقد قتلت خيراً منك)[1].

لم يكن هذا التميمي مثل حصين، ولقد أفصح عن غرضه من قتل حبيب. أن يثيبه الأمير على قتله ثواباً حسناً، يمنحه قدراً من المال جزاء ارتكابه هذه الجريمة، كان لا يرى أمامه رازقاً ومثيباً وقادراً سوى هذا الأمير الذي جعله مثلًا أعلى له، أما الله فلم يكن يراه، حتى كما يراه هذا الغلام الصغير، القاسم بن حبيب، وقد أدرك أن أباه كان على حق، وأنه بالتأكيد خير من قاتله ومن أميره ومن كل أفراد الجيش الخانع الذليل.

وقد نال هذا القاتل جزاءه في هذه الدنيا، كما ناله معظم القتلة الآخرين، إذ أن القاسم ابن حبيب عندما (أدرك لم يكن له همه إلا اتباع أثر قاتل أبيه ليجد منه غرَّة فيقتله بأبيه، فلما كان زمن مصعب بن الزبير، وغزا مصعب باجُميرا، دخل عسكر مصعب، فإذا قاتل أبيه في فسطاطه، فأقبل يختلف في طلبه والتماس عزته، فدخل عليه وهو قائلٌ نصف النهار فضربه بسيفه حتى برد)[2] فخسر بذلك دنياه، أما في الآخرة، فلا أحد يستطيع وصف جزائه وعقابه، وسيكون بلا شك عقاباً كبيراً تأخذه فيه زبانية جهنم أخذاً شديداً، أليس ذلك ما وعد الله به من نصب العداوة لرسوله ﷺ والخلص من أصحابه والمؤمنين به؟.

---

(١) و(٢) المصدر السابق ٣/ ٣٢٧.

٤ - مسلم بن عوسجة الأسدي

الصحابي الجليل

شخصية مسلم بن عوسجة من الشخصيات التي لا تتكرر إلا في القليل النادر، لذلك فهي تثير الانتباه والاعجاب حتى من قبل الأعداء والحاقدين.

ومسلم بن عوسجة عند وقوع مأساة كربلاء كان شيخاً كبير السن، فقد كان ممن شهدوا رسول الله ﷺ وقد روى عنه، ومع ذلك نراه في هذا العمر المتقدم ينشط في الكوفة عند قدوم مسلم بن عقيل إليها ويأخذ البيعة من الناس للحسين عليه السلام.

وقد رأينا مشهداً كان مسلم بن عوسجة يصلي في جامع الكوفة، حينما أدخل عليه (معقل) مولى عبيدالله بن زياد، وقد أرسله عيناً على الثوار يتجسس أخبارهم ويرصد تحركاتهم، وأعطاه مبلغ ثلاثة آلاف درهم يتبرع بها لكي يطمئنوا إليه ويكشفوا له أسرارهم وتحركاتهم.

كان مسلم بن عوسجة الواسطة التي نفذ منها معقل لمسلم بن عقيل وهانىء بن عروة. ولنستمع لرواية هشام التي وردت في تاريخ الطبري وبعض كتب التاريخ والسيرة الأخرى تحدثنا ببعض التفصيل عن هذا الأمر.

مع المخبرين ثانية: الجاسوس الذي خدع مسلم بن عوسجة

عندما أخذت الناس تختلف إلى مسلم بن عقيل في دار هانىء بن عروة، بعد خروجه من دار المختار وقد عُلم به(دعا ابن زياد مولى له يقال له معقل، فقال له: خذ ثلاثة آلاف درهم، ثم اطلب مسلم بن عقيل، واطلب لنا أصحابه، ثم أعطهم هذه الثلاثة آلاف، فقل لهم: استعينوا بها على حرب عدوكم، وأعلمهم أنك منهم، فإنك لو قد أعطيتها إياهم اطمأنوا إليك ووثقوا بك، ولم يكتموك شيئاً من أخبارهم، ثم أغد عليهم ورح، ففعل ذلك، فجاء حتى أتى مسلم بن عوسجة الأسدي من بني سعد بن ثعلبة في المسجد الأعظم وهو يصلي، وسمع الناس يقولون: إن هذا يبايع للحسين.

فجاء، فجلس، حتى فرغ من صلاته ثم قال: يا عبدالله، إني امرؤ من أهل الشام، مولى لذي الكلاع، أنعم الله عليَّ بحب أهل هذاالبيت، وحب من أحبهم، فهذه ثلاثة آلاف درهم، أردت بها لقاء رجل منهم بلغني أنه قدم الكوفة، يبايع لابن

بنت رسول الله ﷺ وكنت أريد لقاءه، فلم أجد أحداً يدلني عليه ولا يعرف مكانه، فإني لجالس آنفاً في المسجد، إذ سمعت نفراً من المسلمين يقولون: هذا رجل له علم بأهل هذا البيت، وإني أتيتك لتقبض هذا المال وتدخلني على صاحبك فأبايعه، وإن شئت أخذت بيعتي له قبل لقائه.

فقال: احمد الله على لقائك إياي، فقد سرني ذلك لتنال ما تحب، ولينصر الله بك أهل بيت نبيّه ﷺ ولقد ساءني معرفتك إياي بهذا الأمر من قبل أن ينمى مخافة هذا الطاغية وسطوته.

فأخذ بيعته قبل أن يبرح، وأخذ عليه المواثيق المغلظة ليناصحه وليكتمن، فأعطاه من ذلك ما رضي به، ثم قال له: اختلف إليَّ أياماً في منزلي، فأنا طالب لك الاذن على صاحبك، فأخذ يختلف مع الناس، فطلب له الاذن.

ثم أن معقلاً مولى ابن زياد الذي دسّه بالمال إلى ابن عقيل وأصحابه، اختلف إلى مسلم بن عوسجة أياماً ليدخله على ابن عقيل، فأقبل به حتى أدخله عليه بعد موت شريك بن الأعور، فأخبره خبره كله، فأخذ ابن عقيل بيعته، وأمر أبا ثمامة الصائدي، فقبض ماله الذي جاء به، وهو الذي كان يقبض أموالهم، وما يعين به بعضهم بعضاً، يشتري لهم السلاح وكان به بصيراً، وكان من فرسان العرب ووجوه الشيعة، وأقبل ذلك الرجل يختلف إليهم، فهو أول داخل وآخر خارج، يسمع أخبارهم، ويعلم أسرارهم، ثم ينطلق بها حتى يقرّها في أذن ابن زياد)[1].

موقف بطولي قبل الطف

لقد نجح معقل مولى ابن زياد بكشف أسرار الثوار واخبارهم، وواجه هانيء بها أمام مولاه في قصر الامارة، مما دعا ابن زياد لالقاء القبض على هانيء الأمر الذي اضطر مسلماً لاعلان ثورته قبل الأوان وقبل أن يستكمل استعداداته وتجهيزاته، وقد أدى ذلك بالتالي إلى فشلها ومقتل مسلم وهانيء قبل وصول الإمام الحسين ﵇، وقد تحدثنا بالتفصيل عن أسباب ذلك.

---

(١) الطبري ٣/ ٢٨٣ - ٢٨٤ - ٢٨٦ والخوارزمي ج ١ ص ٢٠١ - ٢٠٢ وابن الأثير ٣/ ٢٦٩ والمجلسي م ١٠ ج ٤٤ ص ٣٤٢ والمفيد ص ١٩٠ ومقاتل الطالبيين ص ٧١ ومناقب ابن شهرآشوب ٤/ ٩١ وروضة الواعظين ص ١٧٤ ونور العين للاسفراييني ص ١٦ ونهاية الارب للنويري ج ٢٠ ص ٣٩٣ مع اختلافات بسيطة في النصوص.

عند احتجاز هانىء في القصر استنفر مسلم بن عقيل قواته التي كانت قد بايعته سراً، نتيجة الهياج الشعبي وصراخ نسوة مراد، وقد عقد لمسلم بن عوسجة على رُبع مذحج وأسد وقال: انزل في الرجالة، فأنت عليهم[1]، وقبل أن تتاح الفرصة للمنازلة وأصحاب مسلم ملتفون حوله والثورة الشعبية لا تزال تغلي، استطاع أعوان ابن زياد من أشراف الكوفة تخذيل الناس عن القتال وتجشيعهم على التخلي عن مسلم مستخدمين كافة أساليب الترهيب والتخويف، وبقي مسلم وحيداً بعد أن تفرق أصحابه وسجن بعضهم وقتل البعض الآخر منهم.

ولم نعلم بأمر مسلم بن عوسجة حتى التقيناه ثانية بين أصحاب الحسين عليه السلام وقد سار الى معسكره بعياله مواسياً له بنفسه وأهله، ولعله قد احتجز في تلك الفترة أو اختفى عن أعين السلطات ريثما تتاح له فرصة الالتحاق بالحسين عليه السلام ونصرته.

ولا بد أن نرى ـ من مواقفه ـ أنه كان ينوي الالتحاق بالحسين عليه السلام وقد علم حاجته للرجال والأنصار بعد فشل ثورة مسلم، ونستطيع أن نعتبره استناداً لذلك من أصحابه الأوائل الذين أضمروا نصرته، فتحدثنا عنه ضمن حديثنا عن الأصحاب الأوائل الذين رافقوا الحسين من مكة إلى كربلاء.

مع الحسين حتى الشهادة «أنحن نخلّي عنك..؟!»

ونرى مسلم بن عوسجة قبل عاشوراء بليلة واحدة وهو يستمع للحسين عليه السلام وقد جمع أصحابه وأهل بيته في تلك الليلة التي تجمعت فيها نذر الحرب، يعلن أن الجميع في حل من مغادرته ويطلب منهم إذا ما اتخذوا القرار بذلك أن يستغلوا سواد الليل حفاظاً على أرواحهم، وقال لهم: (هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملًا، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، ثم تفرقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله، فإن القوم إنما يطلبوني، ولو قد أصابوني لهوا عن طلب غيري)[2].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الطبري ٣/ ٣١٥ واللهوف ٣٨ وروضة الواعظين ١٨٣ وابن الأثير ٣/ ٢٨٥ والخوارزمي ١ ف ١١ والمفيد ٢١٠ وأمالي الصدوق م ٣٠ وجمهرة خطب العرب ٢ - ٤١ والبحار ٤٤- ٤٩٢ والبلاذري ٣/ ١٨٥ والنويري ٢٠/ ٤٣٥.

وقد رفض أصحاب الحسين ذلك رفضاً قاطعاً وأبوا إلا البقاء معه والاستشهاد بين يديه، وكان مسلم بن عوسجة، الشيخ الكبير، أول من أجابه من أصحابه، فقال: (أنحن نخلّي عنك ولما نعذر إلى الله في أداء حقك؟ أما والله حتى أكسر في صدورهم رمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي ولا أفارقك، ولو لم يكن معي سلاح، أقاتلهم لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك)[1].

كان مسلم حذراً في جوابه هنا رغم معرفته بأصحاب الحسين، فلقد مرَّ بتجربة سابقة رأى فيها كيف أن أصحاب مسلم بن عقيل قد تفرقوا عنه رغم الحماس الذي أبدوه قبيل ساعات من تفرقهم عنه، ولعله كان يتوقع موقفاً مماثلًا من بعض من كان معه من أصحاب الحسين عليه السلام. وكان جوابه ـ وفي القسم الأول منه ـ يحمل الجميع مسؤولية الدفاع عن الحسين والوقوف إلى جانبه، ويؤكد في القسم الأخير على موقفه هو شخصياً وما سوف يقوم به دفاعاً عنه، فهو واثق ومتأكد من موقفه هذا. وهكذا تحدث عن نفسه بذلك الوضوح العجيب الذي لمسناه في اجابته.

لم يكن مسلم بن عوسجة يجد سبباً لترك الإمام ليضطلع وحده بهذه المهمة الدقيقة الصعبة دون أن يشاركه فيها، لقد فهم هذه المهمة وأدرك أبعادها ومراميها الحقيقية، ورأى أن على كل فرد من أبناء هذه الأمة دوراً ينبغي أن يلعبه فيها، أما كيف يحجم أحد عن ذلك، فهذا ما لم يستطع مسلم أن يفهمه، كيف سيكون موقفها أمام الله إن هي تخلت عنه وتخلت عن إمامها الشرعي الحقيقي.

لقد وجد في يده سيفاً فكيف لا يحارب به..؟ وهبه لم يجد ذلك السيف، إلا تكفي الحجارة في تلك الحال ولو إلى حين إلى أن يموت مع إمامه؟ ليكون سعيداً بعد ذلك وقد أدى واجبه بجدارة..؟ وهل الموت وحده، هو الذي يقف عائقاً دون نصرته..؟ وهل الموت مخيف لتلك الدرجة التي يخشى فيها الإنسان مواجهة ربه مع أنه إلى صفه وفي جانبه..؟ أيخشى المؤمن الموت حقاً..؟ هذا ما لم يفكر به مسلم وهو يجيب تلك الاجابة الحازمة القاطعة، وهذا ما لم يفكر به أصحاب الحسين كلهم وقد وقفوا وقفة جديرة بهم، وأثبتوا أنهم أنصار الإسلام حقاً.

---

(١) المصدر السابق.

كاد أن يقتل شمراً لولا أن منعه الحسين عليه السلام

كان مسلم بن عوسجة يتحرق شوقاً ـ في كل مرحلة من مراحل مسيرته مع الحسين عليه السلام قبل بدء المعركة وبعدها ـ لمنازلة عدوه.

رُوي عن الضحاك المشرقي[1]، قال: (لما أقبلوا نحونا فنظروا إلى النار تضطرم في الحطب والقصب الذي كنا ألهبنا فيه النار فيه من ورائنا لئلا يأتونا من خلفنا، إذ أقبل إلينا منهم رجل يركض على فرس كامل الأداة، فلم يكلمنا حتى مرَّ على أبياتنا، فنظر إلى أبياتنا، فإذا هو لا يرى إلا حطبا تلتهب النار فيه، فرجع راجعاً، فنادى بأعلى صوته: يا حسين، استعجلت النار في الدنيا، قبل يوم القيامة، فقال الحسين: من هذا؟ كأن شمر بن ذي الجوشن؟.

فقالوا: نعم، أصلحك الله، هو هو.

فقال: يا بن راعية المعزى، أنت أولى بها صِلّيا.

فقال له مسلم بن عوسجة: يا بن رسول الله، جعلت فداك، ألا أرميه بسهم، فأنه قد أمكنني، وليس يسقط مني سهم، فالفاسق من أعظم الجبارين فقال له الحسين: لا ترمه، فإني أكره أن أبدأهم)[2].

كان مسلم بن عوسجة يعرف شمر بن ذي الجوشن لأنه كان من أهل الكوفة، وقد عاش الأحداث التي مرت بها عند قدوم مسلم بن عقيل وشارك فيها، بل كان له دور رئيسي فيها، ولا شك أنه في فترة اختفائه بعد فشل ثورة مسلم قد تابع تطورات الأحداث واطلع على دور شمر التحريضي على الحسين عليه السلام والمتحيز لابن زياد، وقد وجد أنها فرصة سانحة عندما أتيحت له وكان يستطيع قتله أو اصابته، فطلب من الحسين عليه السلام أن يرميه، إلا أن الحسين عليه السلام رفض بذلك.

كان يعلم أن الباغي مصروع، وإن حسب أنه منتصر، وأنه مغلوب، وأن نتيجة بغيه ستكون وبالًا عليه، وكان يريد أن يواجه الجيش المعتدي بسبب مجيئه إلى الكوفة، ويوضع لأفراده مسؤولياتهم في ظل تلك الأوضاع الحرجة التي كانت تمر

---

(١) وهو ممن التحق بالحسين عليه السلام وأعطاه عهداً أن يقاتل بين يديه ما كان قتاله معه نافعاً، فإذا لم يجد مقاتلًا معه كان في حل من الانصراف. . الطبري ٣/ ٣٢٩/ ٣٣٠.

(٢) الطبري ٣/ ٣١٩.

بها الأمة، ويريدهم أن يتخلوا عن مواقفهم المساندة لنظام البغي الأموي وينحازوا للإسلام ويعودوا إليه ثانية.

وإذا ما ضُرب شمر أو قتل فلعل الدعاية الأموية ستصور المسألة وكأنها اعتداء سافر من الحسين عليه السلام وستستغل مقتل شمر أو اصابته لكي تقول بعد ذلك أنها لم تقصد قتل الحسين عليه السلام وأصحابه وأنها كانت تريد توفير حياتهم لو لم يقوموا هم (بالعدوان) وليس أدل على ذلك من قتلهم شمر قبل بدء المعركة التي سيدعون أنهم لم يكونوا يريدونها أصلًا.

ثم: من يكن شمر، سواء قتل أو بقي حياً، فهو ليس سوى مسمار صغير في عجلة الدولة الكبيرة، أنه لا يستحق أن يشكل قضية لوحدها فيما لو قتل، إن الدولة ستسغل قتله، وستتمادى في عدوانها وتجاوزاتها على الأمة بحجة القضاء على المعارضة المتمثلة بموالي ومحبي آل البيت والسائرين على خطهم.

أما مسلم بن عوسجة، فكان يرى الجانب القائم من المسألة، يرى حرباً أوشكت أن تدور رحاها. ويرى أحد أعوان السلطة الظالمة وهو يعتدي ويتجاوز بلسانه السليط على إمام الأمة، وإذا ما كان مصيرهم القتل، وقد علم ذلك وتأكد منه، فلماذا لا يزيح أمثال هذا الطاغية من أمامه، قبل أن تتاح له فرصة مشاهدتهم قتلى بعد ذلك.

كان الحماس الذي يعصف بقلب مسلم يزيح كل خوف محتمل من الموت والقتل، وإن كان قتلًا مريعاً.

مسلم بن عوسجة: مبارز لا يغلب

كانت المبارزة مع أصحاب الحسين عليه السلام تعني خسارة مؤكدة للجيش المعتدي، قد تميل ـ نتيجتها ـ الكفة لصالحهم، ولذلك فإن عمرو بن الحجاج ـ وقد أدرك طبيعة الموقف ـ قام بتحريض أصحابه قائلًا: (يا حمقى، أتدرون من تقاتلون؟ فرسان المصير، قوماً مستميتين، لا يبرزنّ لهم منكم أحد، فإنهم قليل، وقلما يبقون، والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم)[1]. وقد أيَّد وجهة نظره هذه عمر بن

(١) الطبري ٣/ ٣٢٤.

سعد وقال له: (صدقت، الرأي ما رأيت، وأرسل إلى الناس يعزم عليهم إلّا يبارز رجلٌ منكم رجلًا منهم)[1].

وإذ أن ابن سعد استجاب لرأي ابن الحجاج، فإن هذا لم يكتف باقتراحه، وقد رأى أنهم لم يستطيعوا تحقيق غلبة واضحة حتى تلك الساعة، فقام يحرض الناس على الحسين عليه السلام وأصحابه ويدعوهم للتماسك والثبات. وقد توجه بندائه إليهم قائلًا: (يا أهل الكوفة، الزموا طاعتكم وجماعتكم، ولا ترتابوا في قتل مَن مَرق من الدين وخالف الإمام)[2].

وقد أجابه الحسين عليه السلام قائلًا: (يا عمرو بن الحجاج، أعليَّ تحرض الناس؟ أنحن مرقنا وأنتم ثبتم عليه؟ أما والله لتعلمنَّ لو قد قبضت أرواحكم، ومتّم على أعمالكم، أينا مرق من الدين، ومن هو أولى بِصلّي النار)[3].

غير أن هذا الخانع الذليل، صم أذنيه عن كلمات الحسين عليه السلام، وآثر تنفيذ أوامر أسياده، وبدلًا من أن يستجيب لها (حمل على الحسين في ميمنةَ عمر بن سعد من نحو الفرات فاضطربوا ساعة فصرع مسلم بن عوسجة الأسدي أول أصحاب الحسين، وكان الذي قتل مسلم بن عوسجة، مسلم بن عبدالله الضبّابي وعبد الرحمن بن أبي خشكاره البجلي)[4].

ولا بد أن مسلم بن عوسجة اندفع في مقدمة المدافعين عن الحسين عليه السلام فكان أول شهيد من أصحابه.

صورة وضّاءة عند الشهادة

ومن اللوحة الكئيبة التي يظللها الموت، تبرز صورة وضاءة لمسلم، وقد سار إلى الحسين عليه السلام. (فإذا به رمق، فقال: رحمك ربك يا مسلم بن عوسجة، ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾[5]..)[6].

كان إلقاء الإمام لتلك الآية الكريمة في تلك اللحظة، والعدو قد استنفر كل قوته

(١) - (٤) الطبري ٣/ ٣٢٤.
(٥) الأحزاب: ٢٣.
(٦) الطبري ٣/ ٣٢٤.

لمواجهتهم توحي بأن مسلم بن عوسجة سيكون في مقدمة موكب الشهداء وأن الباقين سيكونون في الأثر.

لم يقل له إنك ستظل حياً تعيش بيننا، فلم يكن الموت يخيفه، وإنما الذي يخيفه أنه لن يكون قادراً على مواصفة المسير مع الحسين عليه السلام، وكان أشد ما يسره هو أن يواجه المستقبل السعيد مع رسول الله صلى الله عليه وآله في الجنة، وكانت كلمة الإمام بلسماً شافياً لجراحاته وآلامه.

ويفد عليه أصحابه، يبشرونه بالجنة وبالفوز العظيم، وكان في مقدمتهم حبيب بن مظاهر الأسدي قريبه في النسب وأخوه في الدين، وقد دار بينهما حوار جميل جدير بالتأمل، إذ كان يجري في ظرف دقيق جداً، وكان العدو يستعد لانزال ضرباته الموجعة بالجميع.

قال حبيب بن مظاهر: (عزَّ عليَّ مصرعك يا مسلم، أبشر بالجنة، فقال له مسلم قولًا ضعيفاً: بشَّرَكَ الله بخير.

فقال له حبيب: لولا أني أعلم أني في أثرك، لاحق بك من ساعتي هذه لأحببت أن توصيني بكل ما أهمك، حتى أحفظك في كل ذلك بما أنت أهل له في القرابة والدين.

قال: بل أنا أوصيك بهذا رحمك الله ـ وأهوى بيده إلى الحسين ـ أن تموت دونه. قال: أفعل ورب الكعبة.. فما كان بأسرع من أن مات في أيديهم)[1] وكانت وصيته الأخيرة أن يموتوا دون الحسين.

ولا ندري من أيهما نعجب، أمن حبيب الذي يعلم أنه ملاق ربه بعد قليل بموت عاجل، تخترمه سيوف أعدائه ورماحهم ونبالهم، فلا يبالي بذلك، ويكون جلّ همه تطيب خاطر أخيه وقريبه وتبشيره بالجنة التي وعد بها المؤمنون الصادقون، أم من مسلم الذي يموت ولا تهمه الام الجراحة والاحتضار، بل وصية هذا القريب المواسي بأن يستشهد دون إمامه وقائده، ولا يهتم بكل ما عدا ذلك.

أنه يتلهف إلى أن تتطلع الأمة إلى كربلاء، وترى الدم المسفوح في سبيل الإسلام، وكان يعلم أن المهمة الكبيرة لاعادة الأمة إلى الإسلام وتخليصها من

(١) الطبري/ ٣/ ٣٢٥.

الانحراف الأموي ومن كل انحراف مقبل لن يتم دون اراقة الدماء الزكية في كربلاء واستشهاد الكوكبة التي ضمها موكب الحسين عليه السلام، فلم ير مسلم بن عوسجة غير هذا الدين جديراً بأن يضحوا من أجله جميعاً تلك التضحية الغالية العزيزة، ففيه وحده رأوا حريتهم وسعادتهم وأمنهم ومستقبلهم.

ولأجله حرصوا على تقديم ما عجز عنه الكثيرون، الأرواح النقية، دون من رأوا أنه الجدير وحده بتخليص الأمة من متاعبها وآلامها وانحرافها المقصود المدبر، سليل الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وابنه وخليفته فهو وحده الذي كان جديراً أن يتسلم الأمانة ويحافظ على التجربة من الضياع والانحراف.

عدوّه يشهد له بالفضل.. شبث بن ربعي يشيد بمسلم بن عوسجة

وقد شهد لمسلم عدوّه الحالي ورفيق الأمس، شبث بن ربعي، الذي قدم وعوده وكتب رسالته، بأن ينصر الحسين عليه السلام وكان يرجوه أن يقدم على جند له مجندة، ويعد أن يكون في مقدمة هؤلاء الجند، وقد تخاذل وتراجع إلى صفوف أعدائه، إذ لم يجد في نفسه الجرأة على مواجهتهم رغم أنه كان يعرف الموقف جيداً ويعرف من هو المبطل ومن هو المصيب، وكان في قرارة نفسه يكره مواجهة الحسين عليه السلام وحربه والاقدام على قتله وقتل أصحابه، فعندما (تنادى أصحاب عمرو بن الحجاج: قتلنا مسلم بن عوسجة الأسدي، قال شبث لبعض من حوله من أصحابه: ثكلتكم أمهاتكم، إنما تقتلون أنفسكم بأيديكم، وتذللون أنفسكم لغيركم، تفرحون أن يقتل مسلم بن عوسجة؟.

أما والذي أسلمت له لربّ موقف له قد رأيته في المسلمين كريم. لقد رأيته يوم سَلَقِ أذربيجان قتل ستةً من المشركين قبل تتامِّ خيول المسلمين. أفيقتل منكم مثله وتفرحون)[1].

لم يستطع شبث، ذلك المحارب القديم تحت لواء أمير المؤمنين عليه السلام في صفين، والذي انحاز إلى جانب الأمويين بعد استتباب الأمور لهم، أن يتحمل فرحة القوم بمقتل مسلم، رغم أنه عدوه الآن، وكان يعترف أنهم بعملهم هذا إنما يقتلون أنفسهم بأيديهم ويجعلونها مرهونة بتصرف وإرادة رموز التسلط والشرك الأموية،

(١) المصدر السابق ٣/ ٣٢٥.

وكان يستحضر مشهداً فريداً رآه من مسلم قبل اليوم في معركة جرت بين المسلمين وأعدائهم، كان مسلم فيه ليتحرق شوقاً للدفاع عن الإسلام، ويقدم على حرب عدوه ومهاجمته قبل أن تتم الاستعدادات للمعركة، وقد قتل ستة من أفراد ذلك العدو.

وها هو مسلم يضيف موقفاً جديداً عظيماً إلى مواقفه السابقة العظيمة، يليق به كجندي مدافع عن الإسلام ونصير مقرب من الإمام عليه السلام يحمل قضيته وهمه ويكون أول من يستشهد بين يديه، فلطالما كان قد سعى للشهادة ورغب فيها، وها هي رغبته تتحقق بأقدس معركة يخوضها الإسلام ضد الشرك والانحراف.

٥ - برير بن خضير[١].. سيّد القرّاء

كان المشهد الأول الذي رأينا فيه برير، في تلك الأمسية التي سبقت القتال، وكان الحسين عليه السلام وأصحابه يتوجهون فيها بالصلاة والدعاء إلى الله أن ينقذ هذه الأمة من طغاتها وجهّالها والمتسلطين عليها ظلماً وقهراً.. (قاموا الليل كله يصلون ويستغفرون، ويدعون ويتضرعون. وأن حسيناً ليقرأ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾[٢].

كان مخيم الحسين تحت حراسة العدو المشدّدة ومراقبته الشديدة، وقد سمع أحد أولئك المكلفين بالحراسة ما كان الحسين عليه السلام يقرأ من الذكر الحكيم، فعقبَّ عليها بكلمات ماجنة عابثة، قال: (نحن، ورب الكعبة الطيبون، مُيِّزنا منكم)[٣].

وإذ أن أصحاب الحسين عليه السلام تساءلوا: من عسى أن يكون هذا العابث الذي بلغت به الجرأة أن يستهزىء بالإمام الحسين عليه السلام نفسه، فإن أحدهم قد عرفه، وعرّف به برير قائلًا له: (هذا أبو حرب السبيعي، عبدالله بن شهر)[٤]، وكان ابن شهر هذا من الطبقة الطفيلية الجديدة (مضحاكاً بطالًا، وكان شريفاً شجاعاً فاتكاً، وكان سعيد بن قيس ربما حبسه في جناية)[٥]، وكان أفراد هذه الطبقة من (الأشراف) ممن

---

(١) ورد اسمه في بعض المصادر (برير بن حفير) (برير بن الحصين) والأشهر الاسم الذي أوردناه.

(٢) آل عمران: ١٧٨، ١٧٩.

(٣) - (٥) الطبري ٣/٣١٧.

تجردوا من كل قيم حقيقية وأعلنوا انتمائهم لدولة الظلم، قد أخذوا يتكاثرون وينتشرون.

وكان برده على الحسين عليه السلام يمثل دور المهرج أمام أصحابه ويهمه أن يثير ضحكهم وسخريتهم حتى ولو تعرض هو للاهانة شخصياً، لقد فقد الاحساس بالكرامة شأن من يدمن العبث والبطالة وكان مستعداً لسماع أي كلام حتى ولو كان جارحاً ولا يبدي أي تأثر له حتى لا يفقد صفة المهرج التي أراد أن يشتهر بها ويعرف بين الناس، وإلا فأي شأن لسكير بطال بالطيبين الذين أشار إليهم القرآن الكريم، يكفيه من حياته خمره ولهوه وعبثه.

لقد آثار تعليقه على آيات الله وهزؤه بها غضب برير، فالتفت إليه قائلًا: (يا فاسق، أنت يجعلك الله في الطيبين؟.

فقال له: من أنت؟.

قال: أنا برير بن خضير.

قال: إنا لله ، عزَّ عليَّ، هلكت والله، هلكت والله يا برير)[1].

لم ينزع ابن شهر من تقريع برير له بعد أن عرفه، ولا بد أنه كان يعرف منزلته وموقعه في قومه، غير أنه أسف له، وقد رأى أنه سيقتل بعد ساعات، في صبيحة تلك الليلة التي كانا يتحاوران فيها، وقد أعرب عن أسفه ذاك صراحة أمامه، ولعله كان صادقاً في أسفه في تلك اللحظة.

ورأى برير في ذلك فرصة سانحة ليعرض على هذا الرجل أن يتوب ويلتحق بموكب الحسين عليه السلام وأصحابه وأن يتخلى عن ابن زياد، فبصيرة الإسلام جعلته يرى ما لم يره هذا الرجل وما لم يره كل السائرين بركاب الظالم، فليعرض الأمر عليه، طالما أن شعوراً نبيلًا قد دعاه للاعراب عن أسفه لمصرعه، ولعله أن يكون قد ملَّ من دنيا الباطل والظلم وشبع من ملذاته وسئم منها، قال له برير: (هل لك أن تتوب إلى الله من ذنوبك العظام، فوالله إنّا لنحن الطيبّون، ولكنكم لأنتم الخبيثون.

قال: وأنا على ذلك من الشاهدين)[2].

---

(١) و(٢) الطبري ٣/ ٣١٧.

وما دام الأمر كذلك، وأبو سبيع يعلم أنه كان كذلك، وأنهم لهمُ الخبيثون، فقد أصبحت الحجة قوية، فيلقها برير بوجه هذا العابث اللاهي، الذي قد تلوح منه بارقة أمل، وقد يهتدي في نهاية المطاف.

قال راوي هذه القصة، الضحاك بن عبدالله المشرقي، الذي كان مع الحسين عليه السلام، وأتيحت له فرصة النجاة في آخر لحظة وبعد استشهاد كل أصحاب الحسين عليه السلام، قلت لأبي سبيع: (ويحك، أفلا ينفعك معرفتك؟ قال: جعلت فداك، فمن ينادم يزيد بن عذرة العنزي، ها هو ذا معي، قلت: قبح الله رأيك على كل حال، أنت سفيه.. ثم انصرف عنا)[1].

بتلك الروح العابثة اللاهية المجردة من الشعور بالمسؤولية، كان يقدم الكثيرون من أصحاب ابن زياد على ارتكاب جريمتهم النكراء، فهل كان ابن شهر وأشباهه يحاربون من أجل الدفاع عن الإسلام ووحدة المسلمين، ومنعاً للفتن والفرقة، كان سلوكهم الشخصي يشير إلى أنهم كانوا أبعد ما يكونون عن ذلك، وكانوا معروفين بفسقهم وفسادهم، مجاهرين به.

وكان أولى بمن يريد الدفاع عن الإسلام ووحدة المسلمين أن يصلح هؤلاء، وأن يشن حرباً على ممارساتهم البعيدة عن الإسلام، غير أن مَن نصب نفسه خليفة على المسلمين، كان عابثاً مبتذلًا، وأنى له أن يصلح هؤلاء وهو لا يستطيع اصلاح نفسه، بل رأى أن الطريق الذي كان سائراً فيه هي الطريق الأمثل والأصح.

موقفان: في بدر.. والطف.. عمير.. وبرير هيّا إلى الجنّة

وقد برز برير بن خضير في موقف رائع لا يمكن أن ينسى، وهو يذكرنا بموقف مماثل رائع لمقاتل بدري شهد معركة بدر واستشهد بين يدي الرسول صلى الله عليه وآله.

فقبيل وقوع المعركة بقليل، (أمر الحسين عليه السلام بفسطاط فضرب له، ثم أمَرَ بمسك، فميث في جفنه عظيمة أو صحفه، ثم دخل الحسين ذلك الفسطاط فتطلى بالنورة.. وعبد الرحمن بن عبد ربه وبرير بن خضير الهمداني على باب الفسطاط تحتك مناكبهما، فازدحما أيهما يطلّي على أثره، فجعل برير يهازل عبد الرحمن، فقال له عبد الرحمن: دعنا، فوالله ما هذه بساعة باطل.

(١) المصدر السابق.

فقال له برير: والله لقد علم قومي أني ما أحببت الباطل شاباً ولا كهلًا، ولكن والله، إني لمستبشر بما نحن لاقون، والله إن بيننا وبين الحور العين إلا أن يميل هؤلاء علينا بأسيافهم، ولوددت أنهم قد مالوا علينا بأسيافهم)[1].

كل ذلك فرحاً بالموت، واستبشاراً بما هم ملاقوه بعده، أية قوة هذه التي جاشت بين جنبي برير حتى جعلته متيقناً من صدق موقفه وسلامته، ومتيقناً من مصيره السعيد في جنة الخلد؟.

كانت فرحته بالموت شبيهة بفرحة الصحابي البدري الشهيد عمير بن الحمام، أخي بني سلمة، وكان في يده تمرات يأكلهن، وكان يقاتل بين يدي الرسول ﷺ وقد استمع إلى كلامه ﷺ («والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابراً محتسباً، مقبلًا غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة».

فقال عمير: بَخٍ بَخٍ، فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه، فقاتل القوم، حتى قتل، وهو يقول:

ركضاً إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والبر والرشاد[2]

للهِ در برير، ولله در عمير، فكأنما كانا يرددان كلاماً واحداً أُلقي في قلبيهما:

فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء.

إن بيننا وبين الحور العين إلا أن يميل هؤلاء علينا بأسيافهم.

كانا مسرورين بذلك اللقاء، وكانا واثقين من مستقبلهما السعيد في الجنة، إذ كان أولهما يقاتل تحت لواء رسول الله ﷺ والثاني تحت لواء ابنه وخليفته، ومَن أصدق من رسول الله ﷺ وابنه الحسين عليه السلام .؟.

محاورات ومواقف

وتكشف لنا محاورة جرت بين برير بن خضير، وبين أحد أصدقاء الأمس

(١) الطبري ٣/ ٣١٨.
(٢) الطبري ٢/ ٣٣.

وخصوم اليوم، يزيد بن معقل، من بني عميرة بن ربيعة، عند بدء القتال، عن ثقة برير بموقفه ومسيره مع الحسين عليه السلام وثباته عليه.

وكان الذي بدأ هذه المحاورة يزيد بن معقل نفسه، عندما أراد ـ بظنه ـ أن يري بريراً كم كان مخطئاً عندما اختار طريق الحسين، الذي يوشك أن ينتهي به الآن إلى الموت قتلاً.

وحاول وقد اختلط بآلاف الجند المعادين للحسين عليه السلام، والتي تحيط بالحسين وأصحابه أن يري برير كيف أنه ـ وبالعكس منه تماماً ـ يشعر بالأمان، والثقة بموقفه وتصرفاته، أليست هذه الآلاف المؤلفة معه، أيمكن أن ينال الحسين وأصحابه منهم وهم جميع وبتلك الكثرة.؟ أيمكن أن يكون هذا الجمع الحاشد كله على خطأ والحسين وأصحابه فقط على صواب.؟.

ربما كان مقياس الكثرة هو ما أراد يزيد أن يقنع نفسه به، وهو مقياس طالما جعل كثيرين من معادي الديانات والرسل على ثقة من صواب مواقفهم عندما وجدوا أنهم كثيرون ووجدوا أصحاب الرسل وأعوانهم قليلين، ولعل يزيد أراد أن يتظرف أو يضفي لمسة خاصة على تصرفاته المنحازة للأمويين على اعتبار أن قناعته وحدها بصواب موقفهم هي التي جعلته ينحاز إليهم، ويشارك في هذه المجزرة.

وأنه كان ينطلق من موقف مبدئي، لا يرى فيه حقاً للحسين وأصحابه للوقوف بوجه دولة الظلم.

ومهما يكن فإن بريراً قد خيّب أمله، عندما ناداه هذا قائلاً: (يا برير بن خضير، كيف ترى الله صنع بك؟)[1]، وقد كان يحسب أنه سيجيبه بمذلة واستعطاف، فقد أجابه بقوله: (صنع اللهُ، واللهِ، بي خيراً، وصنع بك شراً..)[2].

ولم يحسب يزيد أن جواب برير سيكون بتلك القوة، ولعله قد فوجىء به، وخاف سخرية زملائه الذين لا بد أنه قد تعهد أمامهم باحراجه واسكاته واذلاله، فلم يكن ما سمعوه كلام ذليل خائف، وها هو يوشك أن يُذَّل هو نفسه.

قال يزيد: (كذبت، وقبل اليوم ما كنت كذاباً. هل تذكر وأنا أماشيك في بني لوذان، وأنت تقول: أن عثمان بن عفان كان على نفسه مسرفاً، وأن معاوية بن أبي سفيان ضال مضل، وأن إمام الهدى والحق علي بن أبي طالب؟)[3].

(١) - (٣) الطبري ٣/ ٣٢٢.

كان يزيد يحسب أن برير وقد أحاط به أعداؤه الموالون للأمويين، سيتنصل عن كلامه هذا وسينكره أمامهم بعد أن واجهه به لئلا يثير حفيظتهم وغضبهم، مع أن الأغلبية منهم كانت ترى رأيه، إلا أنها انقلبت عليه الآن بفعل الموجة الأموية التي علمتهم وغمرتهم واكتسحتهم أمامها نفايات وزبداً، غير أنه فوجىء ثانية عندما قاله برير: (أشهد أن هذا رأيي وقولي..)[١].

لقد جعله موضع سخرية أمام زملائه فعلًا، ولعل ضحكات بعضهم قد صكت أذنيه. وهنا لم يملك إلا اللجوء للشتيمة والباطل، فقال، وقد أفحم وأهين: (فإني أشهد أنك من الضالين)[٢]. فما تجدي شهادته أمام الحقيقة التي يعرفها الجميع؟.

ربما أخذ يتلفت هنا للحصول على مزيد من التأييد لشهادته الباطلة هذه.

وهنا وجد برير فرصته للنيل من هذا الضال المضل الذي يرمي غيره بعاره، وهو في غمرة خجله وحرجه أمام زملائه، فليدعه للقتال، ولن يستطيع التنصل طالما أنه نصب نفسه محامياً ومدافعاً على النظام الظالم، فدعاه قائلًا: (هل لك فأباهلك، ولندع الله أن يلعن الكاذب، وأن يقتل المبطل، ثم اخرج فلأبارزك)[٣].

وهل يملك هذا المتحدي الضعيف سوى أن يستجيب لمطلب برير، وإلا فإنه يحكم على نفسه أمام الجميع بالكذب والجبن، بعد أن أراد الصاق هاتين النقيصتين ببرير، وقد رضي بما عرضه عليه (فخرجا، فرفعا أيديهما إلى الله يدعوانه أن يلعن الكاذب، وأن يقتل المحقُّ المبطل، ثم برز كل واحد منهما لصاحبه، فاختلفا ضربتين، فضرب يزيدُ بن معقل بريرَ بن خضير ضربةً خفيفة لم تضره شيئاً، وضربه برير بن خضير ضربة قدت المغفر، وبلغت الدماغ فخرَّ كأنما هوى من حالق وأن سيف ابن خضير لثابت في رأسه، فكأني أنظر إليه ينضنضه من رأسه)[٤].. قتله برير إذاً، قتل المحقُّ المبطلَ، فقد استجاب الله دعوته، وأخزى عدوه، ولعذاب الآخرة وخزيها أشد.

الغدر..

وإذ أنه كان مشغولًا بعدوه الأول يزيد، (حمل عليه رضيّ بن منقذ العبدي،

---

(١) - (٣) المصدر السابق.

(٤) الطبري ٣/ ٣٢٣.

فاعتنق بريراً، فاعتركا ساعة، ثم أن بريراً قعد على صدره)[1] ولو فسح له المجال لقتله، غير أن هذا استنجد بأصحابه صائحاً: (أين أهل المصاع والدفاع)[2].

وهنا انبرى من غدر ببرير رغم علمه بفضله ومنزلته، فقد كان يقرأ القرآن مع جماعة من الناس في المسجد، وقد كان سيد القرّاء، (ذهب كعب بن جابر بن عمرو الأزدي ليحمل عليه، [فقيل له] إن هذا برير بن خضير القارىء الذي كان يقرئنا القرآن في المسجد، فحمل عليه بالرمح حتى وضعه في ظهره)[3].

طعن برير إذاً وأوشك أن يموت، ولم يشأ أن يضيع اللحظة القصيرة الباقية له من العمر دون أن يستفيد منها في جهاد عدّو الله وعدوه، ويحاول قتل هذا العدو الذي تطوع للدفاع عن صاحبه المقتول (فلما وجد مسَّ الرمح برك عليه فعضَّ بوجهه، وقطع طرف أنفه، فطعنه كعب بن جابر حتى ألقاه عنه، وقد غيَّب السنان في ظهره، ثم أقبل عليه يضربه بسيفه حتى قتله)[4] غدراً وغيلة، فذلك هو شأن الجبناء الخائفين الذين شعروا بالخور والجزع حتى وهم كثيرون متسلحون، ولم ير ابن جابر، عندما غدر ببرير، أنه كان يغدر حقاً، ولم ير فيه مساساً بسمعته وكرامته، فما بقيت في ظل دولة الظلم سمعةً أو كرامة يخشى المرء عليها.

وإذ أن العبدي الصريع الذي أوشك أن يقتله برير قد شكر ابن جابر على صنيعه معه وقال له: (أنعمت عليَّ يا أخا الأزد نعمةً لن أنساها أبداً)[5].

فإن امرأته وأخته النوار بنت جابر غضبت منه إذ غدر ببرير، فمرغ بذلك سمعته وسمعة أهله وقومه إلى الأبد، وتمادى في الدفاع عن دولة الظلم وقاتل الحسين ابن بنت رسول الله ﷺ، ولم يكن أحد قد ألزمه القيام بما قام به، وكانت مبادرة شخصية منه أراد بها اثبات ولائه وانحيازه لهذه الدولة الظالمة.

قالت له النوار، بعد رجوعه من المعركة: (أعنت على ابن فاطمة، وقتلت سيد القراء، لقد أتيت عظيماً من الأمر، والله لا أكلمك من رأسي كلمة أبداً)[6].

لم يكن هذا القاتل الغدار امرء مغفلاً أو غبياً، بل كان واعياً مدركاً لما كان يدور من حوله، وكان يتمتع بملكة شعرية كبيرة أفصحت عنها أبياته التي قالها بهذه المناسبة رداً على النوّار وقد غضبت منه، وقد شخص حاله وحال قومه تشخيصاً جيداً عندما

(١) - (٦) الطبري ٣/ ٣٢٣.

أرانا في أبيات شعرية قليلة معبرة إنه إنما كان يريد بموقفه ذاك أن يرضي عبيدالله بن زياد ويرضي (الخليفة) يزيد، ولا يهمه بعد ذلك إن رضي الناس عنه أو غضبوا منه.

أنه يعرف الذين قتلهم ويعرف شجاعتهم، بل أنه لم ير لهم مثيلًا في حياته، وقد شهد لهم بتلك الشجاعة التي أبدوها في ساحة الوغى والقوة التي ظهروا بها، مع أن غيرهم، لو كانوا في موقفهم لما استطاعوا أن يظهروا ولو بعضاً منها.

اعتراف بالخطأ واصرار على موالاة دولة الظلم

وهكذا قال كعب بن جابر مسجلًا اعترافاته بهذه الأبيات القليلة، وقد أدرك خطأه وتماديه بموالاة دولة الظلم، أقوالًا ستظل تدينه، وتدين الجيش القاتل ورموز دولة الظلم إلى الأبد.

(سلي تُخبري عني وأنت ذميمةٌ ... غداة حسينٍ والرماحُ شوارعُ
ألم آت أقصى ما كرهت ولم يُخل ... عليَّ غداة الروع ما أنا صانع
معي يزنيٌّ لم تخنه كعوبه ... وأبيض مخشوبُ الغرارين قاطعُ
فجردته في عصبة ليس دينهم ... بديني وإني بابن حرب لقانعُ
ولم تر عيني مثلهم في زمانهم ... ولا قبلهم في الناس إذا أنا يافعُ
أشدَّ قراعاً بالسيوف لدى الوغى ... ألا كل من يحمي الذمار مُقارعُ
وقد صبروا للطعن والضرب حُسَّدا ... وقد نازلوا لو أن ذلك نافعُ
فأبلغ عبيدالله إما لقيته ... بأني مطيع للخليفة سامع
قتلت بريراً ثم حَملت نعمة ... أبا خالد لما دعا: من يماضع؟[1]

ولا بد أن كعب كان يشعر بالندم في قرارة نفسه، إلا أنه كان يحاول أن يوهمها أنه كان على حق، فقد كان يقول في امارة مصعب بن الزبير: (يا ربِّ إنا قد وفينا، فلا تجعلنا يا رب كمن عدر ـ فقيل له ـ صدق، ولقد وفى وكُرم، وكسبت لنفسك شراً، قال: كلا، إني لم أكسب لنفسي شراً، ولكني كسبت لها خيرا)[2].

كانت المسألة بنظره، مسألة ولاء (لإمام أو خليفة) قد أصبح وجوده أمراً

---

(١) و(٢) الطبري ٣/ ٣٢٣.

واقعاً، لقد وفى ليزيد حقاً، والذي لم يرد كعب أن يخوض فيه هو: هل كان وفاؤه ليزيد حقاً عليه لازماً، كما حاول أن يقنع نفسه بذلك؟.

لقد واجه أمامه حاكماً وقيل له: أن عليك أن تطيعه، ولم يناقش الأمر، لأنه لم يشأ أن يضحي أو يتحمل بعض المشاق إذا ما فعل ذلك، وقد المحنا إلى من حاول اثبات شرعية الدولة بوجودها الفعلي على الساحة وقيامها بالسيطرة على الناس.. وتلك كانت خطة أموية ماكرة أرادت بها اثبات شرعيتها هي.

وحتى رضيّ بن منقذ العبدي الذي أوشك برير أن تقتله، والذي تقدم بالشكر لكعب على انقاذه إياه عاد فندم على موقفه وتمنى لو أنه لم يعش حتى ذلك اليوم الذي شهد فيه مصرع الحسين وأصحابه، وهكذا رد على كعب بن جابر جواب قوله، فقال:

لو شاء ربي ما شهدت قتالهم	ولا جعل النعماءَ عندي ابن جابر
لقد كان ذاك اليوم عاراً وسبّة	يعيِّره الأبناء بعد المعاشر
فيا ليت أني كنت من قبل قتله	ويوم حسينٍ كنت في رمس قابر[1]

وقد تمنى كثيرون من أفراد ذلك الجيش لو أنهم ماتوا قبل ذلك اليوم وكانوا في رمس قابر.. تماماً كما تمنى رضي بن منقذ العبدي.. لكن وإن ذلك قد فات وضاعت فرصة نصرة الحسين والوقوف إلى جانبه من أيديهم إلى الأبد.

٦ - وللأنصار الآخرين دورهم في الثورة أيضاً

أنصار الحسين.. بمستوى المسؤولية.. حب غامر لرسول الله ﷺ وتضحية في سبيل الإسلام

إذا ما أردنا أن نتناول بالبحث دور الأنصار الآخرين، فإن حقيقة مهمة لا بد أن تبرز في سياق هذا البحث، وهي أنهم تمتعوا بنفس العزم والثبات والصلابة التي تمتع بها من تحدثنا عنهم من أنصار الحسين.. لم يهن أحد منهم أو ينكل، ومضوا على بصيرة من أمرهم بنفس القوة التي بدأوا بها مسيرتهم مع الحسين عليه السلام.

وإذ أن العديدين منهم كانوا في سن الشباب المبكر، فلم تتح معلومات كافية

(١) الطبري ٣/ ٣٢٣.

عنهم لكتّاب التاريخ والسيرة، ولربما أهملت سيرة البعض منهم بشكل متعمد، ولم نحصل إلا على لقطات خاطفة ـ كانت كافية على قصرها ـ لكشف طبيعة أولئك المجاهدين البدريين الذين قدموا الطف وهم على يقين أنهم سيستشهدوا هناك.

كان اقدامهم على الشهادة بين يدي الحسين عليه السلام واستسهال الموت قتلًا مع ما رافق ذلك من الآلام الجمة التي تحملوها في سبيل الدفاع عن القضية الكبيرة التي رفعها الإمام الحسين عليه السلام، يدل على وعيهم الاستثنائي بهموم الرسالة وما يلقاه الإسلام من حملة شرسة محمومة للقضاء عليه وأبعاده عن الحياة، وكانوا يدركون أن فرصة الاستشهاد النادرة في ذلك الموقف قد لا تتاح ثانية وقد تكون مجرد انتحار لا يلتفت إليه بعد ذلك، إن لم يقدموا مع الإمام عليه السلام على مواجهة القتل هنا في الطف أمام الأمة المهزومة الخائفة ليحرك دمهم المسفوك دماءها الساكنة ولكي يجعلوها تدرك عمق الهوة التي دفعتها إليها الطغمة الأموية الحاكمة.

كان ثباتهم مرآة لما كان يجيش في نفوسهم من ولاء صادق للإسلام وحب غامر للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وآله عليهم السلام. وكانت نظراتهم المودعة للإمام عليه السلام وهم يفارقونه في آخر لحظة ويلقون عليه السلام والتحية قبيل مواجهة القتل، تدل على معرفتهم التامة به واكبارهم تضحيته الكبيرة وادراكهم أن تضحياتهم مهما بلغت ـ مع أنهم كانوا يضحون بأنفس ما لديهم وهي حياتهم ـ لن تبلغ مستوى تضحية ذلك الإمام الذي كان ينبغي أن تفديه الأمة كلها بأرواحها وتقف دونه بمواجهة كل من يريده بأذى أو شر.

وإذا ما استطاع امرؤ فهم دوافع الكبار الأشداء ذوي العلم والمعرفة والتجربة للوقوف وراء الحسين وتقديم أرواحهم فداء للإسلام، فإن معرفة دوافع الشباب اليافعين قد لا تتاح ما لم ندرك أنهم يتمتعون بوعي استثنائي ومعرفة فطرية حميمة مدركة للإسلام وأهميته وضرورته لادامة حياة البشرية على قواعده الحية، بل النابضة بالحياة والعطاء وإلا فلماذا ساروا معه إلى النهاية وأقدموا على الاستشهاد بين يديه دون تردد؟ وما هي دوافعهم إن لم يكن حرصهم على الإسلام وخوفهم عليه من الضياع والاندثار؟.

وربما كانت الأضواء التي سلطت على من تحدثنا عنهم من أنصار الحسين عليه السلام لموقفهم القيادي في المعركة والأدوار الفريدة التي قاموا بها ولفتت إليها الأنظار وسنهم وموقعهم الاجتماعي ومعرفة الناس بهم.

تعتيم على السير الذاتية لابطال الطف

ولو أخذنا ـ على سبيل المثال ـ اخوة العباس لأمه، عبدالله وجعفر وعثمان، لرأينا أن استجابتهم الواعية له وتنفيذ أوامره والاقدام على الاستشهاد بين يدي أخيهما وإمامهما الحسين عليه السلام ورفضهما التخلي عنه رغم الفرص التي أتاحها الإمام نفسه لهم ورغم عروض الأمان التي قدمت لهم وجاء بها رجال مقربون من ابن زياد، تدل كلها على حرصهم المؤكد على الشهادة، وادراكهم أنها فرصة نادرة تتاح لهم دون بقية الناس، ونحسب يقيناً أنهم كانوا يقدمون عليها بفرحة غامرة وإن كان يغلفها الاسى والحزن على هذه الأمة التي تنكرت للإسلام وقادته الحقيقيين فقامت تتصدى لهم بالسيف وتريد القضاء عليهم وابادتهم، وتدل على أن ذلك الحرص للاستشهاد بين يدي الحسين عليه السلام وتقديم أرواحهم فداء له وللإسلام لم يكن يقل عن حرص أخيهم العباس نفسه. غير أن مواقف العباس المعروفة، وهو الرجل القوي الناضج العالم ذو التجربة الطويلة والخبرة الواسعة، قد جعلت الأنظار تتجه إليه دون اخوته الذين تركوا له زمام قيادتهم وتوجيههم.. مع أن ما كتب عن العباس ـ سواء خلال معركة الطف ـ أو قبلها كان يشكل غبناً كبيراً له، فشخصية مثل شخصيته ما كان لنا أن نعرف هذه المعلومات القليلة فقط عنها.. غير أن الأوضاع التي تم فيها الحديث عنه وعن البقية من أصحاب الحسين، بل حتى عن الحسين نفسه كانت في غير صالحهم. وإذ أن الحديث عن حياتهم وشخصياتهم كان ناقصاً مبتوراً فإن هناك من سعى في ظل تلك الأوضاع لتشويهها والنيل منها.

كل فرد من أنصار الحسين كان صدّيقاً لم يخالج نفسه ريب أو شكٌّ بالإسلام ولا بالرسول صلى الله عليه وآله ولا بخلفائه الحقيقيين الذين سعوا لتثبيت دعائمه رغم الحملة المسعورة التي شنت عليهم من قبل أعداء الإسلام الذين جعلوا الناس عبيداً وكل ما صار في أيديهم مغنماً وتسلطوا على رقابهم بكل وسائل القهر والتسلط. وكان كل واحد منهم يدرك ـ في الجو المشوش المضطرب المشحون بالعداء للإسلام ـ وقد أتيحت له فرصة مرافقة الحسين عليه السلام ومعرفة نواياه ـ إن عليه أن يكون بمستوى المهمة الكبيرة التي كان يقوم بها، وإذ أنهم علموا أنه كان يسعى لتقديم دمه وحياته ثمناً لها، أدركوا أنها فرصة نادرة تتاح لهم ليمتزج دمهم بدمه على أرض كربلاء.. لأنها الفرصة الوحيدة التي يمكن بها لفت أنظار الأمة إلى الأخطار الأموية المحدقة، كما أنها الفرصة الأخيرة.

لو وضع الحسين عليه السلام يده بيده يزيد لكان ذلك ايذاناً بشرعية الحكم الأموي

لم تكن الأمة تحتاج لكي تعترف بشرعية النظام الأموي إلا أن يضع الحسين عليه السلام يده بيد يزيد ويعترف به خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله، لكي يعلن هذا أنه المخول المطلق للتصرف بمقدرات الناس وحياتهم دون قيد أو شرط، مدعياً أنه مفوض إلهي، بل أنه ظل الله على الأرض ومن حقه أن يفعل أي شيء دون التقيد بأي قانون أو شريعة، خصوصاً وأن الطريق قد مهد له من قبل أبيه معاوية، الذي كانت مجمل تصرفاته خرقاً واضحاً لقوانين الإسلام، ليتمادى هو إلى أقصى حد يتاح له.

وإذ أن الحسين عليه السلام رفض ذلك، وتحمّل مسؤوليته أمام أجيال الأمة كلها، رغم ما في ذلك من خطر محقق على حياته وأمنه، مدركاً إن ذلك هو السبيل الوحيد الذي كان عليه انتهاجه، لمنع الخطر عن الأمة. فإن هذه الفئة من الأمة، فئة الأنصار ـ أدركوا جسامة المهمة التي كان يقوم بها الحسين وجسامة التضحية التي كان يقدمها.

كانوا يرون أن قراره هو القرار الوحيد الذي كان عليه أن يتخذه.

وإن طريقه هو الطريق الوحيد الذي كان ينبغي عليه أن يسير فيه.

وكانوا يدركون حاجته ـ بل حاجة الإسلام ـ لمن يسير معه ويتخذ قراره ويعلن رفضه للنظام الأموي المنحرف، وإن كل فرد يسير معه سيكون شاهداً أمام أجيال الأمة كلها على عدالة قضيته وصحة منهجه، لم تكن حاجته للرجال لكي يدافعوا عنه شخصياً ويمنعوا سفك دمه على أرض كربلاء بل كانت حاجته لهم ليشخصوا أمام الأمة مدافعين حقيقيين عن الإسلام، وليثبتوا لها أن ما عجزت عنه قد قاموا هم به، وما خافت من الاقدام عليه قد أقدموا عليه هم.

كان الإسلام بنظرهم ـ كما كان بنظر الحسين عليه السلام ـ يستحق ذلك الدم المسفوك، ويستحق أن يضحى من أجله لكي يظل باقياً يسود ويحكم من خلال القيادة الواعية العادلة العالمة، من خلال القيادة الشرعية التي تلتزم بكل بنود الاستخلاف وعقوده وتعليماته، لا القيادة الفرعونية المتسلطة التي ترى كل شيء مباحاً لها وترى نفسها مطلقة التصرف بعيداً عن أي قانون إلهي، إلا قانونها هي. قانون مصالحها وامتيازاتها ومنافعها الشخصية.

كانت كل تصرفات أنصار الحسين عليه السلام في المعركة أو قبلها تدل على وعيهم الخارق بأهمية الثورة الحسينية. أما ماذا كان يجيش بتلك القلوب الكبيرة التي أقدمت على التضحية بكل ذلك الاندفاع والصبر. فلا بد أنه حب الله وحب الإسلام وحب قادتهم الحقيقيين.

وإذ أننا لا نؤرخ هنا ـ في هذه الدراسة المحدودة ـ لكل واحد منهم، فإننا نكتفي بعرض موقف لهذا أو قول لذاك نرى من خلاله حقيقة أولئك البدريين الصابرين المجاهدين في سبيل الله ونصرة أوليائه. وليكن مدخلًا لدراسة أوسع وأدق يقوم بها باحثون آخرون جديرة بهم وبمواقفهم الفريدة التي لم تشهد لها الأمة مثلًا.

يزيد بن زياد بن المهاصر، أبو الشعثاء الكندي.. لوم ونصيحة لأعداء الحسين

فهذا يزيد بن زياد بن المهاصر أبو الشعثاء الكندي، كان مع الحسين عليه السلام عندما كان يتساير مع الحر، حتى انتهوا إلى نينوى، المكان الذي نزل به، وقد نظر إلى رسول عبيد الله بن زياد، وقد ورد على نجيب له وعليه السلاح متنكب قوساً مقبل من الكوفة. فلما انتهى إليهم سلم على الحر بن يزيد وأصحابه، ولم يسلم على الحسين عليه السلام وأصحابه.

وقد حمل أوامر مشددة من ابن زياد للحر تدعوه إلى أن يجعجع بالحسين عليه السلام حال بلوغه كتابه وقدوم رسوله عليه، وإلّا ينزله إلا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء، ووردت إشارة في الكتاب إلى أنه قد أمر رسوله، وهو مالك بن النسير البدي(١) أن يراقبه وألا يفارقه حتى ينفذ رأيه وأمره.

كان ابن النسير وهو أحد كندة أيضاً يبدو معتزاً بمهمته كبعوث وعين لابن زياد وكان بما أبداه من سوء سلوك بعدم سلامه على الإمام وأصحابه، يهول قريبه يزيد بن المهاصر ويزعجه، وقد جاء بهذه المهمة ليرضي ابن زياد وأعوانه ويذهب إلى حد القبول أن يكون جاسوساً له من أجل الحاق الأذى بالحسين عليه السلام.

اعترضه ابن المهاصر وقال له: (ثكلتك أمك، ماذا جئت فيه؟ قال: وما جئت فيه.. أطعت إمامي ووفيت ببيعتي.. فقال أبو الشعثاء: عصيت ربك، وأطعت

(١) قتله أصحاب المختار بعد ذلك.

إمامك في هلاك نفسك، كسبت العار والنار؛ قال الله عز وجل ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾[1] . . .فهو إمامك)[2].

لقد توجه إليه باللوم والنصيحة، كما فعل أغلب أصحاب الحسين مع العديدين من أصحاب ابن زياد وقد شهدنا مواقف مماثلة عديدة في أشد الساعات حرجاً وعسرة، فما كان يهون عليهم أن يهلكوا أنفسهم وهم ينقادون خلف أعدائهم وأعداء أمتهم الإسلامية بأجمعها.

لقد جثا أبو الشعثاء الكندي على ركبتيه بين الحسين عليه السلام (فرمى بمائة سهم ما سقط منها خمسة أسهم، وكان رامياً، فكان كلما رمى قال:

أنا ابن بهدله فرسان العرجله

ويقول الحسين: اللهم سدّد رميته، واجعل ثوابه الجنة، فلما رمى بها قام فقال: ما سقط منها إلا خمسة أسهم.. وكان في أول من قتل، وكان رجزه يومئذٍ:

أنا يزيدُ وأبي مُهاصر أشجع من ليثٍ بغيل خادر
يا ربِّ إني للحسين ناصر ولابن سعد تارك وهاجر

وكان يزيد بن زياد بن المهاصر ممّن خرج مع عمر بن سعد إلى الحسين، فلما ردوا الشروط على الحسين مال إليه فقاتل معه حتى قتل)[3].

---

(١) القصص: ٣٢.

(٢) الطبري ٣/ ٣٠٩ وسنعتمده على الأغلب لأن معظم الروايات الواردة في المصادر الأخرى قريبة لما ورد فيه. وسنشير لبعض المصادر إذا اقتضى الأمر ذلك.

(٣) الطبري ٣/ ٣٣٠.

ويناقض هذا ما ورد في الرواية الأولى بأن ابن المهاصر كان مع الحسين عليه السلام حين وصوله كربلاء قبل ثمانية أيام من بدء القتال.. وربما كان معه قبل ذلك.. وربما خرج إلى الحسين عليه السلام عندما رأى الاستعدادات في الكوفة لتحشيد جيش يقاتله.. وربما أريد اقحام مسألة الشروط المفتعلة لتبرير التحاق الحر وابن المهاصر وغيرهما بالحسين.. وقد تحدثنا عن هذا الموضوع وأوضحنا عدم صحته.. إذ لم يقل أحد أنه طلب من ابن سعد أن يذهب إلى يزيد فيضع يده في يده.. وكان مصدر الرواية الأول هو ابن سعد نفسه.. ومتى ما علمنا أنه كان المنفذ المباشر للجريمة وفي مقدمة من نصب العداوة والحرب للحسين أدركنا الدوافع التي دعته لتلك الرواية ومنها تبرير موقفه بعد انتهاء الواقعة ومحاولة تبيان شرعية خلافة يزيد ما دام الحسين نفسه قد طلب الذهاب إليه ووضع يده في يده.

نافع بن هلال الجملي، «الحمد لله الذي جعل منايانا على يدي شرار خلقه»

وهذا نافع بن هلال الجملي، الذي يبدو أنه قد التحق بالحسين عليه السلام في الطريق بعد أن أحاط به الحر، قد ركب فرسه (الكامل) وحمل لواء العباس، حينما حال عمرو بن الحجاج الزبيدي ومعه خمسمائة من أصحابه، بين الحسين وأصحابه وبين الماء أن يسقوا منه قطرة.. وقد تصدى هو والعباس لأصحاب ابن الحجاج، حتى أخذ أصحابهما عشرين قربة من الماء، فكفوهم حتى انصرفوا إلى رحالهم، وفي تلك المنازلة طعن نافع بن هلال أحد أصحاب ابن الحجاج، فمات فيما بعد.

لقد خرج عمرو بن قرظة الأنصاري يقاتل دون الحسين وهو يقول:

قد علمت كتيبة الأنصار ... أني سأحمي حوزة الذمار

ضرب غلام غير نكسٍ شاري ... دون حسينٍ مهجتي وداري[1]

وعندما قتل، ألقى أخوه علي بن قرظة مسؤولية ذلك على الحسين عليه السلام وخاطبه بكلام خشن، وقال له: (أضللت أخي وغررته حتى قتلته، فقال [له الحسين]: إن الله لم يضل أخاك، ولكنه هدى أخاك وأضلّك، قال: قتلني الله إن لم أقتلك أو أموت دونك، فحمل عليه)[2].

كان يريد أن يبيّض صفحته من عمل أخيه وقد وقف إلى جانب الحسين عليه السلام واستشهد دونه، وكان يريد أن يري رموز دولة الظلم وأعوانها ولاءه وشدة تعلقه بها وانحيازه إليها.. فكأنه كان يعتذر من عمل أخيه وقد حسبه جريمة تمس كرامته وتقلل من قيمته.

غير أن نافع بن هلال الجملي اعترض هذا الفارس الضعيف المتهالك على خدمة أسياده، وقد حسب أنهم من ينفع ويضر حقاً، فطعنه وصرعه، فحمله أصحابه فاستنقذوه[3] كان نافع بن هلال الجملي يقاتل وهو يقول:

(.. «أنا الجملي، أنا على دين علي» فخرج إليه رجل يقال له مزاحم بن حريث، فقال: أنا على دين عثمان، فقال له: أنت على دين شيطان، ثم حمل عليه فقتله)[4].

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٣٢٣ - ٣٢٤.

(٢) - (٤) المصدر السابق ٣/ ٣٢٤.

وكان موقف نافع هذا هو الذي دعا عمرو بن الحجاج ليصيح بالناس: (يا حمقى، أتدرون من تقاتلون، فرسان المصر، قوماً مستميتين، لا يبرزن لهم منكم أحد، فإنهم قليل، وقلما يبقون، والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم)[1]. . وقد أيده ابن سعد في هذا وأصدر أوامره بعدم الاقدام على مبارزتهم.

(، وكان نافع بن هلال الجملي قد كتب اسمه على أفواق نبله، فجعل يرمي بها مسوّمة وهو يقول: «أنا الجملي. . أنا على دين علي»

فقتل اثني عشر من أصحاب عمر بن سعد، سوى من جرح. فضرُب حتى كُسرت عضداه، وأخذ أسيراً.

فأخذه شمر بن ذي الجوشن ومعه أصحاب له يسوقون نافعاً حتى أتيَ به عمر بن سعد. فقال له عمر بن سعد: ويحك يا نافع من حملك على ما صنعت بنفسك؟ قال: إن ربي يعلم ما أردت والدماء تسيل على لحيته وهو يقول:

والله لقد قتلت منكم اثني عشر سوى من جرحت، وما ألوم نفسي على الجهد، ولو بقيت لي عضد وساعد ما أرتموني.

فقال له شمر: أُقتله، أصلحك الله. . قال: أنت جئت به، فإن شئت فاقتله، فانتضى شمر سيفه، فقال له نافع: أما والله أن لو كنت من المسلمين لعظم عليك أن تلقى الله بدمائنا، فالحمد لله الذي جعل منايانا على يدي شرار خلقه، فقتله)[2].

أية عزيمة كانت تجيش بقلب نافع، وهو أسير مدمى، مكسور العضدين، وقد وقف تلك الوقفة الفريدة بوجوه أعدائه يتحداهم ويثير غيظهم على قتلاهم ويعلن أسفه من عدم قدرته على مقاتلتهم بعد أن أصبح بتلك الحال

كان يعرف جرأة أعدائه على سفك الدماء، وخصوصاً شمر، ومع ذلك ألقى بوجهه بتلك الكلمات القوية المعنفة التي لم يشتم منها ريحة الخوف أو التخاذل أو الهزيمة إذ كان واثقاً من كل خطوة خطاها مع الإمام الحسين عليه السلام، عالماً بصواب نهجه وضلال أعدائه.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر ٣/٣٢٨.

بنو عقيل: «تفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا، حتى نرد موردك»

وهؤلاء بنو عقيل (جعفر، وعبد الرحمن، وعبدالله) عزموا على اكمال مسيرة أخيهم مسلم والموت مع الحسين عليه السلام ورفضوا التخلي عنه، حتى بعد أن توجه إليهم بخطابه يدعوهم لذلك، قال لهم عليه السلام: (يا بني عقيل، حسبكم من القتل بمسلم، اذهبوا، قد أذنت لكم.

قالوا: فما يقول الناس؟ يقولون إنا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا، خير الأعمام، ولم نرم معهم بسهم ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب معهم بسيف، ولا ندري ما صنعوا لا والله لا نفعل، ولكن تفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا، حتى نرد موردك، فقبّح الله العيش بعدك)[1] . . وقد فدوه بأنفسهم وقاتلوا معه واستشهدوا بين يديه، ووقفوا بوجه أعدائه وقفة ثبات صلبة.

وهكذا فعل عون بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب ومحمد أخوه إلى أن استشهدوا بين يدي الحسين عليه السلام.

كانوا قد قرروا المسير مع الحسين عليه السلام والموت معه، ولم يكن أحد بقادر على ثنيهم عن قرارهم الباتّ والحاسم.

وتذكر رواية وردت عن طريق عبد الله بن سليم والمذري بن المشمعل الأسديين وهما ممن حاول ثني الحسين عن المضي بمسيرته وذلك قبل أن يلتقي بالحر، وقد رأيا انقلاب الكوفة عليه، قولهما له: (ننشدك الله في نفسك وأهل بيتك إلا انصرفت من مكانك هذا، فإنه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة، بل نتخوف أن تكون عليك، فوثب عند ذلك بنو عقيل بن أبي طالب)[2].

ويؤيد هذه الرواية داود بن علي بن عبدالله بن عباس بقوله: (إن بني عقيل قالوا: لا والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا، أو نذوق ما ذاق أخونا)[3].

ويضيف الأسديان قائلين: (فنظر إلينا الحسين فقال: لا خير في العيش بعد هؤلاء، فعلمنا أنه قد عزم له رأيه على المسير)[4].

إن هذه الرواية التي رويت عن الأسديّين ـ والتي قد تكون محوّرة في بعض

---

(١) نفس المصدر ٣/ ٣١٥ - ٣١٦.

(٢) - (٤) نفس المصدر ٣/ ٣٠٣.

أجزائها ـ قد أيدها داود العباسي، توحي بأن الحسين عليه السلام ربما كان قد عزم على التراجع بعد أن رأى أن موقف الكوفة لم يكن لصالحه، غير أنه لم يفعل ذلك واستمر في طريقه إلى الكوفة استجابة لموقف بني عقيل المطالب بالثأر لمسلم.

ونتساءل هنا: هل أن المسألة هنا مسألة عاطفية تتعلق بجريمة قتل وثأر يطالب به آل القتيل،؟ هل نظر الحسين عليه السلام وبنو عقيل إلى المسألة من هذه الزاوية،؟ وممن يثأر بنو عقيل،؟ هل من الدولة كلها أو من ممثلها المحاط بالأعوان المحترسين المدججين بالسلاح؟ وماذا تجدي مطالبتهم بثأر أخيهم إذا ما كانوا سيلحقون به ويضيفون دماءهم لدمه المراق في الكوفة،؟.

وهل كان أشد حباً لمسلم وتعلقاً به من ابن عمه الحسين عليه السلام حتى لا يرى ضرورة للثأر ـ لو أن المسألة مسألة ثأر ـ ويرونها ضرورية؟.

ربما كان الحسين عليه السلام في تلك المرحلة من الطريق وقد وردت إليه أخبار قتل مسلم أراد أن يعرف استعداد اخوته لمواصلة المسير معه فطلب منهم العودة وربما أراد تجنيبهم القتل الذي واجه مسلم إلا أنهم رفضوا وقالوا ما قالوه في معرض المواساة وابداء الاستعداد لاكمال المسيرة حتى النهاية.

ومهما يكن من أمر، فإن مواقف بني عقيل دلت دائماً على احترامهم وحبهم لإمام الأمة واستجابتهم التامة له وحرصهم على الاستشهاد بين يديه دعماً لقضيته التي فهموها ووعوها وحملوها. وبذلك ساهموا بتنبيه الأمة كلها إلى أهميتها لمواجهة الطغيان الأموي الجارف.

سعيد عبدالله الحنفي: وقف عند الصلاة يحمي الحسين عليه السلام بجسده حتى استشهد

وهذا سعيد بن عبدالله الحنفي، أحد الثوار الأوائل الذي حملوا رسائل أهل الكوفة للحسين عليه السلام [1] يعرب ـ عند اجتماع أهل الكوفة الأول بمسلم ـ عما يجيش بنفسه من ولاء للحسين عليه السلام واستعداد لنصرة قضيته، وكان أحد المتكلمين

---

(١) وكانت الرسالة التي حملها مع هانيء بن هانيء السبيعي للحسين عليه السلام تدعو الإمام للقدوم عليهم بأقصى سرعة (أما بعد، فحيهلّا، فإن الناس ينتظر وذلك، ولا رأي لهم في غيرك، فالعجل العجل ـ الطبري ٣/ ٢٧٧).

الرئيسيين في ذلك الاجتماع مثل عابس بن أبي شبيب الشاكري وحبيب بن مظاهر الأسدي.

لقد ظل ثابتاً على عزمه موطنا النفس على نصرة الحسين عليه السلام مهما كانت العواقب، وفي ليلة العاشر من محرم عندما دعا الحسين عليه السلام أصحابه للتفرق عنه حتى يفرج الله ويتركوه ليواجه أعداءه الذين كانوا يستهدفونه بشكل خاص، كان سعيد أحد المتكلمين الرئيسيين في ذلك المقام أيضاً.

قال للحسين عليه السلام: (والله لا نخلّيك حتى يعلم الله أنا حفظنا غيبة رسول الله صلى الله عليه وآله فيك، واللهِ لو علمت أني أقتل ثم أحيا ثم أحرق حياً ثم أذر، يُفعل ذلك بي سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حِمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك، وإنما هي قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً)[1].

وعندما حلت صلاة الظهر يوم المعركة(صلى بهم الحسين صلاة الخوف، ثم اقتتلوا بعد الظهر فاشتد قتالهم، ووصل إلى الحسين، فاستقدم الحنفي أمامه، فاستهدف لهم يرمونه بالنبل يميناً وشمالاً قائماً بين يديه، فما زال يرمى حتى سقط)[2] شهيداً دون امامه وكانت قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً.

أبو ثمامة الصائدي: «لا والله لا تقتل حتى أقتل دونك، وأحب أن ألقى ربي وقد صليت هذه الصلاة»

أما أبو ثمامة عمر بن عبدالله الصائدي فنرى له يوماً قبل يوم الطف، في الكوفة، حيث كان من أصحاب مسلم بن عقيل (وهو الذي كان يقبض أموالهم، وما يعين به بعضهم بعضاً، يشتري لهم السلاح وكان به بصيراً، وكان من فرسان العرب ووجوه الشيعة)[3].

(١) المصدر السابق ٣/ ٣١٦ وراجع اللهوف ص ٣٩ وروضة الواعظين ص ١٨٣ والخوارزمي ج ١ ف ١١ وابن الأثير ٣/ ٢٨٥ والمجلسي ٤ط ص ٣٩٤ والارشاد ص ٢١٠ والصدق م ٣٠ وجمهرة خطب العرب ٢ - ٤٣ والمناقب لابن شهرآشوب ٤/ ٩٩ وأنساب الأشراف ٣/ ١٨٥ ونهاية الارب للنويري ٢٠٠/ ص ٤٣٥.

(٢) الطبري/ ٣/ ٣٢٨.

(٣) الطبري ٣/ ٢٨٤.

وعندما اضطر مسلم لاعلان ثورته قبل الوقت المحدد لها بفعل العمل الغادر الذي قام به ابن زياد عندما قبض على هانىء، واستنفر قواته، عقد لأبي ثمامة الصائدي على ربع تميم وهمدان.

وفي يوم المعركة عندما شن الهجوم الكبير على الحسين وأصحابه، وكان ذلك فيما يبدو عند الظهر وأدركوا أنهم سيقتلون، تقدم أبو ثمامة نحو الحسين عليه السلام وقال له: (يا أبا عبدالله، نفسي لك الفداء، إني أرى هؤلاء قد اقتربوا منك، ولا والله لا تقتل حتى أقتل دونك إن شاء الله، وأحب أن ألقى ربي، وقد صليت هذه الصلاة التي دنا وقتها. فرفع الحسين رأسه ثم قال: ذكرت الصلاة، جعلك الله من المصلين الذاكرين، نعم هذا أول وقتها، ثم قال: سلوهم أن يكفّوا عنا حتى نصلي)[1] وقد صلوا. صلّى بهم الحسين عليه السلام صلاة الخوف.

ثم (خرج أبو ثمامة الصائدي، فوقف قبالة الحسين عليه السلام وقال: يا أبا عبدالله، إني قد هممت أن ألحق بأصحابي، وكرهت أن أتخلف وأراك وحيداً.

فقال له الحسين: تقدم فإنا لاحقون بك عن ساعة.

فتقدم أمام الحسين، فقاتل حتى أثخن بالجراح، ثم قتله ابن عم له)[2].

قتل أبو ثمامة بعد أن أدى صلاته خلف الحسين عليه السلام.. وكانت كل أفعاله على مستوى هذه الأمنية التي تمناها، الصلاة، فقد حفظها وأدى شرائطها، وأثبت أنه أحد معتنقي الإسلام ومجيء الرسول صلى الله عليه وآله وآله عليهم السلام الحقيقيين.

الفتيان الغفاريان: «أحببنا أن نقتل بين يديك، نمنعك وندفع عنك..»

وتقدم الفتيان الغفاريان، عبدالله وعبد الرحمن ابنا عزرة نحو الحسين عليه السلام، عندما رأى أصحابه أنهم قد كثروا، وأنهم لا يقدرون على أن يمنعوا حسيناً ولا أنفسهم، فقالا: (يا أبا عبدالله، عليك السلام، حازنا العدو إليك، فأحبنا أن تقتل بين يديك نمنعك وندفع عنك. قال: مرحباً بكما، ادنوا منّي، فدنوا منه، فجعلا يقاتلان قريباً منه، وأحدهما يقول:

---

(١) الطبري ٣/٣٢٦.

(٢) مقتل الحسين للسيد محمد تقي آل بحر العلوم عن (إبصار العين) للسماوي.. ص ٤٠٣.

قد علمت حقاً بنو غفار ... وخندفٌ بعد بني نزار
لنضربنَّ معشر الفجار ... بكل عضبٍ صارمٍ بتارِ
يا قوم ذودوا عن بني الأحرار ... بالمشرفي والقنا الخطّار[1]

الفتيان الجابريان: «ولا والله ما على أنفسنا نبكي، ولكنا نبكي عليك، نراك قد أحيط بك»

وتبعهما الفتيان الجابريان، سيف بن الحارث بن سريع، ومالك بن عبد بن سريع، وهما ابنا عم وأخوان لأم (فأتيا حسيناً فدنوا منه وهما يبكيان، فقال: أي بني أخي، ما يبكيكما؟ فوالله إني لأرجو أن تكونا عن ساعة قريري عين. قالا: جعلنا الله فداك، لا والله ما على أنفسنا نبكي، ولكنا نبكي عليك، نراك قد أحيط بك، ولا نقدر على أن نمنعك، فقال: جزاكما يا بني أخي بوجدكما من ذلك ومواساتكما إياي أحسن جزاء المتقين.

ثم استقدم الفتيان الجابريان يلتفتان إلى الحسين ويقولان: السلام عليك يا بن رسول الله. فقال: وعليكما السلام ورحمة الله فقاتلا، حتى قتلا)[2].

حنظلة بن أسعد الشبامي: «يا قوم لا تقتلوا حسيناً فيسحتكم الله بعذاب»

ويشير موقف لحنظلة بن أسعد الشبامي إلى حقيقة هذا الرجل وفهمه التام للمهمة الكبيرة التي كان يقوم بها الإمام الحسين عليه السلام لمواجهة الانحراف المستشري والذي كاد أن يودي بالأمة وينسف كل المكاسب التي حققتها في ظل الإسلام، كان نداء حنظلة في الجيش الضال نداء القرآن الكريم نفسه وكان خطابه يتضمن آيات منه بليغة تنسجم وتلك المناسبة التي ألقاها فيها، وكان ذلك يدل على وعيه بالقرآن وفهمه له وحفظه واستيعابه، كما كان يدل على حسه الرسالي المرهف ولهفته على كسب الناس إلى صف الإسلام وإلى صف القيادة الحقيقية الشرعية للمسلمين.

جاء حنظلة بن أسعد الشبامي عند هجوم العدو الشامل ـ وقد رفض أسلوب المبارزة الذي كان يكلفه خسائر باهظة لا تنسجم وقلة أصحاب الحسين ـ فقام بين

---

(١) الطبري ٣/٣٢٨ ونهاية الارب للنويري ٢٠/٤٥٣.

(٢) الطبري ٣/٣٢٨ وابن الأثير ٣/٢٩٢ والنويري ٢٠/٤٥٣ والخوارزمي ٢/٢٤.

يدي الحسين وأخذ ينادي: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾(١).

يا قوم لا تقتلوا حسيناً فيسحتكم الله بعذاب. . ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾(٢) فقال له الحسين: يا بن أسعد، رحمك الله، إنهم قد استوجبوا العذاب حين ردّوا عليك ما دعوتهم إليه من الحق، ونهضوا إليك ليستبيحوك وأصحابك، فكيف بهم الآن وقد قتلوا اخوانك الصالحين.

قال: صدقت، جُعلت فداك، أنت أفقه مني وأحق بذلك، أفلا نروح إلى الآخرة ونلحق بأخواننا؟.

قال: رُحْ إلى خير من الدنيا وما فيها، وإلى ملكٍ لا يبلى.

فقال: السلام عليك يا أبا عبدالله، صلى الله عليك وعلى أهل بيتك، وعرّف بيننا وبينك في جنّته.

فقال: آمين آمين فاستقدم، فقاتل حتى قتل)(٣).

عابس بن شبيب الشاكري: «والله لاجيّبنكم إذا دعوتم ولأقاتلن معكم عدوكم»

ولعابس بن أبي شبيب الشاكري مواقف لا يمكن أن تغيب عن الذاكرة في الطف وقبلها، وهي مواقف جديرة بالتأمل والدراسة.

فعند قدوم مسلم الكوفة، نزل دار المختار بن أبي عبيد، وقد توافد أهل الكوفة عليه لمبايعة الإمام الحسين عليه السلام وتلقي توجيهات مبعوثة، وقد قرأ عليهم مسلم كتاب الإمام إليهم ومضمونه: (قد فهمت كل الذي اقتصصتم وذكرتم، ومقالة جلكم: أنه ليس علينا إمام، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق، وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي، وأمرته أن يكتب إليَّ بحالكم وأمركم ورأيكم، فإن كتب إليَّ أنه قد أجمع رأي ملئكم وذوي الفضل والحجى منكم

---

(١) غافر ٣٠- ٣٣.

(٢) طه: ٦١.

(٣) الطبري ٣/ ٣٢٩ والخوارزمي ٢/ ٢٤ واللهوف ص ٤٦ والبحار ٤٥/ ٢٤ ونهاية الارب ٢٠/ ٤٥٤.

على مثل ما قدمت به عليّ رسلكم، وقرأت في كتبكم، أقدم عليكم وشيكاً ـ إن شاء الله ـ فلعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب، والأخذ بالقسط، والدائن بالحق، والحابس نفسه على ذات الله) الطبري ٣/ ٢٧٨ ، فأخذوا يبكون، وكانت تلك إشارة إلى استجابتهم له وتأثرهم بموقفه من النظام المنحرف وثورته بوجهه، غير أن تلك الفورة العاطفية ربما لن يكون لها أن تستمر بمواجهة الارهاب الذي لا بد أن تعدّ له الدولة وهي ترى تمرد الكوفة عليها، ولربما أصبح العديدون من أولئك الباكين عوناً لهذه الدولة على الحسين، كما كان الحال فعلًا بعد ذلك، ولم يكن احتمال انقلاب الناس على الحسين وتخليهم عنه أمراً غير وارد عند عابس، ولهذا فإنه لم يكن يطمئن إلى ثبات موقفهم للحسين عليه السلام إلى النهاية، غير أنه كان مطمئناً إلى أمر لا شك فيه، وهو ثباته هو واستعداده للمضي مع الحسين إلى نهاية الشوط ومهما كانت العواقب.

وهذا ما تعهد به لمسلم، وقد وقف إمامه في ذلك الحشد قائلًا:

(أما بعد، فإني لا أخبرك عن الناس، ولا أعلم ما في أنفسهم، وما أغرك منهم، والله لأحدثنك عمّا أنا موطن نفسي عليه. والله لأجيبنكم إذا دعوتم، ولأقاتلن معكم عدوكم، ولأضربن بسيفي دونكم حتى ألقى الله، لا أريد بذلك إلا ما عند الله)(١).

كان عابس يتمتع ببصيرة نفاذة ومعرفة دقيقة بأمور الناس في ظل أوضاع الظلم، ومع أن كفة مسلم تبدو راجحة في ذلك الحين، ومجاميع كبيرة من الناس تفد عليه لمبايعة الحسين عليه السلام . إلا أن عابس أدرك إن ذلك الاندفاع ما كان له أن يستمر إذا ما كشّرت الدولة عن أنيابها وأرسلت غير النعمان والياً على الكوفة.

ورغم معرفته هذه، فإنه لم يعلن أنه ينسحب ويتراجع لأن الناس سينسحبون ويتراجعون، فقد استوعب أبعاد الموقف كله وعرف دوافع الحسين عليه السلام من الثورة، وعرف أن شيئاً ما غيرها لن ينجمع بلفت نظر الأمة إلى رداءة أوضاعها في ظل الحكم الأموي المتسلط. وقرر أن يظل مع الحسين عليه السلام وأن يعلن قراره هذا امام ملأ من أهل الكوفة وقف يذرف الدموع أمام مسلم وهو يستمع لرسالة الحسين.

لم يكن يعتقد أن قضية الحسين عليه السلام خاسرة وهو يحتمل تخلي أهل الكوفة

(١) الطبري ٣/ ٢٧٩.

عنه، بل كان يراها ضرورية رغم الدم الذي سيراق ورغم احتمال انقلاب أهل الكوفة عليه ووقوفهم إلى جانب عدوه، وهكذا أراد أن يضيف دمه لتلك الدماء المراقة وأن يواجه أعداء الأمة بسيفه ودمه ما دام إن ذلك هو الحل الوحيد لاعلان رفض حكومة الانحراف ولفت نظر الأمة إلى ممارساتها الخاطئة والبعيدة عن الإسلام.

وقد فسح عابس المجال لمتحدثين آخرين كحبيب بن مظاهر وسعيد بن عبدالله الحنفي للكلام في ذلك الحشد، وكانت كلماتهم تتخذ نفس الاتجاه الذي اتخذته كلمة عابس، ولقد وفى ثلاثتهم بوعودهم وصمدوا مع الحسين عليه السلام واستشهدوا بين يديه.

شوذب مولى شاكر: «أقاتل دون ابن بنت رسول الله ﷺ حتى أقتل»

ففي يوم المعركة، واشتداد هجمة العدو وقد رفض أسلوب المبارزة مع أصحاب الحسين عليه السلام لأنهم ألحقوا به خسائر فادحة، وعندما لم يبق مع الحسين عليه السلام غير أهل بيته ونفر معدود من أصحابه، (جاء عابس بن أبي شبيب الشاكري، ومعه شوذب مولى شاكر، فقال: يا شوذب، ما في نفسك أن تصنع؟ قال: ما أصنع، أقاتل معك دون ابن بنت رسول الله ﷺ حتى أقتل. قال: ذلك الظن بك. أما لا فتقدم بين يدي أبي عبدالله حتى يحتسبك كما احتسب غيرك من أصحابه، وحتى احتسبك أنا، فإنه لو كان معي الساعة أحد أنا أولى به مني لسرني أن يتقدم بين يدي حتى أحتسبه، فإن هذا يوم ينبغي لنا أن نطلب الأجر فيه بكل ما قدرنا عليه، فإنه لا عمل بعد اليوم، وإنما هو الحساب. فتقدم فسلّم على الحسين، ثم مضى فقاتل حتى قتل)[1].

كان شوذب الشيخ حليف شاكر، والذي كان حافظاً للحديث ومن ورّاد أمير المؤمنين عليه السلام ومنتهلي علمه، وقد صحب عابساً إلى مكة، وبقي مع الحسين عليه السلام حتى ورد كربلاء.. لا يرى مجالًا لخيار آخر، والخيار الوحيد أمامه هو أن يقاتل دون الحسين حتى يقتل، وكان تصرفه في تلك اللحظات الدقيقة بمستوى وعيه ومعرفته، فمهمة الحسين لا تنجز إلا بالتصدي المعلن المكشوف لنظام الانحراف ومواجهته وكشف زيفه وعدم شرعيته، وإذ أن الأمر كان لا بد أن يقتضي

(١) الطبري ٣/ ٣٢٩ والخوارزمي ٢/ ٢٣.

تقديم الدماء ـ فذلك النظام لن يسكت عن أية مواجهة أو نقد ـ فإن شوذب سارع إلى ذلك وتقدم يسلم على الحسين عليه السلام ويقاتل معه، حتى قتل.

وعندما بقي عابس بن أبي شبيب وحيداً بعد قتل شوذب، تقدم نحو الحسين عليه السلام ثم قال: (يا أبا عبدالله، أما والله ما أمسى على ظهر الأرض قريب ولا بعيد أعزّ علي ولا أحب إليَّ منك، ولو قدرت على أن أدفع عنك الضيم والقتل بشيء أعز عليَّ من نفسي ودمي لفعلته. السلام عليك يا أبا عبدالله، أُشهدُ الله على أني على هديك وهدي أبيك، ثم مشى بالسيف مصلتاً نحوهم وبه ضربة على جبينه)[1].

لم يبذل من الوعود لمسلم، وقد كان بعيداً عن الموت، أكثر مما كان يبذل الآن وقد أصبح بمواجهته.

كان ابن أبي شبيب ـ بشهادة أعدائه ـ أشجع الناس وكان مشهوراً بالفروسية والقوة، ولم يكن بمقدور أحد من أعدائه أن يواجهه بمفرده.

وقد ذكر أحد جنود ابن سعد، وهو نفسه الذي حرض الناس عليه، وكان قد عرفه وشاهده في المغازي، ربيع بن تميم الهمداني. . قال:

(لما رأيته مقبلًا عرفته وقد شاهدته في المغازي، وكان أشجع الناس، فقلت: أيها الناس، هذا الأسد الأسود، هذا ابن أبي شبيب، لا يخرجن إليه أحد منكم، فأخذ ينادي: ألا رجلٌ لرجل؟ فقال عمر بن سعد: أرضخوه بالحجارة. فرميَ بالحجارة من كل جانب.

فلما رأى ذلك، ألقى درعه ومغفره، ثم شدَّ على الناس، فوالله لرأيته يكرُد أكثر من مائتين من الناس، ثم إنهم تعطفّوا عليه من كل جانب، فقتل، فرأيت رأسه في أيدي رجال ذوي عُدّة، هذا يقول: أنا قتلته، وهذا يقول: أنا قتلته، فأتوا عمر بن سعد، فقال: لا تختصموا، هذا لم يقتله سنان واحد، ففرّق بينهم بهذا القول)[2].

مضى بن أبي شبيب يواجه أعداء الحسين عليه السلام كلهم بعزيمة صادق وقلب ثابت لم يعرف الخوف إلا من الله ولم ير لأعدائه شأناً، وكان واثقاً من عدالة القضية التي رفعها الحسين عليه السلام، واثقاً من نجاحها، وكان يدرك أن دمه لن يضيع هدراً،

---

(١) المصدران السابقان ونهاية الارب ٢٠/ ٤٥٥.

(٢) الطبري ٣/ ٣٢٩ والخوارزمي ٢/ ٢٣ والنويري ٢٠/ ٤٥٥.

وأن أجيالًا من الأمة ستظل تتطلع إليه كإنسان رسالي حمل هموم الأمة كلها ونجح في التغلب على مخاوفه من الموت، مدركاً نهاية سعيدة لمثل تلك الوقفة التي كان يقفها مع الحسين عليه السلام.

جون، مولى أبي ذر: «أذبّ عنهم باللسان واليد»

ويبرز موقف لنصير، شيخ تقدمت به السن، هو جون مولى أبي ذر، الذي التحق بخدمة آل البيت عليهم السلام بعد وفاة أبي ذر.. ولا بد أن هذا الشيخ كان نتاجاً طيباً لتربية أبي ذر الذي كان من أعلم الناس بموقع آل البيت عليهم السلام وأحقيتهم بقيادة الأمة.

طلب جون من الإمام عليه السلام أن يسمح له بالنزول إلى ساحة القتال، وقد أشفق عليه الإمام لكبر سنه ورفع عنه مسؤولية القتال بحكم موقعه كمولى يتبع مواليه طلباً للعافية والرزق، إلا أن حرص جون على القتال والاستشهاد بين يدي الحسين عليه السلام أفصح عن طبيعته الرسالية الفريدة وارتفاعه إلى مستوى حمل هموم الأمة كلها، متجاوزاً كل أبناء الأمة الذين هادنوا واستسلموا وانهزموا أمام النظام الأموي المنحرف.

تقدم جون للقتال وهو يقول:

كيف ترى الكفارُ ضرب الأسودِ ... بالسيف ضرباً عن نبي محمد

أذبُّ عنهم باللسان واليدِ ... أرجو به الجنة يوم المورد[1]

ورغم شيخوخته أبدى بطولة فائقة في القتال حتى استشهد بين يدي الحسين عليه السلام، الذي دعا له قائلًا:

(اللهم بيّض وجهه، وطيّب ريحه، واحشره مع الأبرار، وعرف بينه وبين محمد وآل محمد)[2].

جنادة بن كعب الأنصاري: ألبسته أمه لامة الحرب: «أخرج وقاتل بين يدي ابن رسول الله صلى الله عليه وآله»

أما جنادة بن كعب الأنصاري الذي خرج مع الحسين عليه السلام من مكة مع ابنه

---

(١) الخوارزمي ٢/ ١٩.

(٢) المجلسي ٤٥/ ٢٣.

عمرو وأمه، وقيل أن ابنه عمرو هذا كان غلاماً لم يراهق، فقد قتل في الحملة الأولى التي شنها العدو على أصحاب الحسين.

وكان أمراً عجيباً إن تقدم أمه، المفجوعة بفقد زوجها على إلباس ابنها لامة الحرب قائلة له: (يا بني اخرج وقاتل بين يدي ابن رسول الله ﷺ، فخرج الغلام واستأذن الحسين في القتال فأبى الحسين أني أذن له، وقال: هذا غلام قتل أبوه في المعركة ولعل أمه تكره خروجه.

فقال الغلام: إن أمي هي التي أمرتني.

. . .فبرز إلى الحرب وهو يقول:

أميري حسينٌ ونعم الأمير ... سرور فؤاد البشير النذير

علي وفاطمة والداه ... فهل تعلمون له من نظير

له طلعة مثل شمس الضحى ... له غرة مثل بدر منير[1]

وعندما قتل، أخذت أمه عمود خيمة حاولت أن تقاتل به، إلا أن الحسين عليه السلام أمر بأن ترد إلى المخيم[2].

لم يكن عمرو بحكم سنه مكلفاً بالمشاركة في القتال، وكان متوقعاً من الأم المفجوعة بزوجها أن تحرص على حياة ابنها، غير أن الأمر هنا لم يكن كما يتوقع، وكانت تلك المرأة حريصة أن تلتحق هي وابنها بزوجها، وكان فعلها على مستوى بصيرتها ووعيها، ولا بد أنها أدركت ما لم يدركه الكثيرون من أبناء الأمة وقامت بما عجزت عنه الأمة كلها.

إن عائلة جنادة مثل فريد لمجبي الإسلام والرسول ﷺ. . وكانت قوة أفرادها وصلابتهم ووقوفهم أمام الموت بشجاعة، أمراً لا يتاح لنا أن نشهده دائماً كما أنه فوق مستوى اللغة التي نتعامل بها ونعبر بها عن مشاعرنا، ويكفي أن نستعرض هذا الموقف ليخرج كل منا بالصورة التي يراها، وسنرى جميعاً أنها صورة فريدة تحمل كل ما في الإسلام من نور وحيوية واشراق.

---

(١) المصدر السابق ٤٥/ ٢٧.

(٢) نفس المصدر ٤٥/ ٢٨ والخوارزمي ٢/ ٢٢ وابن شهرآشوب ٤/ ١٠٤.

الشيخ الجليل، أنس بن الحرث الكاهلي: «.. شكر الله سعيك يا شيخ..».

وكان مشهد أنس بن الحرث الكاهلي من المشاهد الجليلة التي لا يمكن أن تتكرر، فابن كاهل الأسدي هذا كان صحابياً، رأى النبي ﷺ وسمع حديثه وشهد معه بدراً وحنيناً وكان شيخاً طاعناً في السن إلا أنه كان على درجة عالية من حدة الذهن ونفاذ البصيرة بحيث كان يدرك كل ما كان يدور حوله ويرى كيف كانت الأمة تستدرج للوقوع في الهاوية الأموية المظلمة.

وكان حديث للرسول ﷺ بخصوص ابنه الحسين عليه السلام يلوح في ذهنه دائماً، فلا يكاد ينساه[1]. وكان المشهد الذي قال فيه هذا الحديث من المشاهد التي لا تنسى أيضاً، وكان ابن الحرث بحضرة الرسول ﷺ في ذلك الحين والحسين عليه السلام في حجره، يفيض حناناً لرؤياه، وكان وهو ينظر بعين البصيرة ويتطلع إلى مستقبل هذه الأمة، ينطق بما علمه الله إياه على لسان جبرائيل الأمين، كان يرى أن صراعاً كبيراً سيدور، وأن الأمة ستنحاز إلى جانب الظالم الذي سيكون طرفاً في هذا الصراع ويكون الحسين ابنه طرفاً آخر فيه، وقد دعا إلى نصرته، وشهد له بذلك على أنه على الحق. وبذلك أوضح أن فرعون الذي سيقف مقابله سيكون مبطلاً، حتى وإن سكتت الأمة عنه ووقفت أعداد كبيرة من أبنائها إلى جانبه وفي صفه.

وإذ كانت الأمة مشلولة مخدَّرة جاهلة، فما عذر هذا الصحابي الجليل الذي سمع هذا الحديث من فم الرسول ﷺ مباشرة. وكأنما قدّر الله أن يسمعه هو ليحظى بنعمة الشهادة معه والورود إلى جدّه ﷺ، يعلمه أنه قد استجاب له ونصره، وأنّه لم يضيّع حديثه أو ينساه أو يزوره، كما فعل العديدون بأقواله جاعلين من صحبتهم المزعومة له تجارة يشترون بها ودّ فراعنة الأمة ويغترفون من الأموال التي سرقوها منها.

وبحكم السن والشيخوخة كان بامكان هذا الشيخ ألا يشارك في القتال، إذ كان

(١) وهو الحديث الذي ورد في (ينابيع المودة) الباب الستون/ للقندوزي - عن أنس بن الحارث، وأسد الغابة ١/٣٤٩. وكنز العمال ٦/ ٢٣٣ والاصابة ١/ ٦٨ وريحانة الرسول/ لابن عساكر ٢٣٩ «إن ابني هذا يقتل بأرض من العراق، إلا فمن شهده فلينصره» وقد تحدثنا عن الروايات الواردة عن الرسول ﷺ بخصوص استشهاد الحسين في كربلاء.

معذوراً، غير أنه رأى أن لا يضيع فرصة نصرة الحسين عليه السلام وقد سمع جده صلى الله عليه وآله يأمر بها، وكانت فرصة نادرة جاد بها الزمان له وهو في أخريات سِنّيه. وقد التقى بالحسين عليه السلام وهو في طريقه إلى العراق، وكان يعلم أنه مقتول هناك، فجاء ليقتل معه.

أية عزيمة جاشت بقلب ذلك الشيخ الجليل، فجعلته يقف قبالة الحسين ويستأذنه في القتال بعد أن قتل معظم أصحابه، وقد برز شاداً وسطه بالعمامة رافعاً حاجبيه بالعصابة عن عينيه وهو يقول:

قد علمت كاهل ثم دودان   والحنذفيون وقيس عيلان
بأن قومي آفةٌ للأقران   وأنني سيد تلك الفرسان[1]

وكان مشهداً استدر الدموع من عيني الحسين عليه السلام، وقد رأى كيف أن هذه الأمة المستسلمة لطغاتها تقدم على مقاتلته، وتقتل أصحابه، وتواجه هذا الشيخ الذي يريد انقاذها بالسيف بدل أن تستمع إليه وتسترشد بأقواله ورواياته عن الرسول صلى الله عليه وآله.

بكى الحسين عليه السلام عندما رآه بتلك الهيأة وقال: (شكر الله سعيك يا شيخ)[2]، وكما قُتل من قبل عمار بن ياسر وهو شيخ كبير، قاتل تحت لواء أمير المؤمنين، بعد أن قتل العديد من أعدائه، فعل هذا الشيخ الصحابي فعله، وقُتل بعد أن قتل بعض أعدائه، ولعله في الظرف العادي غير قادر على فعل شيء كهذا، غير أنه وقد وضع الإسلام ورسول الله صلى الله عليه وآله أمامه، استنفر كل ما بقيت له من قوة وجلد وثبات ليقاوم به أعداءهما، وكان يرى أن تلك الساعة التي قاوم فيها أعداء الله هي الجديرة بأن يبذل كل ما كان لديه من جهد ونشاط ليقدم كل ذلك وليقدم نفسه قرباناً دون الحسين عليه السلام ودون رسول الله صلى الله عليه وآله والإسلام، ليفد على الرسول صلى الله عليه وآله وقد نصح ووفى ووقف وقفة الحق في الظرف المناسب.

سويد بن عمرو أبي المطاع: قاتل بسكين بعد أن فقد السيف.

أما سويد بن عمرو بن أبي المطاع فكان له موقف آخر، فقد (صرع فاثخن، فوقع بين القتلى مثخناً، فسمعهم يقولون: قتل الحسين)[3]، وكان من شأن ذلك أن

---

(١) و(٢) الخوارزمي ٢/ ١٨ وابن شهرآشوب ٤/ ١٠٢.

(٣) الطبري ٣/ ٣٣٥ والبلاذري ٣/ ٢٠٤ والنويري ٢٠/ ٤٥٥.

يصيبه بحالة من الخوف والرعب، إذ تجرأ أولئك القوم على الإمام فقتلوه، وكان من شأنه أن يصيبه بحالة من اليأس بجدوى القتال معهم.

غير أنه وقد وجد إفاقة (فإذا معه سكين، وقد أُخذ سيفه، فقاتلهم بسكّينه ساعة، ثم أنه قُتل)[1]. إذ ما تجدي سكّينه أمام السيوف المشهورة والرماح المشرعة وهو جريح، بل مثخن بالجراح، غير أن سويد لو لم يكن معه إلا أسنانه أو يداه المجردتان لدافع بهما عن الحسين عليه السلام، فقد كان يريد أن يستشهد مع الحسين عليه السلام ولم يكن يريد أن تفوته تلك الفرصة الثمينة.

أنصار الحسين: نموذج فريد، غير أنه ممكن التكرار

ولا نؤرخ هنا لأصحاب الحسين كلهم، فلعل هذا يحتاج إلى بحث أكثر دقة وتفصيلًا قد لا تتسع له صفحات هذا الكتاب. غير أن الباحث المدقق والقارىء الواعي سيجد لهؤلاء مواقف جديرة بالتأمل والدراسة والنظر، إذ كانوا يعلنون عن انتمائهم للإسلام بفعل واضح قوي معبر، تسجله دمائهم ووقفاتهم الثابتة غير المترددة مع الحسين عليه السلام وهو يسعى للقضاء على الانحراف وتخليص الأمة من خطر داهم أحاق بها فعلًا وهو الخطر الأموي الذي كان يمهد لانحراف دائم تظل الأمة معه تعيش في ظل فراعنة متسترين بالإسلام وشرعيته وهم أبعد ما يكونون عن الإسلام.

إن أصحاب الحسين الذين قتلوا بين يديه في واقعة الطف، نموذج فريد، غير أنه ممكن التكرار في أحوال أخرى وظروف مماثلة، فهم لم يمتلكوا تلك الطاقة الكبيرة التي مكنتهم من الصمود بوجه أعدائهم بشجاعة منقطعة النظير، إلا لأنهم امتلكوا زخماً إيمانياً هائلًا، برز فيه الإسلام كأمل وحيد وكقيمة عليا وحيدة يمكن أن تنتزعهم من قيم الجاهلية وصراعاتها وتنافسها المحموم للحصول على مكاسب غير مشروعة وغير مباحة.

إن ردود فعلنا على تصرفاتهم، ونحن نستعرض سيرتهم، ينبغي أن لا تتميز بذلك الاعجاب السطحي والاطراء المجرد لتلك التصرفات والمواقف، وإنما ينبغي أن تكون متسمة بالايجابية والتفاعل والفهم، فذلك السلوك الذي برز في تلك الواقعة ينبغي أن لا يفرط به أو يستعرض كأنه حالة خاصة غير ممكنة التكرار، بل مطلوب في

(١) المصدر السابق.

كل ظرف يتكرر فيه ذلك الخرق المفضوح للإسلام، ينبغي أن نضع أنفسنا محل أولئك الذين تعرضوا لذلك الاختبار الصعب، فنجحوا فيه وهم يدافعون عن الإسلام، ووقفوا بوجه الدولة المنحرفة الجانحة عن الإسلام، والتي استأثرت بالثروة والجاه والسلطة تفيض بها على أعوانها ومساعديها وأتباعها.

إننا ينبغي أن نطرح أسئلة عديدة في خضم النظر بشخصيات أولئك الرجال الشجعان، هل من غير الممكن أن لا نتعرض نحن أو نمر بنفس الظروف التي مروا بها؟ وكيف سيكون موقفنا لو مررنا بها أو تعرضنا لها؟ هل نقف على التل ـ كما وقفت جماعة من أهل الكوفة وهم ينظرون إلى الحسين من بعيد ويتمنون له النصر ـ ونتمنى أن ينصر الله الإسلام ويعزّه بغيرنا، أم أن علينا أن نكون أدوات ذلك النصر؟.

معاوية: خلاصة لجاهليات الأرض

وهل نتناول قضايانا الإسلامية الكبيرة وتاريخنا الإسلامي ومنها قضية الإمام الحسين عليه السلام بمواجهة الدولة الأموية اليزيدية وقبلها قضية أمير المؤمنين عليه السلام ومعاوية، بالروح اللامبالية التي تناولها بعض المستشرقين المعادين للإسلام وأتباعهم وتلامذتهم والمتأثرون بهم، فنروح نناقش المسألة كحدث يقع بين قائدين من قواد الفرس أو الروم أو الترك أو الديلم، ممن لم يسلموا ولم يعرفوا الإسلام، وإن المسألة كلها لم تكن سوى منافسة على كرسي الحكم، الذي استطاع ومهارته أحدهما الحصول عليه ببراعته وحيلته.. وفشل الآخر في الحصول عليه، لأنه لم يكن يمتلك ذلك القدر من البراعة والمهارة والحيلة التي امتلكها صاحبه، وأن الجميع ينبغي أن يتقبلوا النتيجة بروح رياضية وإن كانوا يقفون في صف (المغلوب)؟.

أم أننا ينبغي أن نناقش المسألة برمتها من وجهة نظر إسلامية بحتة لنجد في النهاية: أن الإمام علي عليه السلام وخطه الذي حاول أن يحفظ التجربة من الانحراف أو الضياع لم يستبعد ولم يحارب من قبل القوة الأموية والأحزاب المناوئة الأخرى، إلا لأن هذه الأحزاب أرادت أن يستبعد الإسلام نفسه عن حياة الأمة.. فقد كان عليه السلام الممثل الوحيد للأمة ومصالحها.

وإذ أن الإسلام قد صوّر على أنه غير ممكن التطبيق فعلياً بكل تشريعاته وقيمه (المثالية) أي غير القابلة للتنفيذ لأعلى المستوى النظري، فإن أمير

المؤمنين عليه السلام نفسه قد صوّر على أنه إنسان (مثالي) أي غير عملي وغير واقعي وإن كان ما ينادي به كان غير ممكن التطبيق.

وكان شن الحرب عليه وعلى أولاده فيما بعد يعني محاولة استئصال الإسلام من الأساس من المجتمع الإسلامي وجعله مجتمعاً سطحياً مقطوعاً متشرذماً، لا يملك رؤية إسلامية واضحة أو تصوراً قائماً على أساس الإسلام وحده، مجتمعاً مؤلفاً من طبقة الهمج الرعاع التي تهتم بهمومها اليومية البسيطة وحسب ولا تمتد اهتماماتها لكل مشاكل الأمة ومعاناتها، ولا تشعر أن هناك ظلماً يقع عليها.

وقد رأينا كيف أن معاوية قد قام منذ البداية بلغم الإسلام بمجموعة من المفاهيم الغريبة، بحملة منظمة كرس لها طابوراً من مدّعي الصحبة وواضعي الحديث والقصاصين والوعاظ والمفسرين والشعراء والقادة العسكريين والسّبابين وغيرهم، حتى أرسى مفهوماً جديداً للدولة الإسلامية وقيادتها، اعتمد كمفهوم عملي بديل عن ذلك الذي أراده رسول الله صلى الله عليه وآله وربّى خليفته من بعده عليه.

وكانت حملة معاوية الأولى بداية للغم الإسلام بالمفاهيم الغربية الأخرى، التي وردت لنا من جاهليات الأرض كلها، حتى أصبحت مهمتنا في تنقية هذا الدين من شوائب وآثار الجاهليات القديمة والحديثة صعبة لا يمكن أن يتصدى لها أفراد معدودن أو مؤسسات معنية، بل لا بد من قيام الأمة كلها بالتصدي لها، إن هذا يستدعي النظر إلى الإسلام مجدداً واستحضار العقلية الإسلامية النقية غير المتأثرة، لأننا ينبغي أن لا نعالج قضايانا الإسلامية بعقلية غير إسلامية وأدوات غير إسلامية، وما لم نفكر بذلك بشكل جدي فإننا سنظل نتعامل مع الإسلام تعاملاً سطحياً ناقصاً.

إن ثورة الحسين عليه السلام من المعالم المهمة والنادرة التي أتيح لأمتنا أن تشهدها عبر تاريخها الطويل، ولن نستطيع فهم تلك الثورة والتعامل مع أحداثها ومعطياتها ما لم نفهم الإسلام حقاً ونحمل عقليته وتصوره.

لم يكن الخيار مفتوحاً أمام الحسين عليه السلام ليقوم بثورته وقد رأينا أنه قام بها عندما وجد أنها الأسلوب الوحيد لتنبيه الأمة إلى حظر الانحراف المستشري، وما رآه الحسين عليه السلام رآه أصحابه كذلك وأدركوا أن دماءهم لن تذهب هدراً ما داموا

يشاركون الإمام بتلك المهمة الكبيرة، مهمة تقويم الأمة وجعلها تلتفت دائماً ـ حتى وإن امتد الزمن ـ إلى مخاطر كل انحراف محتمل فتتصدى له كما تصدوا هم ووقعوا خلف إمامهم ثم استشهدوا بين يديه

وبالتأكيد، فإن ثورة الحسين عليه السلام ستظل معلماً لنهضة دائمية واستعداد مستمر من قبل الأمة لمحاربة الانحراف والشرك، وسيظل أصحابه وأنصاره مثلًا حياً للثبات على خط الإسلام والاستعداد التام للموت في سبيله.

والنساء، نصرنَ الحسين أيضاً

لا نستطيع، في معرض الحديث عن ثورة الحسين، أن نتجاهل الدور الذي لعبته المرأة المسلمة في هذه الثورة.. سواء تلك التي تنتمي إلى آل الحسين أو غيرها.

وكم كانت المآخذ كثيرة على الرجال الذين تراجعوا تحت وطأة الخوف والذل والطمع، تلك العوامل التي كانت من نتاجات دولة الظلم الأموية، واستسلموا وانهزموا.. ثم اندفعوا بعد ذلك ـ أمام رغبات أسياهم الجدد ـ يحققون كل مشاريع أولئك الأسياد ورغباتهم المجنونة في السيادة والسيطرة والاثراء غير المشروع، وانقادوا أمامهم كقطعان من الأنعام المجردة من الحرية والارادة والرأي.. وقد لمس من بعضهم اندفاعاً لا محدوداً في الشر والعدوان سجّل لهم كمبادرات شخصية، أرادوا بها التقرب من رؤوس الحكم، إلا أنهم لم يستفيدوا منها لهذا الغرض شيئاً، ولم يكن من شأنها إلا أن تكشف معادنهم الرخيصة وفراغهم من كل مبادىء الإسلام الكبيرة.

وسنجد أن للمرأة في هذه الثورة الكبيرة دوراً بارزاً مشرفاً ظهر بشكل ملفت النظر حقاً، ومع أن عدد من سنتكلم عنهن قليل في هذه الدراسة المحدودة، إلا أن هذا كاف ليثبت لنا أن المرأة المسلمة عموماً، وحتى المرأة الكوفية التي تخاذل رجلها واستسلم وتراجع وآثر الانحياز في النهاية إلى جانب ابن زياد، كانت تقف موقفاً عظيماً لم يتح لكثيرين من الرجال أن يقفوه، حتى لقد فاقت كثيرات منهن الرجال الشجعان أنفسهم.

ولو استثنيا السيدة زينب بنت أمير المؤمنين عليه السلام باعتبارها ربيبة بيت الرسالة العظيم، والتي تميزت بما تميز به ذووها من إيمان ومعرفة وشجاعة وبيان، فإن مواقف النساء الأخريات وهن لسن من هذا البيت، قد دلت على أنهن كن متفوقات بشكل لا يوصف على العديد من الرجال، بل على أبناء الأمة المتخاذلة كلها، إذ لم

تستطع أن تقف مواقفهن المشرف في تلك الساعات العصيبة التي أبدى أعداء الإسلام فيها نواياهم الحقيقية نحوه وكشروا عن أنيابهم بوجهه وبوجه قيادته الحقيقية الشرعية.

ولا شك أن مواقف تلك النسوة نابع من شعورهن العميق بمسؤولية التغيير والقضاء على الانحراف، ومن فهم واقعي لحقيقة الدور الذي ينبغي أن يلعبه المسلمون كافة، سواء كان رجالًا أو نساءً على ضوء معطيات الإسلام وتصوراته ومثله.

ولم تكن المرأة المسلمة بمعزل عن الأحداث التي مرت بها، كما أنها لم تكن بعيدة التأثير على مجريات بعضها، لذلك فإن حضورها كان واضحاً في بعض تلك الأحداث، بل وملفتاً للنظر وهذا ما سنجده فعلًا خلال الحوادث التي رافقت ثورة الحسين وخلال المسيرة الملحمية من المدينة حتى كربلاء حيث استشهد هناك وبقية أصحابه وأنصاره.

١ - العقيلة زينب ابنة أمير المؤمنين عليه السلام ونساء آل الرسول صلى الله عليه وآله

في مواجهة العاصفة.. مع الحسين عليه السلام في كل الظروف.

زينب ابنة أمير المؤمنين كانت في مقدمة النساء اللواتي ضمّهن ركب الحسين عليه السلام وكان لها حضور واضح في بعض المواقف الدقيقة ومنها المواقف الذي استطاعت فيه الدفاع عن الإمام زين العابدين عليه السلام ـ الإمام الفعلي للأمة بعد استشهاد والده الحسين عليه السلام ـ امام ابن زياد، ومنع هذا الأخير من قتله بعدما استمع لأقواله التي لم يكن يتوقع أن يسمع مثلها ممن كانوا في موقفه ومنها موقفها أمام يزيد وأهل الشام بعد ذلك.

ولو تأملنا الظروف التي أحاطت بخروج الحسين عليه السلام من المدينة وحتى وصوله كربلاء، مروراً بمكة المكرمة، لرأينا أن تلك الرحلة كانت محفوفة بالمخاطر والمتاعب منذ بدايتها، وأن الإمام كان يتعرض لخطر الموت والاغتيال على يد أعوان السلطة الأموية، لذلك فإنه خرج على عجل بنسائه وأطفاله وأصحابه، ولا يخفى أن محاولات عديدة جرت لمنعه من الخروج من كلتا المدينتين.

وقد رأينا أن التحذيرات التي تواردت على الحسين كانت كلها تشير إلى أنه مقدم على مجازفة كبيرة، قد يقتل فيها هو وأصحابه إذا ما سار إلى العراق كما أن منها

ما أرادت منعه من أخذ النساء والأطفال كتحذيرات ابن عباس في مكة[1] إلا أن الإمام أصر على أخذهم معه، وقد أخذهم فعلاً.

وكانت المرحلة العصيبة من الرحلة، هي التي بدأت عند ورود الخبر بمقتل مسلم بن عقيل وهانيء بن عروة وانتهت بوصول الحسين وأصحابه عليه السلام كربلاء وخوضهم معركة الطف الدامية ضد أعوان السلطة الأموية.

وهنا لا بد لنا من ملاحظة أن النساء اللواتي كن برفقة الحسين عليه السلام لم يكنَّ بعيدات عن ذلك الجو المنذر العاصف الذي تجمعت فيه غيوم الخطر المرتقب، ولم تكن التحذيرات التي وصلت أسماع الحسين وأصحابه، والأخبار التي وردتهم بعيدة عن أسماعهنَّ، فكان من المتوقع في أمثال تلك الحال، أن يكنَّ عامل تخذيل وتخويف لأولئك الذين عزموا على مواصلة المسير، ومع ذلك فإننا لم نر في أية مرحلة من مراحل تلك الرحلة ما كان يدل على ذلك.

ومن المرجّح أنهن كن عازمات على مواجهة أي ظرف قد ينجم عن اكمال تلك المسيرة، وأنهن قد وطّدن العزم على ملاقاة المتاعب حتى وإن وجدن أنفسهن وحيدات إلا من الصبية والأطفال، وحتى هؤلاء الصبية لم يتح لبعضهم العيش ـ فيما بعد ـ للرجوع معهن في طريق العودة المحزن.

وكانت مسيرتهن مع الحسين عليه السلام مسيرة ملحمية لا يقل عزمهن فيها عن عزم أولئك الرجال الذين وطنوا أنفسهم على أن يلقوا ما يلقاه، ولم يغادروه كما فعل الأعراب الذين سمح لهم بمغادرته، لاعتقاده أنهم إنما رافقوه لأنهم حسبوا أنهم سيجنون مكاسب مادية من مرافقته وأنهم سيقدمون على بلد قد استقامت له طاعة أهله، وحتى لو لم يسمح الإمام لأولئك الأعراب بمغادرته فأنهم كانوا سيغادرونه حتماً، فالمهمة التي مضى إليها لم تكن في حدود استطاعتهم ووعيهم.

عالمة حكيمة.. أعدت نفسها لتحمل المسؤولية

كانت زينب نموذجاً للنساء الأخريات اللواتي رافقن الحسين عليه السلام ومنهن أختاها فاطمة وأم كلثوم وليلى ابنة أبي مرة بن عروة بن مسعود بن معتب الثقفي زوج

---

(١) تحدثنا في الفصل الثامن عن بعض الدوافع التي دعت الإمام لأخذ عياله ونسائه وأطفاله معه عند ذهابه للعراق.

الحسين[1] وأم علي الأكبر الذي استشهد مع أبيه عليه السلام، والرباب ابنة امرىء القيس بن عدي بن أوس بن جابر بن كعب بن عليم من كلب، زوج الحسين وأم عبدالله ولده، ورقية ابنة أمير المؤمنين عليه السلام زوج مسلم بن عقيل وغيرهن من النساء.

غير أن زينب، وقد كانت أكبرهن سناً، وأكثرهن خبرة وعلماً ونضوجاً، وقد قضت فترة طويلة في حضن أبيها أمير المؤمنين عليه السلام وأخويها الحسن والحسين، ولا تزال تطوف بذاكرتها الأوقات التي قضتها في أحضان جدها رسول الله صلى الله عليه وآله وأمها الزهراء عليها السلام. كانت مؤهلة لتحمل مسؤولية رعاية الجميع بعد غياب الحسين وأهل بيته عليهم السلام. وقد تصرفت بحكمة مكنتها من المحافظة عليهم وارجاعهم سالمين إلى المدينة بعد حصول المذبحة الأليمة، كما أدت دوراً إضافياً عندما أشعرت الأمة بطبيعة المعركة.

لماذا أخذ الحسين عليه السلام عياله وأطفاله إلى كربلاء؟

لقد كان وجود بنات أمير المؤمنين عليه السلام وعقائل آل الرسول صلى الله عليه وآله في ذلك الموكب، اشعاراً لنساء الأمة، ونساء الكوفة على وجه الخصوص، بأهمية المهمة التي كان يشخص إليها الإمام عليه السلام، وايذاناً بمرحلة جديدة يقمن فيها بحثّ وتشجيع أبنائهن وأزواجهن واخوتهن وآبائهن على الالتحاق به وعدم التخلي عن نصرته، خصوصاً وأنهم كتبوا إليه يعدونه تلك النصرة.

كان الحسين عليه السلام ينشد من وراء جلب عائلة معه إلى اشعار الجميع، وخصوصاً أهل الكوفة أنه قد انتقل إليهم بشكل نهائي، وأنه لم يجعل أي خط للرجعة، وسيواجه معهم كل المتاعب المحتملة وكل الظروف المؤلمة. إضافة للأسباب الأخرى التي تحدثنا عنها في الفصل الثامن.

قال مخاطباً جنود الحر بن يزيد، عندما أراد الحر اجباره على التوجه إلى الكوفة والاستسلام لابن زياد، وذلك في معرض حثهم على الالتحاق به وترك جانب

---

(١) وردت بعض الأخبار أنها توفيت قبل واقعة الطف لا تؤيدها الروايات الكثيرة الموثوقة التي تحدثت عن دورها في الواقعة.

الدولة الظالمة. (فأنا الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، نفسي مع أنفسكم، وأهلي من أهليكم، فلكم فيَّ اسوة)[1].

لم يترك عائلته ونساءه في أمن ودعة في بيوتهن ومساكنهن في المدينة أو لدى بعض أقاربه في مكة، وجاء مع أصحابه وأهل بيته فقط ليخوض حربه ضد الدولة الظالمة في الكوفة ليعرض أهلها لرد فعلها العنيف الذي قد يعرض عوائلهم للأذى، ولم يأت إليهم منفرداً إذ أن ذلك قد يوحي إليهم بأنه يريد أن يجعل من مدينتهم ساحة حرب، وأنه قد يتراجع في أية لحظة قبل أن يواجه جيشاً قوياً محتملاً.

أما وقد جلب معه عياله وأطفاله، فكأنَّه قد عقل بعيره أو عقر فرسه منذ البداية وجاء إلى مقره الأخير، فأما أن يسيطر ويستقر ويحكم باسم الإسلام، وأما أن يقتل ولا سبيل بين هذين، فكيف يمكن لشخص مثل الحسين عليه السلام الهرب وترك عياله رهائن في أيدي أعدائه، وفي هذا ما فيه من الخزي والذلة؟ وكيف سيكون الأمر إذا ما كان هذا الشخص هو إمام الأمة الشرعي وابن رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام؟.

وهكذا تبين لنا سبب رفضه اقتراح ابن عباس أن يبقي عياله في مكة فلا يأخذهم معه إلى الكوفة واجابته إياه(شاء الله أن يراهن سبايا) فإذ تقوم أمة الرسول صلى الله عليه وآله بسبي عياله واستهدافهم بالأذى والشر. فإن ذلك سيكون ادعى لوضوح قضيته، وسيبرز العدوان عليه وعلى الإسلام بأجلى صورة.

لقد كان لمسيرته طابعها التحريضي المحتج أمام الأمة كلها، إذ لم يكن خروجه عملًا عسكرياً محدود الأهداف ولم تكن حربه من تلك الحروب التي لا يتمكن أحد من تفسيرها أو فهمها أو معرفة دوافعها ومبرراتها، وإنما كانت حرباً واضحة، خاضها عندما رأى أن الإسلام مستهدف من قبل أعدائه الحاقدين، وألقى فيها بكل ثقله. وكان من أخذهم معه من الصبية والنساء والأطفال صوتاً اعلامياً قوياً ومؤثراً في الأمة كلها بدء منذ اللحظة التي بدأت فيها مسيرة الرجوع المعاكسة من كربلاء إلى الكوفة ثم إلى المدينة مروراً بالشام مقر السلطة، وقد ظل صداه يتردد ليهز عرش الدولة الأموية وليبدأ باقتلاعها منذ ذلك الحين، وكان من حضروا المعركة من النساء والأطفال

(١) الطبري ٣/ ٣٠٧.

وبعض من سلموا من القتل شهوداً رووا وقائع تلك المعركة وما قام به كل فرد من أصحاب الحسين عليه السلام فيها ونبهوا الأمة إلى العنف الأموي الذي كان يستهدف كل أبنائها مهما كانت مراكزهم ومواقعهم.

وكانت خطب زينب عليها السلام واحتجاجاتها ومواقفها وحواراتها مع ابن زياد ويزيد وكلماتها في الكوفة والمدينة بعد ذلك عاملًا على توعية الناس وتبصيرهم بالخطر الأموي المحدق، وتأجيج السخط والنقمة ضد الدولة الأموية الظالمة.

واجهت الكارثة بعزيمة منقطعة النظير

واجهت زينب احتمال قتل الحسين وأصحابه عليهم السلام كأمر بات متوقعاً في كل لحظة ومقرراً لا بد منه في اللحظة التي دعا ابن سعد فيها جنوده للهجوم على معسكر الحسين عصر اليوم التاسع من المحرم، وتبيّن لها الأمر الذي كانوا مقبلين عليها فعلًا.

ولم يكن تحملها لصدمة تلك اللحظة كتحمل الإمام أو أصحابه وهي امرأة وفي النساء الرقة والجزع على حد تعبير الإمام زين العابدين عليه السلام. وكان لابدّ للعواطف الإنسانية نحو الأخ والأبناء وأبناء الأخ أن تتصاعد بشكل عنيف، وقد أصبحوا أمام خطر فعلي أوشك الآن أن يحيق بهم فعلًا، ولا غرابة أن نراها في هذا الموقف تحزن وتبكي، بل ويغمى عليها، حتى يقوم الحسين عليه السلام بنفسه بتهدئتها واسكاتها واعدادها لتقبل فكرة موته على أيدي الأعداء المحيطين بهم ولو بشكل أولي تمهيدي، لتقوم هي بنفس الدور بعد وفاته ووفاة أصحابه.

وعندما ردد الإمام عليه السلام بعد ذلك في تلك الليلة التي قتلوا في صبيحتها:

يا دهر أفّ لك من خليل كم لك بالاشراق والأصيل
من صاحبٍ أو طالب قتيل والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليل وكل حي سالك السبيل
ما أقرب الوعد من الرحيل(١)

---

(١) الطبري ٣/ ٣١٦ وابن الأثير ٣/ ٢٨٦ والارشاد ٢١٦ وروضة الواعظين ١٨٤ وأنساب البلاذري ٣/ ١٨٦ والنويري ٢٠/ ٤٤٧ مع بعض الاختلافات البسيطة.

اعداد لتقبل المصيبة

وعندما أعادها مرتين أو ثلاثاً، وعنده مولى لأبي ذر الغفاري وهو يعالج سيفه ويصلحه، قال الإمام زين العابدين عليه السلام، الذي كان في خيمة مجاورة لخيمة والده وعنده عمته زينب تمرضه (فعرفت ما أراد، فخنقتني العبرة، فرددت دمعتي، ولزمت السكوت، وعلمت أن البلاء قد نزل)[1] أراد الإمام عليه السلام بذلك أن يضعهم أمام الأمر الواقع، وتقبل حقيقة موته وموت أصحابه وأهل بيته لكي يستعدوا لذلك ويتصرفوا بحكمة واتزان إذا ما قتلوا، وربما كانت زينب معنية أكثر من غيرها لمرض الإمام زين العابدين عليه السلام وعدم ظهوره أمام السلطة كرجل صحيح مؤهل للقتال أو العناية بالأطفال والنساء، وإلا لكان قد قتل، كما حاول ابن زياد ذلك بالفعل عندما جلب الأسارى إلى قصره.

لا شك أن فورة عاطفية وموجة طاغية من الحزن ستتبع سماع زينب والنساء الأخريات بالنبأ الصاعق ورؤيتهن أن الأمر بسبيله إلى أن يتم، ويقتل الحسين وأصحابه عليه السلام غير أن شدة المصاب، ودقة الظرف الذي كن يمررن به وما يقتضيه من العناية بالصغار، اقتضى أن تتمتع هذه المرأة بقدرة استثنائية تستطيع معها كبح جماح حزنها وألمها، والالتفاف إلى من كان بمعيّتها من النساء والأطفال والظهور بجلد وقوة أمامهم، حتى تعينهم على اجتياز المحنة والوصول سالمين إلى بيوتهم في طريق العودة الطويل الذي تخللته محطتان لدى الطاغيتين ابن زياد ويزيد.

لم تستطع زينب، عند سماعها الأبيات الشعرية التي رددها أخوها الحسين عليه السلام أن تسيطر على مشاعرها، فكان ذلك المشهد الحزين بين يدي أخيها عليه السلام والذي لم تستطع احتماله فسقطت مغشياً عليها، ثم بعد أن أفاقت من وطأة تلك المشاعر الثقيلة، التي أرهقتها وأفقدتها شعورها، أخذ الإمام عليه السلام ـ وكأنه ليس هو الذي سيقتل ـ يهدىء من روعها، ويقدم لها توصياته الأخيرة ويعدّها للأمر الجلل، ويريها أن ذلك ما دام أمراً لا مفر منه، فإن عليها أن تتذكر كلماته وتتمسك بها لكي تستطيع الحفاظ على مجموعة النساء والأطفال وتخفف عنهم آلامهم ومتاعبهم ريثما تعود بهم إلى المدينة حيث بيوتهم ومسقط رؤوسهم.

ويستمر الإمام زين العابدين عليه السلام في سرد ذلك المشهد الحزين (فأما عمتي،

---

(١) المصادر السابقة.

فإنها سمعت ما سمعت، وهي امرأة، وفي النساء الرقة والجزع، فلم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها، وأنها لحاسرة حتى انتهت إليه، فقالت: واثكلاه، ليت الموت أعدمني الحياة. اليوم ماتت فاطمة أمي وعلي أبي وحسن أخي. يا خليفة الماضي، وثمال الباقي.

فنظر إليها الحسين عليه السلام فقال: يا أُخيّة، لا يُذهبن حلمك الشيطان. قالت: بأبي أنت وأمي يا أبا عبدالله، استقتل، نفسي فداك، فرد غصّته، وترقرقت عيناه، وقال: لو ترك القطا لغفا لنام.

قالت: يا ويلتي، أفتغصب نفسك اغتصاباً، فذلك أقرح لقلبي، وأشدُّ على نفسي، ولطمت وجهها، وأهوت إلى جيبها فشقّته، وخرّت مغشياً عليها.

فقام إليها الحسين، فصبَّ على وجهها الماء، وقال لها: أُخيّة اتقي الله، وتعزَّي بعزاء الله، واعلمي أن أهل الأرض يموتون، وأن أهل السماء لا يبقون، وأنَّ كل شيء هالك إلا وجه الله الذي خلق الأرض بقدرته، ويبعث الخلق فيعودون، وهو فرد وحده.

أبي خيرٌ مني، وأمي خير مني، وأخي خيرٌ مني. ولي ولهم ولكل مسلم برسول الله اسوة.

فعزّاها بهذا ونحوه، وقال لها: يا أخيّة، إني أقسم عليك فأبري قسمي، ولا تشقّي عليَّ جيباً، ولا تخمشي عليَّ وجهاً، ولا تدعي عليَّ بالويل والثبور إذا أنا هلكت.. ثم جاء بها حتى أجلسها عندي، وخرج إلى أصحابه)[1].

لقد تجسمت المصيبة، وغدت واضحة أمام عيني زينب، عندما أدركت الآن بشكل واضح أن الحسين عليه السلام سيموت، وقد أسمعها هو أبيات تؤكد لها ذلك.

وكان ذلك أمراً مفاجئاً لم تستطع تحمله وقد أدركت حجم تلك المصيبة التي حملها ذلك الأمر المفاجىء، وكان جواب الحسين عليه السلام تأكيداً آخر على أنه سيموت عندما طلب منها أن تتجلد وتتعزى بعزاء الله، فقد رأت الآن أنه بسبيله إلى أن يقتل على أيدي تلك الطغمة المحتشدة لقتاله وحربه، وعندما استوضحته أمر ذلك ترقرقت عيناه بالدموع.

(١) نفس المصادر السابقة.

ولا شك أن هذا موقف إنساني كبير يدل على عظمة الحسين عليه السلام وسمو مشاعره ووجدانه، وهو موقف لا يعرفه القاسي الغليظ الذي تجرد قلبه من الرحمة ومن كل احساس إنساني طبيعي، فهل يملك إنسان مرهف الحس، يفيض قلبه حباً لكل الناس، حتى لأعدائه أن لا يحزن على أطفال ونساء سيتركهم بين أيدي أعدائه القساة الحاقدين؟ وهل يملك أن لا تترقرق عيناه، بل وتفيضان بالدموع، وهو يفارق أناساً عاش معهم ورعاهم وتنسّم أنفاسهم وأحبَّ صورهم؟.

لا شك أنها مشاعر إنسانية خالصة اقتضاها حبه لمن سيفارقهم، ولم يكن مبعثها خوفه على حياته هو خاصة.

ولا شك أن دموع الحسين عليه السلام وقوله لها: لو ترك القطا لنام، هي التي فجرت مشاعرها إلى أقصى حد، حتى لطمت وجهها وخرّت مغشياً عليها وقد صبّ الحسين عليه السلام الماء بعد ذلك على وجهها وأيقظها من اغماءتها، وقد استنفذت وامتصت صورة العاطفة الأولى والحزن الأول، ثم بعد أن هدأت، وبدأت تفكر بالواقع الذي كانت على وشك أن تواجهه، بدأت هنا مرحلة أخرى، وهي مرحلة اعدادها بشكل واقعي لتقبل فكرة قتله وبقائها راعية وحيدة للنساء والأطفال.

وكان ذلك هو الوقت المناسب لكي تنفس عن مشاعر الحزن الطافحة في ذلك الوقت المبكر، بدل أن تتملكها في وقت متأخر، وقد تفقد السيطرة عندها على الجمع المحزون المكروب من النساء والأطفال وقد يلحقهم من ذلك ضرر أكثر من الذي لحقهم، إذ قد لا تستطيع في غمرة الحزن أن تتصدى لأعدائها وتحفظ النساء والأطفال وتمنع أعداء الإمام زين العابدين عليه السلام من النيل منه أو الحاق الأذى به، وهي مهمة كبيرة وخطيرة بلا شك، تدرك زينب خطرها وأهميتها بشكل واضح، بحكم قربها واطلاعها على مجريات الأمور في بيتها ومعرفتها من آلت إليه الإمامة بعد الحسين عليه السلام.

ولعل مهمة الحفاظ على حياته لا تبدو مهمة للبعض بقدر ما بدت لزينب وهي تعلم حقاً أنه الإمام المرتقب وأنه أمل هذه الأمة المظلومة المضطهدة.

حزنت على الحسين عليه السلام أكثر من حزنها على ابنها الذي استشهد في المعركة

لقد تحملت زينب عبء المحافظة على الجمع المتبقي بعد تلك المذبحة، وكان لا بد لها أن تنفذ وصايا الإمام الحسين عليه السلام، وإلا لكانت الخسارة أبلغ..

ولم يكن تحمل ذلك مما تقدر عليه المرأة العادية ذات الرقة والجزع، مع أن أبلغ المشاعر الإنسانية الحساسة والرقة والعطف كانت تجيش بين جنبي تلك المرأة العظيمة.

ولنتصور موقفها أمام نساء فقدن أبناءهن وأزواجهن واخوتهن وأطفال فقدوا آباءهم واخوتهم، كما أنها هي نفسها في خضم خسارتها الكبيرة لأخيها الحسين عليه السلام وولديها واخوتها الآخرين وأبناء اخوتها.. وقد قامت تتحمل كل ذلك وتكبت مشاعرها وتغالب حزنها ودموعها لتدير شؤون ذلك الحشد من الأطفال المروعين والنساء المرعوبات الحزينات وتخفف عنهم آلام المصيبة، ومتاعب الأسر والسفر ووعثاء الطريق وغلظة المرافقين، لنستطيع بالتالي تقدير المهمة الكبيرة التي قامت بها، اضافة إلى مهمتها الأخرى في استمرار عرض قضية الحسين عليه السلام أمام الرأي العام كقضية إسلامية كبيرة تستهدف خلاص جميع المسلمين من ربقة الحكم الأموي الجائر وأغلاله، من خلال خطبها وحواراتها ومواقفها.

وهنا نشير إلى موقف جدير بالتأمل، فقد قتل أحد أولادها (عون ابن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب) في المعركة، وهو الشاب الذي حمل رسالة أبيه عبدالله بن جعفر مع أخيه محمد (لأبيه)، والتحق به فقتلا جميعاً، وكان حرياً بعاطفة الأمومة أن تثير أحزان الأم المفجوعة على ولدها ليكون حزنها عليه أكثر من أي حزن آخر، ومع ذلك فإن حزنها على الحسين عليه السلام فاق كل حزن آخر، وقد علمت مبلغ الخسارة التي منيت بها الأمة كلها بفقده، إذ أقدمت على قتله بتلك الطريقة المنكرة.

وحيدة إلى جنب الحسين الوحيد.. أهوال وآلام

ولنا أن نتصور زينب وهي ترى أصحاب أخيها يقتلون الواحد بعد الآخر بين يديه، ويتناقص عددهم بتلك السرعة المذهلة، ليظل وحده آخر الأمر بمواجهة أعدائه الحاقدين المتعطشين لدمه، كان الأمر فوق طاقة امرأة عزلاء تتحمل مسؤولية قافلة كاملة من النساء والأطفال المذعورين الخائفين.

فهل بلغ الأمر بهذه الأمة أن تقدم على قتل ابن بنت نبيّها صلى الله عليه وآله وأكرم مخلوق على هذه الأرض بنفس البساطة التي تقدم فيها على مقاومة أعداء الإسلام؟.

بأية جريرة يؤاخذ الحسين عليه السلام فيقتل ويمثل بجثته ويقطع رأسه؟.

هل أن هذه الأمة لا ترى ما يراه حقاً؟ وهل اقنعت بصواب نهج أعدائه حتى تقدم على تنفيذ أوامرهم؟ أم أنها قد تخلت عن الإسلام ومبادئه الحقيقية، ولا تعرف عنه إلا الصورة التي قدمها أعداؤه وعرضوها له؟.

أنْ تقْدِمَ الأمة على قتل الحسين عليه السلام بكل تلك الجرأة، يعني استعدادها لقتل الرسول صلى الله عليه وآله نفسه لو واجهها وواجه حكامها وفراعنتها بنفس تلك الجرأة.

أية قيمة لأقوال الرسول صلى الله عليه وآله والقرآن الكريم لدى أولئك القوم، وهم يخالفونها علانية وبأصرار مسبق وعناد مبيّت؟.

كيف يتسنى لزينب دفع الأذى والقتل عن الحسين عليه السلام.

وأية طاقة تمنت لو أنها امتلكتها لتقوم بذلك؟.

كان مشهد الحسين عليه السلام وهو يقارع أعداءه وحيداً بعد أن قُتل أصحابه، وبعد أن أُثخن بالجراح مشهداً لا يمكن احتماله (شدَّ عليه رجّالة ممّن عن يمينه وشماله، فحمل على من عن يمينه حتى ابذعروا، وعلى من عن شماله حتى ابذعّروا.. كانت الرجّالة لتنكشف عن يمينه وشماله.. وهو يقاتل على رجليه قتال الفارس الشجاع، يتقي الرمية، ويفترص العورة، ويشد على الخيل.. فحُمل عليه من كل جانب، فضربت كفه اليسرى ضربةً.. وضرب على عاتقه.. وحمل عليه في تلك الحال سنان بن أنس النخعي فطعنه بالرمح فوقع.. وقد ضُرب قبل ذلك بالسيوف)[1].

أيَّ هول كانت ترى زينب وأية آلام هائلة كانت تعاني؟ فمشهد الإمام الوحيد الجريح وهو يغالب حشد الأعداء ويقاومهم ويقف بوجوههم بذلك الصبر والثبات، يتقي سيوفهم ورماحهم ونبالهم ويشد على فرسانهم وهو يقاتل على رجليه، ثم يتلقى بعد ذلك عشرات من الطعنات الغادرة، كان فوق طاقتها حتى وإن كانت هي زينب ابنة أمير المؤمنين عليه السلام فهل ملكَ رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه دموعه وهو يرى ما سيجري على ولده في كربلاء، حتى تملكها زينب فلا تفيض، ولا تنطلق محاولةً انقاذ أخيها واستنهاض ما مات من غيرة وشهامة في نفوس أولئك الذين ادّعوا أنهم من محبّي وموالي رسول الله صلى الله عليه وآله؟

(١) الطبري ٣/٣٤٤.

كان الحسين عليه السلام في تلك الحال (إذ خرجت زينب.. وهي تقول: ليت السماء تطابقت على الأرض.. واأخاه، واسيداه، واأهل بيتاه.

وقد دنا عمر بن سعد من الحسين، فقالت: يا عمر بن سعد، أيقتل أبو عبدالله وأنت تنظر إليه، فدمعت عيناه وهي تسيل على خده ولحيته. وصرف بوجهه عنها ولم يجبها بشيء فنادت: ويلكم أما فيكم مسلم، فلم يجبها أحد بشيء)[1].

كانت تلك المرأة الجليلة تواجه أعداء أخيها عليه السلام وأعداء الإسلام بكل صلابة وثبات، ولم يفقدها حزنها النبيل على أخيها رباطة جأشها. ولم تعدم الكلام المناسب الذي تعبر به عن حزنها أو الذي تخاطب به أعداءها.

ولم ينس أحد ممن حضر تلك الواقعة مجيئها إلى جسد أخيها الحسين عليه السلام وقد بسطت يديها تحته وكأنها ترفعه نحو السماء، وقولها في مناجاة حميمة صادقة مع الله «اللهم تقبل منّا هذا القربان»[2].

وكانت جسد الحسين عليه السلام هي القربان المقدس الذي أراد تقديمه ليفدي به الأمة كلها، حتى أولئك الذين استخدمهم أعداؤه لقتله وأذاه، ولم يكن مغزى تضحية الحسين عليه السلام ليغيب عن بال زينب، وقد علمت هدفه من وراء تلك المسيرة الملحمية وذلك الموقف الفريد، وأدركت أن ذلك لن يضيع، وأن تلك الدماء التي أريقت في كربلاء سيكون لها شأن كبير في الأرض ولدى المسلمين كافة، كما هو شأنها في السماء وإن الله سيتقبلها قبولًا حسناً، وأنه سيجزي عليها أحسن الجزاء وأفضل الجزاء.

بعد الطف: «ويلكم يا أهل الكوفة، أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم»

أقام ابن سعد في كربلاء (يومه ذلك والغد، ثم أمر حميد بن بكير الأحمري فأذن في الناس بالرحيل إلى الكوفة، وحمل معه بنات الحسين واخواته ومن كان معه من الصبيان، وعلي بن الحسين مريض)[3].

---

(١) المصدر السابق وسير الأئمة عليهم السلام السيد محسن الأمين ـ دار التعارف/ بيروت، ج ٢ ص ١٣٣.

(٢) مقتل الحسين/ السيد محمد لتقي آل بحر العلوم ٢٨٧.

(٣) الطبري ٣/ ٣٣٦.

ولنا أن نتصور حال النسوة المفجوعات وقد أصبن بتلك الخسارة الكبيرة، وهنَّ يتركهن أولياءهن واعزاءهن في أرض المعركة رهن البلى والدمار بعد أن قطعت رؤوسهم وسير بها إلى ابن زياد اعلاناً ببشرى (انتصاره) في تلك المجزرة.

وكان بامكان ابن سعد أن لا يلجأ إلى ما لجأ إليه من قطع الرؤوس والتمثيل بالجثث ـ وهو أمر لم يكن مألوفاً في ظل الإسلام ـ ولم يكن يسيغه أو يقبله العرب حتى في جاهليتهم، لو كان إذا إرادة حرة وموقف يتيح له التصرف بوعي بعيداً عن التبعية الذليلة لابن زياد الذي طلب منه ما طلب، وكان بإمكانه أن يعتذر عن المضي بما فعله من قطع الرؤوس والتمثيل بالجثث إلى النهاية بقوله: حسناً.. لقد قتلت الحسين وأصحابه امتثالًا لأوامرك ولأنك ترى أن هذا أمر ضروري للحفاظ على سلامة الدولة، وهذا هو المهم في الأمر كله، وقد أديت مهمتي ولم أدع منهم أحداً، أما قطع الرؤوس والتمثيل بالجثث، فلك أن تكلف أحداً غيري يقوم بذلك، إذ لا يليق بي كقائد انضم تحت لوائه أكثر من ثلاثين ألف مقاتل أن يقوم بذلك.

غير أن ابن سعد ربما كان حاقداً على الحسين حقد ابن زياد عليه، ولعله لم يجد في نفسه الجرأة على مخالفة أوامره وتعليماته بخصوص قطع الرؤوس والتمثيل بالجثث، وقد أثبت بذلك، كما أثبت الجيش المشارك بالجريمة كله حقده على الحسين وتلهفه على الحاق الأذى به لأقصى حد ممكن، كما أثبت موقفه وموقف رجاله من نساء الحسين وأطفاله مدى ذلك الحقد الذي كانوا يضمرونه له، فقد كان بإمكانهم أيضاً أن لا يتعرضوا لهن بالسلب والاهانة والأذى كما فعلوا بعد ذلك، وحال مصرع الحسين مباشرة، فقد (مال الناس على نساء الحسين وثقله ومتاعه، فإن كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه فيذهب به منها)[١].

أية مهانة أشد من تلك التي عوملت بها تلك النسوة المغلوبات الضعيفات بعد الفاجعة، وقد أخذن بتلك الصورة يستعرضن أمام الأنظار الحقودة لأولئك الذين نفذوا مجزرة قتل الحسين وأصحابه .

كيف قضين ذلك اليوم والذي بعده، وقد بقين في العراء أمام جنود ابن سعد؟

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٣٣٤/ ٣٣٥.

وكيف كانت رحلة العودة من كربلاء إلى الكوفة ودخولهن إليها بذلك الشكل المحزن، وقد تركن أجساد الحسين وأصحابه عليه السلام وراءهن بتلك الحال؟.

لا شك إن ما شعرن به لا يمكن لأحد وصفه، فأي شيء من تلك الحال يمكن وصفه؟.

أما وصولهن إلى الكوفة ـ التي كنَّ معززات مصونات فيها، أيام أمير المؤمنين عليه السلام ـ فقد كان يثير مزيجاً من مشاعر الألم والحزن والقلق مما ستتمخض عنه تلك المعاملة الأليمة من نتائج أكثر إيلاماً وحزناً.

هكذا دخلن الكوفة إذاً، إذ لم يقدم أحد ممن سلبهن ملابسهن ومتاعهن على ارجاعه إليهن رغم ما ذكر لنا عن طلب ابن سعد منهم ذلك، فقد ذكر أنه قال: (ألا يدخلن بيت هؤلاء النسوة أحد. ومن أخذ من متاعهم شيئاً فليرده عليهم، فوالله ما رد أحد شيئاً)[1].

كانت الكوفة تترقب نتيجة المعركة، وإن بدت لها تلك النتيجة متوقعة على ضوء ما رأته من استعدادت ابن زياد وتحشيده عشرات الآلاف من الرجال لمقاتلة الحسين عليه السلام والقضاء عليه، وربما كانت أخبار القتال والاستعدادات له تصل إليها في كل ساعة، وربما كانت تستعد لاستقبال رأس الحسين عليه السلام ورؤوس أصحابه وتستعد لاستعراض عياله ونسائه.

وكان الناس ما بين فرح مستبشر بهذه النتيجة ومتألم حزين لها، وحتى الذي كان يضمر الحب له ويتمنى له الغلبة على عدوه ابن زياد، كان يريد أن يتم ذلك النصر بإرادة إلهية عليا، وأن ينزل جاهزاً دون أن يكون لأحد يد أو مشاركة فيه.

وهكذا جاء الموكب الحزين، وبدا للناس كأنه موكب من سبايا الروم أو الديلم أو الفرس، لا موكب عائلة الرسول صلى الله عليه وآله، الذي كان ينبغي أن يقابل بالتجلة والاكرام، لا بهذه المهانة المخزية، وقد جمعت لهن إحدى النساء مجموعة من الملاء والازر والمقانع.

وكان حرياً بأهل الكوفة ألا يخرجوا إلى الطرقات وهم يعلمون أن من سيستعرضونهم هم آل الحسين وعيالات آل أبي طالب، وقد أضافوا بخروجهم ذاك

---

(١) المصدر السابق.

موقفاً مخزياً جديداً إلى مواقهم المخزية السابقة عندما تخلوا عن مسلم ووقفوا في صف قتلة الحسين عليه السلام.

ومن الطريف أن نذكر أنهم كانوا يبكون ويذرفون الدموع عندما كان الموكب يمر من أمامهم، وقد لفتت هذه الظاهرة زينب فاستغلت مرورها بتجمع كبير منهم، فأومأت إليهم أن اسكتوا ثم قالت: (الحمد لله والصلاة على محمد وآله الطاهرين.

أما بعد، يا أهل الكوفة، يا أهل الختل والعذر، أتبكون! فلا رقأت الدمعة ولا قطعت الرنّة، إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها انكاثاً، تتخذون إيمانكم دخلّا بينكم، وهل فيكم إلا الصلف النطف والصدر الشنف (إلا الصلف والعجب والشنف والكذب)، وملق الاماء وغمز الأعداء، أو كمرعى على دمنه أو كفضة على ملحوده. ألا ساء ما قدمت لكم أنفسكم، إن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون[1].

أتبكون وتنتحبون! أي والله، فابكوا كثيراً، واضحكوا قليلًا، فلقد ذهبتم بعارها وشنارها، ولن ترحضوها بغسل بعدها أبداً، وأنى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة، ومعدن الرسالة، وسيّد شباب أهل الجنة، وملاذ حيرتكم، ومفزع نازلتكم، ومنار حجتكم (محجتكم) ومدره سنتكم، ألا ساء ما تزرون، وبعداً لكم وسحقاً، فلقد خاب السعي، وتبّت الايدي، وخسرت الصفقة، وبؤتم بغضب من الله، وضربت عليكم الذلة والمسكنة، ويلكم يا أهل الكوفة، أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم (فرثتم)، وأي كريمة له أبرزتم، وأي دم له سفكتم، وأي حرمة له انتهكتم. لقد جئتم بها صلعاء عنقاء سوداء فقماء، نأناء (خرقاء) شوهاء، كطلاع الأرض، أو ملء السماء. أفعجبتم أن مطرت السماء دماً، فلعذاب الآخرة أخزى، وأنتم لا تنصرون[2]، فلا يستخفنكم المهل، فإنه لا يخفره البدار، ولا يخاف فوت الثار، وإن ربكم لبالمرصاد)[3].

وقد روى خزيم بن بشر الأسدي، وهو أحد من حضر ذلك التجمع واستمع لخطبة زينب، قال: (فوالله، لقد رأيت الناس يومئذٍ حيارى يبكون، وقد وضعوا

---

(١) إشارة لقوله تعالى في سورة المائدة الآية ٨٠ ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

(٢) إشارة لقوله تعالى في سورة فصلت آية ١٦. ﴿.. وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾.

(٣) سيرة الأئمة عليهم السلام ـ السيد محسن الأمين ٢ - ١٤٢ - ١٤٣.

أيديهم في أفواههم، ورأيت شيخاً واقفاً إلى جنبي يبكي، حتى اخضلّت لحيته وهو يقول: بأبي أنتم وأمي، كهولكم خير الكهول، وشبابكم خير الشباب ونساؤكم خير النساء، ونسلكم خير نسل، لا يخزى، ولا يبزى)[١].

كان من شأن هذه الخطبة أن تثير في الناس فورة عاطفة يدركون معها أنهم قد أخطأوا خطأً كبيراً بحق الحسين عليه السلام وبحق رسول الله ﷺ نفسه، ولعلهم بعد انتهاء تلك المواجهة العاصفة سيعملون على تقييم الأوضاع والنظر إليها مجدداً وتحديد مواقفهم على ضوء رؤيتهم الجديدة المتأملة إليها.

فالحسين عليه السلام بدا لهم الآن أنه يحمل قضيتهم جميعاً وأنه كان يدافع عنهم ويريد عودتهم إلى خط رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام بعيداً عن خطوط الانحراف المتشابكة الملتوية التي تركتهم في حيرة واضطراب شديدين، وقد أدركوا أن هذا الركب الحزين الباكي، ولكن المتماسك السائر بقوة وإرادة الإسلام.. كان أقوى من جمعهم الهش المشتت، وأنهم كانوا عرضة للشر والأذى والعدوان، بعد أن لم تتورع دولة الظلم عن الحاق الأذى بأكبر شخصية من المسلمين وهو الحسين عليه السلام، وأنها لن ترى حرمة لأي أحد منهم طالما أنها أقدمت على استباحة حرمته.

وهنا تبدو لنا مهمة زينب أبعد من مجرد المحافظة على النساء والأطفال وايصالهم إلى المدينة سالمين، وكانت تلك القافلة تبدو قافلة اعلامية تقوم بتعبئة الرأي العام ضد يزيد والحكم الأموي الجائر.. وكان يبدو أنها تنجح في مهمتها إلى أبعد حد.

في مجلس ابن زياد: «الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد ﷺ وطهرنا تطهيراً»

وكان موقف زينب أمام ابن زياد في مجلسه وفي غمرة الاحتفالات التي أقامها بهذه المناسبة، موقفاً قوياً لم يستطع عنده إلا أن يصفها بالشجاعة والسجاعة وقول الشعر بعد أن أفحمته وأسكتته اثر نقاش حاد بينهما أثاره هو بعنجهية متوقعاً منها أن تتخاذل وتطلب منه العفو والرحمة والصفح، وقد تكلمنا عن هذا الموقف في معرض الحديث عن ابن زياد.

(١) المصدر السابق ٢/ ١٤٣.

(لمّا دخل برأس الحسين وصبيانه وأخواته ونسائه على عبيدالله بن زياد، لبست زينب ابنة فاطمة أرذل ثيابها، وتنكرت، وحفّت بها إماؤها.

فلما دخلت جلست. فقال عبيدالله بن زياد: مَن هذه الجالسة؟ فلم تكلّمه.

فقال ذلك ثلاثاً، كل ذلك لا تكلمه.

فقال بعض إمائها: هذه زينب ابنة فاطمة.

فقال لها: الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم!.

فقالت: الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد ﷺ وطهّرنا تطهيراً، لا كما تقول أنت، إنما يفتضح الفاسق، ويكذّب الفاجر.

قال: فكيف رأيت صنع الله بأهل بيتك؟.

قالت: كتب عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم، فتحاجّون إليه، وتخاصمون عنده.

فغضب ابن زياد واستشاط. فقال له عمرو بن حريث: أصلح الله الأمير، إنما هي امرأة، وهل تؤاخذ المرأة بشيء من منطقها؟ إنها لا تؤاخذ بقول، ولا تلام على خطل.

فقال لها ابن زياد: قد أشفى الله نفسي من طاغيتك، والعصاة المردة من أهل بيتك، فبكت، ثم قالت: لعمري لقد قتلت كهلي، وأبرت أهلي، وقطّعت فرعي، واجتثثت أصلي، فإن يشفك هذا فقد اشتفيت.

فقال لها عبيدالله: هذه شجاعة، قد لعمري كان أبوك شاعراً شجاعاً.

قالت: ما للمرأة والشجاعة. إنّ لي عن الشجاعة لشغلًا، ولكن نَفثي ما أقول..)[1].

لقد حسب ابن زياد أن تلك المرأة في غمرة مصيبتها وألمها لن تقدر إلا على النوح والبكاء على فقيدها واستعطافه ولا شيء غير ذلك، غير أنه فوجىء أولًا بأنفتها

---

(١) الطبري ٣/ ٣٣٧ والمجلسي ٤٥/ ١١٥ - ١١٦ والارشاد ٢٥٩ واللهوف ٦٧.
مع اختلافات بسيطة ورد في بعضها أن ابن زياد قال لها: (هذي سجّاعة، ولعمري لقد كان أبوك شاعراً سجّاعاً، قالت زينب.. (يا ابن زياد، وما للمرأة والسجاعة، وإن لي عن السجاعة لشغلًا.. ولكن صدري نفث بما قلت).

من الحديث معه، وقد حاول، تلافياً لشعوره بالضعة والنقص، الشماتة بها وعرض نفسه كصاحب قضية عادلة، أمكنه الله من عدوه، لأن هذا العدو (وهو الحسين)، كان، كما كان جده ﷺ رمز أحدوثة لم تكن معهودة عند العرب من قبل، وإن شخصيته ومكانته وقرابته وإمامته ربما لم تكن سوى أسطورة كما كانت شخصية جده ﷺ ومكانته ونبوّته؛ وهو منطق دل على استهانة ابن زياد برسول الله ﷺ وعدم إيمانه برسالته، وكان يريد بذلك تبرير عداء آل أمية للإسلام ووقوف معاوية بوجه أمير المؤمنين عليه السلام وابرازه كأنه هو الذي خرج عليه، وأن الحسين هو الذي خرج على يزيد.

كان يريد الغاء مبررات قيام الحسين عليه السلام بثورته بوجه الدولة الأموية ورمزها يزيد وأنها لم تكن سوى ادعاءات ليس لها أساس من الصحة، وكان ذلك هو كل ما استطاع أن يقوله، فقد كان هاجس الدولة كلها أن تبقى حية صامدة بوجوه كل محاولة للنيل منها، وقد أرادت محو كل ما أرادت القيادة الشرعية المتمثلة برسول الله ﷺ، تثبيته في أذهان أبناء الأمة، ليتسنى لها تنفيذ مخططها الكبير لخرق الإسلام والخروج عليه، بل ومحوه دون أن تلقى معارضة واحتجاجات من أي فرد منها.

وكان جواب زينب مفحماً مسكتاً، لم يملك له ابن زياد ردّاً أو إجابة، لقد ذكّرته بأولئك الذين كان يتحدث عنهم بتلك الاستهانة، فهم آل البيت الذين أكرمهم الله بمحمد ﷺ، وأنهم المطهرون الذين أذهب الله عنهم الرجس بشهادة من الله وإرادة منه، وفي هذا كفاية لهم، لا كما يدعي ابن زياد الفاسق الفاجر، هو وأميره يزيد. فإذا ما كان لأحد أن يفتضح بفعله وتصرفه، فهو مَن كان على شاكلتهما ومن أمثالهما.

وقد عاود ابن زياد هنا عبثه ونزعته اللئيمة للشر والعدوان، بعد أن لم يستطع الرد عليها فأبدى شماتته بموت الحسين وأصحابه، وكأن الذي قتلهم غيره، وأبدى فرحه بما تحقق في كربلاء واصفاً الحسين عليه السلام بالطاغية وآله بالعصاة المردة.

وقد قالت له زينب إنَّهم سيجتمعون به يوم القيامة، فيتحاجّون إلى الله ويتخاصمون عنده، مرد الأمر هنا إذاً إلى الله، والقضية عادلة واضحة لا لبس فيها، وخروجهم هم على الحسين وتمردهم عليه وقيامهم بقتله أمر سيبتُّ الله بشأنه يوم الحساب وهو العادل الحكيم.

الغضب والشماتة بمواجهة الصمود والشجاعة

حسِبَ ابن زياد أنه سيجد أمامه امرأة باكية متخاذلة ذليلة، فوجد نفسه بمواجهة امرأة صامدة متماسكة واعية أفحمته وأسكتته، فلم يكن أمامه بعد ذلك، وبعد هزيمته أمامها إلا أن يغضب، بل ويستشيط غضباً ويلجأ إلى ما عرف عنه من بذاءة المنطق والأسلوب، ويبدي شماتته وسعادته بموت الحسين عليه السلام وقتله بتلك الطريقة، ويقوم بشتمه ويصف أصحابه وأهل بيته بأنهم عصاة مردة.

لقد تمادى الطاغية في شتائمه وتطاوله على الحسين وأصحابه، وهو في موضع حسب نفسه فيه قوياً مقتدراً يحف به أعوانه وجلاوزته، حتى لقد أحزن ذلك زينب .

لم تكن زينب تريد أن يتمادى ابن زياد في شتائمه وبذاءاته وتهديداته وامعانه في ترويع النساء والأطفال. ولعلها رأت من سخرية الأقدار، أن يقدم هذا العبد الذليل، وقد وضع نفسه في موضع الكبرياء والعزة والقوة الزائفة المصطنعة، بسب سيد شباب أهل الجنة وسيد أهل الأرض، وكان ذلك من الأمور التي تدعو للبكاء حقاً، وقد أوضحت له كم كان جباناً وقاسياً حينما أقدم على قتل آلها وذويها، ثم قام بسبّهم وأظهر شماتته وتشفّيه أمامها.

ولم يملك ابن زياد إلا أن يسكت ويتراجع، ربما تحت وطأة خجل طارىء من جلسائه، وأراد أن يبرز تراجعه بقوله أنها شجاعة (شاعرة) (سجّاعة) كأبيها الذي كان (شاعراً شجاعاً)، هكذا أراد أن يصور أمير المؤمنين عليه السلام مبرراً استهانته به وكأن أمير المؤمنين كان أحد شجعان العرب وشعرائهم، وقد وصفه كما وصف مشركو قريش رسول الله صلى الله عليه وآله تماماً واتهموه بأنه شاعر. فهل ان لرسول الله صلى الله عليه وآله قداسة في نفوس أولئك الذين أقدموا على حربه وحرب آله حتى يمتنعوا عن وصفه بما وصفوه به، وحتى يلجأوا إلى وصف أمير المؤمنين عليه السلام بما وصفه به ابن زياد..؟.

إن من لجأوا إلى سبّه من على منابر المسلمين لم يتورعوا عن وصفه بصفات عاديّة تتاح للعاديين من الناس ولا تكاد تميزهم عن الآخرين إلا بمواهب يتمتع بها غيرهم أيضاً ولا تكاد تجعل منهم شيئاً نادراً فريداً.

كانوا يريدون أن يقولوا أنه لم يكن يملك صفة جيدة سوى الشجاعة، وهذا ما كان يضع الدولة الأموية وقائدها معاوية بموقف جيد لأنه استطاع التصدي لهذا

الشجاع، والوقوف بوجهه والصمود أمام بيانه وحججه المفحمة وخطاباته ووضعها بأنها مجرد شعر أو سجع.

ربما قال أمير المؤمنين عليه السلام أبياتاً من الشعر وقد نسبت إليه أبيات في الحكمة والحث على طاعة الله والتمسك به، غير أنه لم يشتهر بأنه شاعر، وأنَّ مواهبه انصبت في قول الشعر وحسب، كما أنه عرف ببيانه الفريد الذي ارتفع به عن كل بيان بشري آخر، وقد رأينا نماذج له في (نهج البلاغة) الذي جمعه الشريف الرضي.

غير أن ما اشتهر به أمير المؤمنين حقاً هو ولاؤه وحبه لله ورسوله صلى الله عليه وآله وتمسكه بهما والدفاع عن الإسلام، وكان دفاعه هو الذي سبّب عداوة الأعداء ووقوفهم منه ذلك الموقف المتجني، وما نرى ابن زياد، عندما وصفه بالشجاعة والشعر، إلا أراد به نوعاً من الشتيمة أو الاهانة أراد توجيهها له، أمام جلسائه وأمام زينب ابنته.

دفاع عن زين العابدين

وإذ لم يستطع ابن زياد الصمود أمام زينب، انقلب إلى زين العابدين، الفتى المريض المنهك، الذي نالت منه الفاجعة أكثر مما نالت منه علة المرض، وقد حسب أن هذا الفتى سيتخاذل ويضعف أمامه، غير أن الحوار معه كشف له عن معدنه الصلب وقوته في مواجهة أباطيله ومزاعمه وتبجّحاته.. وقد جعله ذلك يستشيط غضباً في نهاية الأمر وأمر بأن يقتل.. غير أن زينب تصدت له مرة أخرى وقالت له مؤنبةً: (يا بن زياد، حسبك منا. أما رويت من دمائنا؟ وهل أبقيت منا أحداً؟ أسألك بالله إن كنت مؤمناً إن قتلته لما قتلتني معه)[1].

وكانت لفتة بارعة من الإمام زين العابدين عليه السلام أن دق على وتر حساس في نفس ابن زياد وهي رغبته في تأكيد انتمائه لأبي سفيان وبني عبد مناف، مع أننا لا نلمس في كلامه أنه كان يعترف لابن زياد بهذا النسب، وإنما يقدمه كأمر يرغب ابن زياد في تأكيده لا غير، قال له: (يا بن زياد، إن كانت بينك وبينهن قرابة، فابعث معهن رجلًا تقياً يصحبّهن بصحبة الإسلام،)[2]، وكان بذلك يضعه في موقف حرج دقيق لو أقدم على قتله، وهو ما كان راغباً فيه، غير أنه بنفس الوقت كان راغباً بتأكيد تلك القرابة، ولو أنه قتله لفسح بذلك المجال لجلسائه وغيرهم بعد أن تنتشر الفضيحة

(١) و(٢) الطبري ٣/ ٣٣٧.

وتعمّ، للهمس والحديث وإعادة قصة استلحاق أبيه زياد بأبي سفيان بدعوى أنّ أمه سمّية حملت به سفاحاً منه وأن ذلك كان أمراً مشروعاً لأنه وقع في زمن الجاهلية، مع أن رسول الله ﷺ قد رفض ذلك صراحة، ـ وقد تحدثنا عن هذا الأمر باسهاب عند استعراض شخصية زياد.

وقد حاول تدارك أمره وأبدى عجبه من تعلق هذه المرأة بابن أخيها وحرصها على أن تموت معه واستماتتها في الدفاع عنه، ولم ير نفسه ملزماً بأحداث فضيحة أخرى ـ ولو أن ذلك كان يسر يزيداً ـ بقتلها وقتل الإمام زين العابدين، وحاول التخلص من ذلك الموقف المحرج الذي وجد نفسه فيه، وقال أمام جلسائه: (عجباً للرحم، والله إني لأظنُّها ودّت لو أني قتلته، أني قتلتها معه. . انطلق إلى نسائك)[1].

وهكذا نجحت في هذه المهمة الصعبة أيضاً رغم أنف ابن زياد، ورغم عنجهيته وكبريائه المفرطة في ذلك الموقف الذي حسب نفسه فيه منتصراً، وجعلته يتراجع عن محاولة قتل الإمام زين العابدين عليه السلام أو قتلها هي، رغم أن ذلك أمراً كان محتملاً في ذلك الحين.

من سجن الكوفة إلى الشام، على أخشن مركب

وضع ابن زياد الأسارى من آل الرسول ﷺ في سجن ـ لعله كان قريباً من القصر ـ ينتظر أوامر يزيد بشأنهم. . وكانوا ـ كما تدل رواية الطبري عن عوانة بن الحكم الكلبي ـ يتوقعون أن يقدم على قتلهم أثناء مكوثهم في السجن.

يقول عوانة بن الحكم الكلبي: (لما قتل الحسين وجيء بالأثقال والأسارى حتى وردوا بهم الكوفة إلى عبيدالله، فبينا القوم محتسبون إذ وقع حجر في السجن، معه كتاب مربوط، وفي الكتاب: «. . خرج البريد بأمركم في يوم كذا وكذا إلى يزيد بن معاوية، وهو سائر كذا وكذا يوماً، وراجع في كذا وكذا، فإن سمعتم التكبير، فأيقنوا بالقتل، وإن لم تسمعوا تكبيراً هو الأمان إن شاء الله. .».

فلما كان قبل قدوم البريد بيومين أو ثلاثة، إذا حجر قد ألقي في السجن، ومعه كتاب مربوط وموسى، وفي الكتاب: «أوصوا واعهدوا، فإنما ينتظر البريد يوم

---

(١) المصدر السابق.

كذا وكذا» فجاء البريد ولم يسمع التكبير، وجاء كتاب بأن سرّح الأسارى إليّ. . .)[1].

كان ترقب القتل عامل قلق كبير، ولعله كان شكلًا من أشكال الموت البطيء، فأي قيم عليا وأية موانع تمنع يزيد من اصدار أوامره بالاجهاز عليهم داخل ذلك السجن بعد أن أقدم على جريمته الكبرى بقتل الحسين عليه السلام وأصحابه. . ؟.

غير أن تلك الفترة مرت بكل معاناتها وآلامها، وصدرت أوامر يزيد بأن يؤخذوا إليه، وترك أمر ترتيب ذلك لابن زياد الذي كان يحمل شحنة من الحقد كفيلةً بأن تجعله يرتّب لهم أخشن مركب في سفرهم الطويل إلى الشام. . ويرسل معهم من عرف بعداوته الشديدة لهم.

(دعا عبيدالله بن زياد مخفّر بن ثعلبة وشمر بن ذي الجوشن)[2] على رأس فريق ضم زحر بن قيس وأبا بردة بن عوف الأزدي وطارق بن أبي ظبيان[3]، وجماعة من أهل الكوفة ممن عرفوا بعداوتهم للحسين عليه السلام، وأمرهم بحمل النساء والرؤوس إلى الشام بشكل احتفالي يعرضون فيه أمام أهل المدن التي يمرون بها وكأنهم بقايا جيش نصب العداوة للإسلام وتعرض للمسلمين بالأذى والشر. وكانت الحملة المضللة تستهدف تمييع قضية الحسين كلها وعرضها كأمر استهدف النيل من وحدة المسلمين وأمنهم في ظل الدولة الأموية وقائدها يزيد. ومتى ما علمنا أن جماهير الشام المضللة كانت تتقبل كل أمر تعرضه عليها الدولة كأنه حقيقة من الحقائق ولا تناقش بشأنه، لأنها كانت نتيجة تربية معاوية واعداده، فإن الخطط الأموية ظلت تمرر على تلك الجماهير التي رأت أن ممثل كل أمر تعرضه عليها الدولة كأنه حقيقة من الحقائق ولا تناقش بشأنه، لأنها كانت نتيجة تربية معاوية واعداده. . فإن الخطط الأموية ظلت تمرر على تلك الجماهير التي رأت أنّ ممثل الإسلام الأوحد كان هو رأس الدولة نفسه، ولم تشغل نفسها بالفحص عن سلوكه الشاذ عن الإسلام وممارساته البعيدة عنه.

وقد روي أن أهل بعلبك ـ وكنتيجة لأوامر أصدرها إليهم والي المدينة الأموي ـ

---

(١) الطبري ٣/ ٣٤٠ والأغاني ٤/ ١٥٠.

(٢) الطبري ٣/ ٣٤٠.

(٣) البحار ٤٥/ ١٢٤/ ١٢٥.

نشروا الرايات قبيل مقدم موكب السبايا إليها في طريقه إلى دمشق (وخرج الصبيان يتلقونهم على نحو من ستة أميال).. وقد آلم ذلك الإمام زين العابدين عليه السلام ونساء الموكب[1].

استهداف بالأذى

وكان تنظيم الموكب يستهدف وضع النساء أمام أنظار المستعرضين من النظارة والمشاهدين، وإذ أن رفع الرؤوس على الرماح كان أمراً غير مألوف، إذ لم يعمد إليه أي حاكم قبل ذلك، فإن الأنظار كانت تتجه لهذا المشهد الغريب، وقد رأى منظمو الموكب أن يسير حاملو الرؤوس بين محامل النساء ليجعلوا الأنظار تتجه إليهن أيضاً، فلا تنشغل بمشاهدة الرؤوس وحدها إذا ما أفردت في مقدمة الموكب أو مؤخرته.

وقد بذلت مساع مع شمر قبيل الوصول إلى دمشق للتخلي عن هذه الخطة التي تستهدف الحاق أكبر قَدر من الأذى بنساء آل الرسول ﷺ، إلا أنه أصر على تنظيم الموكب بذلك الشكل وسلك بهم بين المارة على تلك الصفة حتى أتى بهم باب دمشق، فوقفوا على درج باب المسجد الجامع حيث يقام السبي[2].

وقد روي عن سهل بن سعد، وهو صحابي رأى الرسول ﷺ، قوله: (خرجت إلى بيت المقدس حتى توسطت الشام، فإذا أنا بمدينة مطردة الأنهار كثيرة الأشجار، قد علقوا الستور والحجب والديباج، وهم فرحون مستبشرون، وعندهم نساء يلعبن بالدفوف والطبول.. فقلت في نفسي: لا نرى لأهل الشام عيداً لا نعرفه نحن..؟.

قالوا: هذا رأس الحسين يهدى من أرض العراق.

فقلت: واعجباه، يهدى رأس الحسين والناس يفرحون..!.

فبينا أنا كذلك، حتى رأيت الرايات يتلو بعضها بعضاً، فإذا نحن بفارس بيده لواء منزوع السنان عليه رأس من أشبه الناس وجهاً برسول الله ﷺ، ومن ورائه نسوة على جمال بغير وطاء)[3].

---

(١) - (٣) المصدر السابق ٤٥/١٢٦ - ١٢٧ - ١٢٨.

في مجلس يزيد «.. إني لأستصغر قدرك..»

وقد حاول بعض أهل الشام إبداء فرحهم وسرورهم من حال أفراد الموكب الحزين الذي سيق من الكوفة إلى دمشق بتلك الحال المزرية، والذي تقدمه الإمام زين العابدين عليه السلام وقد غلّت يداه إلى عنقه بجامعة من الحديد.

ويبدو أن المشرفين على الموكب أرادوا إدخال السرور على قلب يزيد وقد علموا حرصه على الحاق الأذى ببقايا آل الرسول صلى الله عليه وآله، فعمدوا إلى ربط النساء بالحبال وطلبوا منهنّ حث المسير بين يديه (وكلما قصروا عن المشي، ضربوهم حتى أوقفوهم بين يدي يزيد وهو على سريره، فقال علي بن الحسين عليه السلام: ما ظنك برسول الله لو يرانا على هذا الحال؟ فبكى الحاضرون وأمر يزيد بالحبال فقطعت)[1].

وكانت الأبيات التي رددها يزيد بحضورهم تدل على حقده الشديد على رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه وعلى أمير المؤمنين عليه السلام. . كما أن ضربه الرأس الشريف بعود كان في يده يدل على رغبته الشديدة بالتعبير عن الحقد المختزن والموروث على آله الذين الحق بهم أمير المؤمنين عليه السلام ضربات ماحقة في صدر الإسلام وقتل العديدين من رجالهم.

ولسنا نعتقد أن رجالاً من أضراب معاوية ويزيد أجبروا على اعتناق الإسلام والتظاهر به ـ خصوصاً وأنهم أصبحوا بذلك بوضع يتيح لهم جني المكاسب الكبيرة ـ كانوا من رهافة الحس والالتصاق بالإسلام وحب الله ورسوله صلى الله عليه وآله بحيث يغتفرون ما فعله أمير المؤمنين عليه السلام بهم ويتناسون كل تلك الضربات الموجعة التي أنزلها بالعديد من رجالهم البارزين ومنهم أعمام ليزيد وأخوال له.

كان يزيد ينكت بقضيب من خيزران ثنايا الحسين عليه السلام رغم تحذيرات الصحابي أبي برزة الأسلمي ويتمثل بأبيات ابن الزبعرى:

ليت أشياخي ببدر شهدوا	جزع الخزرج من وقع الأسل
فأهلّوا واستهلّوا طرباً	ثم قالوا يا يزيد لا تشل
قد قتلنا القرم من ساداتهم	وعدلناه ببدر فاعتدل

(١) مقتل الحسين/ للمقرم ص ٣٥٠ عن الأنوار النعمانية ٣٤١ واللهوف ١٠١ وتذكرة الخواص ٤٩ والبحار ٤٥/ ١٣٢ - ١٣٣.

لست من خندفٍ إن لم أنتقم   من بني أحمد ما كان فعل
لعبت هاشم بالملك فلا   خبرٌ جاء ولا وحي نزل[1]

وهي أبيات تدل على كرهه الشديد لمحمد وآله ﷺ وعلى انكار الرسالة جملة وتفصيلًا.. عندما تصدت له زينب بنت علي بن أبي طالب ، وقامت تلقي خطبة محذرة منددّة جاء فيها: (الحمد لله رب العالمين وصلى الله على رسوله وآله أجمعين. صدق الله كذلك يقول: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾[2].. أظننت يا يزيد، حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى أن بنا على الله هوانا وبك عليه كرامة؟! وأن ذلك لعظم خطرك عنده؟ فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك، جذلان مسرورا، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا..؟.

مهلًا مهلًا.. أنسيت قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[3]؟.

أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك حرائرك وامائك، وسوقك بنات رسول الله سبايا، قد هتكت ستورهن، وأبديت وجوههن، تحدو بهنَّ الأعداء من بلد إلى بلد، ويستشرفهن أهل المناهل والمناقل، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد، والدنيُّ والشريف، ليس معهن من رجالهن ولي، ولا من حماتهن حميّ؟ وكيف يرتجى مراقبة، من لفظ فوه أكباد الأذكياء، ونبت لحمه بدماء الشهداء؟ وكيف يستبطىء في بغضنا أهل البيت من نظر إلينا بالشنف والشنآن والإحن والأضغان؟ ثم تقول غير متأثم ولا مستعظم:

---

(١) الأبيات الثلاثة الأولى لابن الزبعرى قالها في معركة أحد، وقد حسب المشركون أنهم تغلبوا على المسلمين وأضاف يزيد إليها الأبيات الأخرى. يراجع الخوارزمي ٢/ ٢٦٧ وشرح ابن أبي الحديد ٣/ ٣٨٣ وروضة الواعظين ١٩١ واللهوف ٧٥ وابن كثير ١٨ ١٩٢ وأعلام النساء ١/ ٥٠٤ والبحار ٤٥/ ١٣٣ وغيرها من المصادر الأخرى.

(٢) الروم: ١٠.

(٣) آل عمران: ١٧٨.

لأهلّوا واستهلوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تشل

منتحياً على ثنايا أبي عبدالله سيد شباب أهل الجنة، تنكتها بمخصرتك، وكيف لا تقول ذلك، وقد نكأت القرحة، واستأصلت الشأفة، باراقتك دماء ذريّة محمد ﷺ ونجوم الأرض، من آل عبد المطلب، وتهتف بأشياخك زعمت أنك تناديهم، فلتردن وشيكاً موردهم، ولتودنّ أنك شللت وبكمت، ولم تكن قلت ما قلت، وفعلت ما فعلت.

اللهم خذ بحقنا، وانتقم من ظالمنا، وأحلل غضبك بمن سفك دماءنا، وقتل حماتنا.

فوالله، ما فريت إلا جلدك، ولا حززت إلا لحمك، ولتردنَّ على رسول الله بما تحملت من سفك دماء ذريته، وانتهكت من حرمته في عترته ولحمته، حيث يجمع الله شملهم، ويلم شعثهم، ويأخذ بحقهم، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾(١)، حسبك بالله حاكماً، وبمحمد خصيماً، وبجبرئيل ظهيراً، وسيعلم من سوّى لك، ومكّنك من رقاب المسلمين، بئس للظالمين بدلًا، وأيكم شر مكاناً وأضعف جنداً.

ولئن جرتّ عليّ الدواهي مخاطبتك، إني لاستصغر قدرك، واستعظم تقريعك، واستكبر توبيخك، لكنَّ العيون عبرى، والصدور حرّى. ألا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الله الطلقاء، فهذه تنطف من دمائنا، والأفواه تتحلب من لحومنا، وتلك الجثث الطواهر الزواكي تنتابها العواسل، وتعفوها أمهات الفراعل. ولئن اتخذتنا مغنماً لتجدنا وشيكاً مغرماً، حين لا تجد إلا ما قدّمتَ، وما ربك بظلام للعبيد. فإلى الله المشتكى، وعليه المعوّل، فكد كيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا تدرك أمدنا، ولا ترحض عنك عارها. وهل رأيك إلا فند، وأيامك إلا عدد، وجمعك إلّا بدد، يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين، فالحمد لله الذي ختم لأولنا بالسعادة، ولآخرنا بالشّهادة والرحمة، ونسأل الله أن يكمل لهم الثواب، ويوجب لهم المزيد، ويحسن علينا الخلافة، إنّه رحيم ودود، وحسبنا الله ونعم الوكيل)(٢).

---

(١) آل عمران: ١٦٩.

(٢) البحار ٤٥/ ١٣٣ - ١٣٥ وسير الأئمة/ السيد الأمين ٢/ ١٥٠ - ١٥٢ بلاغات النساء ص ٢١ والخوارزمي ٢/ ٦٤ والمقرّم ٣٥٧/ ٣٥٩ والانتفاضات الشيعية/ هاشم الحسني ٤٠٥ - ٤٠٣.

(انتصار) المهزومين

لقد قوّمت زينب الموقف كلها بخطابها، وجعلت يزيد يتيقّن أنه كان واهماً عندما ظنَّ أنه انتصر على الحسين عليه السلام، وقد أطارت النشوة من رأسه وجعلته يتخبط في سلوكه ويتمادى في شذوذه بعد ذلك إلى أبعد حد ويستبيح كل حرمة مما مهّد لهلاكه وزوال ملكه.

لم تكن زينب ترى أن الحسين عليه السلام قد خسر، وكانت ترى أن حياته التي بذلها في ساحة كربلاء ستعوض بحياة خالدة مع جدّه صلى الله عليه وآله وأبيه عليه السلام ومع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين. وكانت بذلك ترسخ مفهوم الثورة في سبيل الله.. سواء حققت تلك الثورة أهدافها على المدى القصير أم لم تحققها، تغلب الثوار على أعدائهم في ساحة المنازلة أم لم يتغلبوا، فالمهم هو الانتماء الحقيقي للإسلام والجهاد في سبيل ترسيخ مبادئه وقواعده، واشعار الأمة أنه دين جدير بالتضحية والفداء لأنه الدين الوحيد الكفيل بتحقيق سعادتها وضمان مستقبلها بعيداً عن سلطان الطواغيت والظلمة والسراق والمستغلين.

لم يكن خطاب زينب خطاب امرأة منكسرة ذليلة، وإنما كان خطاب امرأة حازمة ذات موقف ورسالة واضحة المعالم والأبعاد والهدف.

شجاعة وثبات

وكان حوار زينب مع يزيد أشد من ذلك الذي كان مع ابن زياد في الكوفة، فقد روت أختها فاطمة بنت أمير المؤمنين عليه السلام، التي كانت ترافقها في هذه السفرة الطويلة، قالت: (لما أجلسنا بين يدي يزيد بن معاوية، قام رجل من أهل الشام أحمر فقال: يا أمير المؤمنين، هب لي هذه ـ يعينيني ـ، فارعدت وفرقت، وظننت أن ذلك جائز لهم، وأخذت بثياب أختي زينب، وكانت أختي زينب أكبر مني وأعقل، وكانت تعلم أن ذلك لا يكون.

فقالت: كذبت، والله، ولؤمتَ، ما ذلك لك وله، فغضب يزيد، فقال: كذبتِ والله، إنَّ ذلك لي، ولو شئت أن أفعله لفعلت!.

قالت: كلا والله، ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج من ملتنا، وتدينَ بغير ديننا.

فغضب يزيد واستطار ثم قال: إياي تستقبلين بهذا؟ إنما خرج من الدين أبوك وأخوك.

فقالت زينب: بدين الله ودين أبي ودين أخي وجدي اهتديت أنت وأبوك وجدك، قال: كذبت يا عدوة الله.

قالت: أنت أمير مسلط، تشتم ظالماً وتقهر بسلطانك.

فوالله لكأنه استحيا فسكت، ثم عاد الشامي فقال: يا أمير المؤمنين، هب لي هذه الجارية، قال: اعزب، وهب الله لك حتفاً قاضياً. . .)[1].

وقد كشف هذا الحوار عن شجاعة زينب الفائقة وثباتها في الوقوف بوجه يزيد والتصدي له، مع أنه كان أكبر رأس في الدولة وأساس البلاء الذي حل بالأمة كلها وسبب المصيبة التي لحقت بالحسين وآله وأصحابه عليه السلام كما أنه، بما عرف عنه من تهوُّر وطيش، جدير بحماقة أخرى من حماقاته المعروفة. . وربما كان باستعراضه موكب النساء والأطفال، وعرضهم بتلك الحال المزرية؛ التي توقع فيها أن يجدهم أذلاء خانعين وهم يعرضون مع رأس الحسين وأصحابه؛ يوجه رسالة للمسلمين كافة يريهم فيها أن هذا مصير كل من سيعمد إلى خلافه وقتاله والخروج على حكمه.

وإذ أنه فوجىء بجواب زينب الحاسم للشامي الأحمر، فإنه غضب وادعى أن من حقه أن يفعل ما يشاء.

وهنا يكشف عن طبيعته التي لا تتورع عن الخروج المتعمد عن الإسلام وفعل أي شيء تزين له نفسه فعله.

ولو أنه كان يعلم أن ذلك لن يجر عليه الوبال في النهاية، لكان قد تجرأ حتماً بفعل ما لم يفعله أحد قبله، ولأعطى فاطمة بنت أمير المؤمنين عليه السلام للشامي كسبية من دين آخر غير دين الإسلام، إلا أنه علم أنه بقيامه بذلك الفعل، فإنه يعلن رسمياً وعلنياً خروجه المتعمد عن الإسلام، هكذا أعلنت له زينب بكل وضوح: (كلا والله، ما جعل الله لك ذلك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا).

ورغم أنه يعلم أن جوابها هذا ووضعها هذه الحقيقة أمامه، يقف عائقاً أمام تماديه واحتمال اقدامه على هذا الأمر المشين، فإنه رأى أن ينفس عن غضبه حينما

(١) الطبري ٣/ ٣٣٩ والبحار ٤٥/ ١٣٦ والارشاد ٢٣١.

ذكرت له ما هو دينها، وما هي ملتها، وهو الإسلام حتماً، غير أنه إسلام غير إسلامه وإسلام أبيه وجده، إسلام يرفضه، بل لا يراه.. بل إنَّه يرى أن جدها محمد ﷺ وأباها وأخاها عليهم السلام قد كلّفوهم الكثير عندما أرادوا ارساء الإسلام الحقيقي النقي، غير المزيف، ولم يسمحوا أو يتساهلوا بأية (تعديلات أو تحويرات أو اضافة أو حذف).. وأن علياً والحسين بالذات هما اللذان وقفا عقبة في سبيل المطامح الأموية وكانا حجر عثرة أمام الدين الجديد الذي أراد معاوية اقامته على انقاض الإسلام، وهو دين يتوافق مع مصالحه ومشاريعه وطموحاته، ولا يمت للإسلام إلا ببعض الشعائر والطقوس المظهرية.

لقد ذكرته زينب بأخطائه، بل وأعلنت ذلك على الأمة، وأنه إنما يحكم باسم الإسلام الذي أقام دعائمه جدها رسول الله ﷺ، وعمل على تقويتها وادامتها أبوها وأخوها، وأنه إن كان حقاً يدعي أنه مسلم، كما ادعى ذلك أبوه وجده من قبل، وإن كانا بعيدين عن الإسلام، فإن الفضل في ذلك يعود لاعلام الهدى أولئك.

وما يملك يزيد أن يقول بعد ذلك؟ هل يستطيع رد الحجة بالحجة والقول القول؟ هل يقول لها علانية نحن ننكر دين محمد ﷺ مع أنهم اتخذوه بضاعة يتاجرون بها ووسيلة لغاياتهم ومآربهم؟ وأنهم لم يدينوا به إلا في الظاهر؟ مع أنهم لم يدينوا به إلا في الظاهر فعلًا.

لو كان قد صرح بذلك علانية لألغى مبررات وجوده رأساً للسلطة التي تدعي قيامها على أساس الإسلام وشرعيته، ولكان ذلك تصريحاً بأنه قد أعلن خروجه السافر المتعمد عن الإسلام، وهو ما لم يجرؤ على فعله طالما أنه يدعي الحكم باسم الإسلام ويجني المكاسب العديدة من وراء ذلك لم يستطع سوى أن يوجه لها الشتائم بعد ذلك، وإذ ذاك أعلمته زينب أن تصرفه ذاك لم يكن سوى تصرف رجل عاجز ضعيف يستطيل بحرسه وأعوانه ومرتزقته، ـ (أنت أمير مسلط تشتم ظالماً وتقهر بسلطانك).

وهل يعدو الأمر أن يكون كما ذكرت زينب؟.

موقف زينب أثناء واقعة الطف وبعدها جدير بالانتباه والتأمل، فقد أثبتت في كل لحظة وفي كل مرحلة من مراحل الثورة وبعد ذلك أيضاً، أنها كانت بمستوى رسالة أخيها وثورته.. وأنها لم تكن مجرد امرأة محزونة مكروبة أثقلها هول المصاب

وعظم الجريمة، بل كانت امرأة قوية ذات موقف حازم وثابت، وقد ساهمت بلفت الأنظار إلى ثورة الحسين عليه السلام ضد الانحراف الأموي المتسارع، وعلمت على تهديم ما بنته دولة الظلم، وظلت رمزاً للمرأة الرسالية المؤمنة الواعية التي تدرك واجباتها وما ينبغي عليها القيام به في كل ظرف وفي كل وقت.

مواقف حاسمة

ولعل موقف زينب القوي والمؤثر بحكم سنها وموقعها وعلمها قد طغى على مواقف النساء الأخريات اللائي كن أصغر سناً منها ولعل ما قامت به كان يبهر حتى أعداءها الذين رووا لنا باعجاب تفاصيل وقفتها للدفاع عن الحسين عليه السلام وقضيته وثورته، قبل استشهاده وبعد ذلك.

على أن موقف النساء الأخريات ممن كن ضمن موكب الحسين عليه السلام كان موقفاً يتسم بالشجاعة والثبات رغم هول الكارثة التي كن مقبلات عليها والتي انتهت باستشهاد الحسين وأصحابه عليه السلام وقطع رؤوسهم وارسالها مع موكبهن إلى يزيد خلال مسيرة طويلة بدأت من كربلاء وانتهت بالشام لتبدأ المرحلة الثانية منها من هناك وحتى المدينة.

ولنا أن نتصور ردّ فعل أولئك النساء الخفرات المحجبات ممّن كن قدوة لكل نساء المسلمين وقد عرضن بشكل مفزع لأقسى ضروب الامتهان والمعاملة الوحشية من قبل قتلة الحسين عليه السلام حتى أنهم سلبوا ما كان يسترهن من ملابس وعرضوهن لأنظارهم في ذلك الموقف الدقيق الذي فقدن فيه أحباءهن من الآباء والاخوة والأزواج والأبناء.. ليضيفوا إلى آلام الثكل وفراق الأحبة بذلك الشكل المرعب، آلام الاهانة والتنكيل بأقدس عائلة في المسلمين.

ولعل قيام امرأة من الكوفة بجلب مجموعة من الملاء والازر والمقانع رد إليهن روعهن وجعلهن يتصدين للجمع المتفرج بوقاحة ودون حياء، بغضب كان جديراً أن ينفجر في تلك اللحظات، وإلا فما ذا بقي للمسلمين إن هم أقدموا على اهانة عائلة الرسول صلى الله عليه وآله نفسه بتلك الطريقة المخزية.

وقد استمعنا لخطبة زينب في أهل الكوفة المتجمعين لمشاهدة ركب النساء العائد من كربلاء وهو يشق طريقه بينهم، وكأنهم يشاهدون فرقة من الأشخاص تقوم بتسليتهم أو جماعة تستعرض أمامهم بعض الفعاليات والألعاب المسلية.

فاطمة الصغرى: بلاغة كبلاغة أخيها

وكانت فاطمة الصغرى قد ألقت خطبة مندّدة أخرى بأهل الكوفة، كان بيانها جديراً بمن ربت في بيت البيان، وقد جاء في خطبتها:

(الحمد لله عدد الرمل والحصى، وزنة العرش إلى الثرى، أحمده وأؤمن به، وأتوكل عليه. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ، وأن ولده ذبحوا بشط الفرات، بغير ذحل ولا تراث.

اللهم إني أعوذ بك أن افتري عليك الكذب، وأن أقول عليك خلاف ما أنزلت من أخذ العهود لوصيّه علي بن أبي طالب، المسلوب حقه، المقتول من غير ذنب، كما قتل ولده بالأمس، في بيت من بيوت الله تعالى، فيه معشر مسلمة بألسنتهم. تعساً لرؤوسهم ما دفعت عنه ضيماً في حياته ولا عند مماته، حتى قبضته إليك محمود النقيبة، طيّب العريكة، معروف المناقب، مشهور المذاهب، لم يأخذه اللهم فيك لومة لائم، ولا عذل عاذل، هديته يا رب للإسلام صغيراً، وحمدت مناقبه كبيراً، ولم يزل ناصحاً لك ولرسولك، صلواتك عليه وآله، حتى قبضته إليك زاهداً في الدنيا غير حريص عليها، راغباً في الآخرة، مجاهداً لك في سبيلك، رضيته، فاخترته وهديته إلى صراط مستقيم.

أما بعد: يا أهل الكوفة، يا أهل المكر والغدر والخيلاء، فإنّا أهل بيت ابتلانا الله بكم، وابتلاكم بنا، فجعل بلاءنا حسناً، وجعل علمه عندنا وفهمه لدينا، فنحن عيبة علمه، ووعاء فهمه وحكمته، وحجته في الأرض لبلاده ولعباده، أكرمنا الله بكرامته، وفضلنا بنبيّه محمد ﷺ على كثير ممن خلق تفضيلًا بيّنا فكذبتمونا وكفرتمونا، ورأيتم قتالنا حلالًا وأموالنا نهباً، كأنا أولاد ترك أو كابل، كما قتلتم جدنا بالأمس، وسيوفكم تقطر من دمائنا أهل البيت، لحقد متقدم، قرّت بذلك عيونكم، وفرحت قلوبكم، افتراء منكم على الله، ومكراً مكرتم والله خير الماكرين. فلا تدعونكم أنفسكم إلى الجذل بما أصبتم من دمائنا، ونالت أيديكم من أموالنا، فإن ما أصابنا من المصائب الجليلة والرزايا العظيمة ﴿فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[1].

(١) الحديد: ٢٢/ ٢٣.

تباً لكم، فانتظروا اللعنة والعذاب، وكأن قد حل بكم، وتواترت من السماء نقمات فيسحتكم بما كسبتم، ويذيق بعضكم بأس بعض، ثم تخلدون في العذاب الأليم يوم القيامة بما ظلمتمونا، ألا لعنة الله على الظالمين.

ويلكم، أتدرون أية يد طاعنتنا منكم، وأية نفس نزعت إلى قتالنا، أم بأية رجل مشيتم إلينا تبغون محاربتنا! قست قلوبكم، وغلظت أكبادكم، وطبع على أفئدتكم، وختم على سمعكم وبصركم، وسول لكم الشيطان وأملى لكم، وجعل على بصركم غشاوة، فأنتم لا تهتدون.

تباً لكم يا أهل الكوفة، أي تراث لرسول الله قبلكم، وذحولٍ له لديكم، بما عندتم بأخيه علي بن أبي طالب عليه السلام جدي ونبيه عترة النبي الطاهرين الأخيار، وافتخر بذلك مفتخركم فقال:

[قد قتلنا بالطف آل عليّ][1] بسيوف هندية ورماح
وسبينا نساءهم سبي ترك ونطحناهم فأيَّ نطاح

بفيك أيها القائل الكثكث و [لك] الأنكب افتخرت بقتل قوم زكاهم الله وطهرهم واذهب عنهم الرجس! فاكظم واقع كما أقعى أبوك، وإنما لكل امرىء ما قدمت يداه، حسدتمونا ويلًا لكم على ما فضلنا الله عليكم.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[2] ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[3]. . .)[4].

وكان ذلك الموقف الذي تحدث فيه الإمام زين العابدين وزينب قبل ذلك مشحوناً بالعواطف المتناثرة، عواطف الندم لتخليهم عن نصرة الحسين عليه السلام وقد دعوه لنصرتهم وقيادتهم والرجاء أن تتاح لهم الفرصة ثانية لمنازلة الدولة الأموية وقد عبروا عن ذلك بالفعل وطلبوا من الإمام قيادتهم للانتقام من قتلة أبيه وأنصاره إلا أنه

(١) ورد هذا الشطر هكذا [نحن قتلنا علياً وبني علي] وهو لا يستقيم مع الوزن. وربما كان الشطر الذي ذكرناه يستقيم مع الوزن.

(٢) الجمعة ٤ الحديد ٢١.

(٣) إبراهيم: ٤٠.

(٤) البحار ٤٥/ ١١٠ - ١١ عن الملهوف ص ١٢٧ - ١٣٧ والاحتجاج ١٥٥ - ١٥٦.

رفض ذلك.. وعواطف الحزن والمرارة والألم لأنهم وضعوا أنفسهم في ذلك الموقف الدقيق الذي أحسوا فيه بهوانهم هنا وفي الآخرة وأنهم مقبلون على حساب شديد فيها حيث لا تنفعهم الأعذار والحجج.

وإذ تحدثت فاطمة الصغرى[1] وأم كلثوم بنت أمير المؤمنين عليه السلام، فإن الموقف قد تفجر بعواطف الندم والحزن والتذمر من السلطة الأموية وأعوانها في العراق.

أم كلثوم: «قتلتم خير الرجالات بعد النبي»

وقد روى السيد ابن طاووس أن الناس قد ضجت بالبكاء بعد خطبة قصيرة لأم كلثوم قالت فيها: (يا أهل الكوفة سوأة لكم، ما لكم خذلتم حسيناً، وقتلتموه وانتهبتم أمواله وورثتموه، وسبيتم نساءه ونكبتموه، فتباً لكم وسحقاً.

ويلكم أتدرون أيَّ دواة دهتكم! وأي وزر على ظهوركم حملتم! وأي دماء سفكتموها، وأي كريمة أصبتموها، وأي صبية سلبتموها، وأي أموال انتهبتموها..!؟ قتلتم خير الرجالات بعد النبي، ونزعت الرحمة من قلوبكم إلا أن حزب الله هم الفائزون و﴿حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[2]...)[3].

ثم أن الناس ضجّوا (بالحنين والنوح، ونشرت النساء شعورهن ووضعن التراب على رؤوسهن، وخمشن وجوههن، وضربن خدودهن، ودعون بالويل والثبور، وبكى الرجال، فلم ير باكية وباك أكثر من ذلك اليوم)[4].

ومهما يكن من أمر: فماذا كان يمكن أن يتوقع أهل الكوفة من النسوة اللاتي كن بالأمس معززات مكرمات في ظل أعز وأكرم عائلة في المسلمين، عائلة رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد تعرضن للاهانة والسلب والأذى على أيديهم عندما جعلوا أنفسهم أدوات بأيدي الظلمة يوجهونها كيفما شاءوا.

لم يواجهنهم بنفس أسلوبهم وبذاءاتهم.. وما كان بامكانهن فعل ذلك حتى لو

---

(١) تمييزاً لها عن جدتها فاطمة الزهراء بضعة الرسول صلى الله عليه وآله.

(٢) المجادلة: ١٩.

(٣) و(٤) البحار ٤٥/ ١١٢ عن الملهوف والاحتجاج.

رغبن فيه، فتربيتهن في بيت الرسالة كانت تجعلهن بمستوى أولئك الذين تعهدوهن بالتربية والتنشئة.

وإذا ما أفضن ببلاغتهن واستشهدن بآيات من القرآن الكريم، فإن ذلك كان بحكم تلك التربية والتنشئة في ظل علي والحسن والحسين عليهم السلام الذين كانوا قرآناً ناطقاً.. وإذ أنهن حملن هموم الرسالة واندفعن مشاركات في ركب الثورة، فإنهن رأين أن مهمتهن لم تنته بعد انتهاء الواقعة وأن عليهن أن يعرفن الأمة بتلك الثورة وأهدافها، ويؤكدن للجميع أن الحسين وأصحابه لم يكونوا خاسرين في تلك المعركة، بل أن الأمة كلها هي الخاسرة عندما عجزت عن تحمل مسؤولياتها والالتحاق بموكب الحسين عليه السلام.

٢ - مواقف لنساء أخريات

تطالعنا في خضم الأحداث التي رافقت ثورة الحسين مواقف ونماذج متعددة لنساءٍ كنَّ مع الحسين عليه السلام وثورته، وقد كان لبعضهن مواقف معروفة خاصة بهن ولبعضهن الآخر مواقف اشتركن فيها مع عموم النساء والأخريات.

ومما يلفت النظر حقاً أن النساء كن عموماً متحيزات لآل البيت عليهم السلام بما فيهن نساء الكوفة وحتى نساء بعض من شاركوا بقتل الحسين عليه السلام وسلبه وحتى نساء يزيد وأم ابن زياد (مرجانة).. ناهيك عن نساء المدينة والبصرة وغيرها من مدن العالم الإسلامي.

ولعل النساء لم يستسلمن بالسهولة التي استسلم بها رجالهن، آباء وأزواجاً وأبناء وأخوة، للسلطة في غمرة تعرضهم المباشر لها، وإنما احتفظن، بحكم بقائهن بعيدات عن الرقابة وعين السلطة وشعورها ـ ربما ـ بقلة تأثيرهن وضعف دورهن بمجريات الأحداث، بخيط من العلاقة الشفافة المستنيرة مع الإسلام وقادته الحقيقيين، أدركن معه طبيعة أولئك القادم من آل البيت .. ومن هم، وخصوصاً الحسين عليه السلام الذي برز في تلك المرحلة وكأنه يقف وحيداً بمواجهة كل أعوان الدولة ومرتزقتها.

ولعل محاولات معاوية الدؤوبة في غسيل أدمغة عموم المجتمع لم تصل إليهن بعد بشكل مؤثر، ولم يلحق لاكمالها بين صفوفهن، بعد أن كاد يكملها في قطاعات واسعة في مجتمع الرجال وخصوصاً في مجتمع الشام.

ومهما يكن من أمر، فإن الأمر الملفت للنظر حقاً، هو عدم اكتفاء العديد من النساء، باستنكار الموقف المخزي الذي وقفته الدولة الأموية وأعوانها من الحسين عليه السلام في معركة الطف، وإنما قيام بعضهن بالمشاركة في هذه المعركة ومرافقة أزواجهن ونبيهّن إلى كربلاء وبذل جهود كبيرة لحثهم على الدفاع عن الحسين عليه السلام بل والنزول إلى الساحة بأنفسهن للمشاركة، وقد قتلت احداهن فعلاً في تلك الساحة.

مارية ابنة سعد

وقد برز لنا نموذج لامرأة مجاهدة في البصرة (من عبد القيس، يقال لها مارية ابنة سعد ـ أو منقذ ـ وكان منزلها مألفاً)[١] يجتمع فيه معارضوا النظام والمطالبون بالتغيير وتصحيح الأوضاع المنحرفة.. وكانت تلك الاجتماعات تتم رغم الرقابة الشديدة التي فرضها ابن زياد على البصرة.

وقد حدّث أبو المخارق الراسبي أن يزيد بن نبيط ـ وهو من أقاربها من عبد القيس أيضاً ـ قد أرفع الخروج أيضاً إلى الحسين عليه السلام.. (فقال لأصحابه في بيت تلك المرأة: إني قد أزمعت على الخروج، وأنا خارج. فقالوا له: إنا نخاف عليك أصحاب ابن زياد.. وكان قد كتب إلى عامله بالبصرة أن يضع المناظر ويأخذ بالطريق)[٢].

إلا أنه خرج ومعه ابنان له، حتى انتهى إلى الحسين عليه السلام.. (ثم أقبل معه حتى أتى فقاتل معه، قتل معه هو وابناه)[٣].

نسوة مراد.. تحريض الأزواج والأبناء على القتال..

وعندما سجن عبيد الله بن زياد هانىء بن عروة بعد أن آمنه واستدرجه إلى قصره، خرج قومه من مذحج يريدون تخليصه من السجن يقودهم عمرو بن الحجاج.. وإذ أنهم كانوا غير جادّين بمهمتهم وكان ابن الحجاج في باطنه إلى جانب

(١) الطبري ٣/ ٢٧٨.

(٢) و(٣) المصدر السابق ٣/ ٢٧٨ - ٢٨٦ - ٢٨٨.

ابن زياد ـ وقد كان أحد القواد الذين شاركوا بجريمة قتل الحسين وأصحابه في الطف، فإنهم اكتفوا بشهادة شريح القاضي التي أبلغهم فيها أن هانىء حي وأن ما بلغهم عن قتله باطل، وأن الأمير لم يفعل شيئاً سوى أن ضربه (لأن الأمير مؤدب) على حد قوله، فإنهم انصرفوا تاركين شيخهم في السجن، حامدين الله على هذه النتيجة التي جنبتهم القتال وقنعوا بالسلامة لأنفسهم رغم أن هانئاً كان معرضاً لخطر القتل، ولم يعملوا على تخليصه، رغم أن عددهم كان كبيراً جداً، وكان بامكان عشرة منهم أن يخلصوه.

غير أن (نسوة المراد مجتمعات، ينادين: يا عثرتاه، يا ثكلاه..)[1] قد هجن المشاعر، وجعلن أربعة آلاف من أهل الكوفة يلتفون حول مسلم ليخلصوا هانئاً، ويعلنوا ثورتهم بوجه ابن زياد، وإن كان ذلك قبل أوانها مماأضربها، إذ قام حشد (الأشراف) الملتفين حول ابن زياد بحملة محمومة لاقناع الناس للتخلي عن مسلم مما أدى إلى أن يتخلوا عنه فعلًا وقتله في النهاية مع هانىء.

طوعة: موقف مبدئي مع مسلم

وفي مشهد آخر نرى (طوعة)، أم ولد كانت للأشعث بن قيس، فأعتقها، ثم تزوجت أحد الحضرميين فولدت له ابناً اسمه بلال (كان شريداً من الناس، وكان يشرب مع أصحاب له)[2].

لقد استقبلت مسلم، وآوته في دارها، بعد أن علمت من هو، وعلمت أن الناس قد تخلوا عنه.. وحاولت أن تخفيه عن ابنها خوفاً من أن يشي به لدى ابن زياد.

لقد فعلت ذلك رغم معرفتها بقسوة ابن زياد وجدّه في طلب مسلم، ولم تستسلم للاغراءات والرشوة إذا ما هي قامت بتسليمه أو الوشاية به.

غير أنها لم تفلح في النهاية في التستر عليه أكثر من ذلك.. إذ أن ذلك الابن الشريد السكير قد علم بالأمر ووشى بمسلم رغم محاولات أمه للتكتم عليه وابقائه سالماً.

(١) و(٢) المصدر السابق.

دلهم بنت عمرو: «اذهب إلى الحسين»، وأُمّ وهب

ونستمع في مشهد آخر لِ (دلهم بنت عمرو) زوج زهير بن القين، عندما تردد في المثول بين يدي الحسين وقد كان يسايره في الطريق، وقد استدعاه الحسين عليه السلام ليأتيه. . قالت له: (سبحان الله، أيبعث إليك ابن رسول الله، ثم لا تأتيه، فلو أتيته فسمعت من كلامه، ثم انصرفت)[1].

وذهب زهير بناء على نصيحتها. . ثم عاد مستبشراً بعد أن قرر أن يذهب مع الحسين عليه السلام ويقاتل معه، وقال لامرأته: (الحقي بأهلك، فإني لا أحب أن يصيبك بسببي إلّا خير، وقد عزمت على صحبة الحسين.

فقامت إليه وودّ عنه وقالت: خار الله لك، أسألك أن تذكرني عند جدّ الحسين يوم القيامة)[2].

وبقي زهير مع الحسين عليه السلام، واستشهد بين يديه، وسجل تلك المواقف الفريدة الجديرة بمن صاحبوا الحسين ونصروه.

وتطالعنا أم وهب بنت عبد زوج عبد الله بن عمير من بني عليم، وقد رافقت زوجها للالتحاق بالحسين عليه السلام بعد أن (رأى القوم بالنخيلة يعرضون ليسرحوا إلى الحسين عليه السلام)[3] وعندما قال لها: (والله لقد كنت على جهاد أهل الشرك حريصاً، وإني لأرجو ألا يكون جهاد هؤلاء الذين يغزون ابن بنت نبيهم أيسر ثواباً عندالله من ثوابه إياي في جهاد المشركين)[4] قالت له: (أصبت، أصاب الله بك أرشد أمورك، افعل وأخرجني معك. . فخرج بها ليلًا، حتى لقي حسيناً فأقام معه)[5].

وقد استشهد ابن عمير بين يدي الحسين عليه السلام بعد أن أبدى بطولة فائقة. . فأخذت زوجة أم وهب عموداً تقاتل به أعداءه، وذلك قبل أن يقتل، وهي تقول له مشجعة: (فداك أبي وأمي، قاتل دون الطيبين، ذرية محمد صلى الله عليه وآله، فأقبل يردها

---

(١) و(٢) الطبري ٣/ ٣٠٢ وابن الأثير ٣/ ٢٧٨ والخوارزمي ١/ ف ١١ وروضة الواعظين ص ٢٧٨ وأنساب البلاذري ٣/ ١٦٨ والارشاد ٢٠٥ مع اختلافات يسيرة وقد تعرضنا للقصة كاملة عند استعراض سيرة زهير بن القين.

(٣) - (٥) الطبري ٣/ ٣٢١.

نحو النساء، فأخذت تجاذب ثوبه، ثم قالت: إني لن أدعك دون أن أموت معك)[1].

وقد ناداها الحسين عليه السلام قائلًا: (جزيتم من أهل بيت خيراً، ارجعي رحمك الله إلى النساء، فاجلسي معهن، فإنه ليس على النساء قتال، فانصرفت إليهن)[2].

وعندما استشهد زوجها، خرجت إليه ثانية (حتى جلست عند رأسه تمسح عنه التراب وتقول: هنيئاً لك الجنة، فقال شمر بن ذي الجوشن لغلام يسمى رستم: اضرب رأسها بالعمود، فضرب رأسها فشدخه، فماتت مكانها)[3] **شهيدة مع أصحاب الحسين عليه السلام.**

وتطالعنا أيضاً أم وهب بن حباب الكلبي وزوجته أيضاً.. ويبرز مشهد جدير بالملاحظة.. فعندما برز وهب للقتال وقتل جماعة من أعدائه رجع إلى أمه قائلًا: أرضيت عني أم لا...

وهنا يرتفع صوتان متباينان، صوت الأم وهي تقول: لا أرضى حتى تقتل بين يدي الحسين ابن بنت رسول الله، وصوت الزوجة التي توشك أن ترى نفسها وحيدة دون زوجها وهي تقول: بالله عليك لا تفجعني بنفسك.. وهنا تحثه أمه على الرجوع والقتال بين يدي الحسين عليه السلام.

وقد رجع وقاتل حتى قتل.

وكان رد فعل الأم والزوجة كلتاهما هو رغبتهما في الذهاب إلى الساحة بنفسيهما للقتال، وقد ردهما الحسين عليه السلام إلى مخيم النساء.

لقد رأتا عدالة قضية الحسين عليه السلام وكانت من الوضوح لديهما حتى أنهما حسبتا أن على كل فرد أن يشارك فيها حتى ولو كان امرأة لم تكلف بالقتال قبل ذلك[4].

ونرى أم الشاب الذي قتل أبوه في المعركة، وقد حثته على الخروج والقتال بين

---

(١) - (٣) الطبري ٣/ ٣٢٢ - ٣٢٦ والنويري ٢٠/ ٤٥٠ وابن الأثير ٣/ ٢٩١ والخوارزمي ٢/ ١٣ والبحار ٤٥/١٦- ١٧.

(٢) راجع المصادر التي تطرقنا إليها في هذا الفصل ويراجع مقتل الحسين/ السيد محمد تقي آل بحر العلوم ٣٩٤ - ٣٩٥ والبحار ١٧ - ١٨.

يدي الحسين عليه السلام . . وإذ أن هذه المرأة فقدت زوجها، فقد كان من المتوقع أن تكون حريصة على حياة ابنها. . لذلك فإن الإمام الحسين عليه السلام حاول منعه من القتال قائلاً: (هذا شاب قُتل أبوه، ولعل أمه تكره خروجه. .)[1] إلا أن الشاب أصر على المشاركة بالقتال، وقال للحسين عليه السلام: أمي أمرتني بذلك. . فبرز وهو يقول:

أميري حسينٌ ونعمَ الأمير ... سرور فؤاد البشير النذير
عليٌ وفاطمة والداه ... فهل تعلمون له من نظير
له طلعة مثل شمس الضحى ... له غرة مثل بدر منير[2]

وعندما قتل هذا الشاب، حاولت تلك المرأة الباسلة أن تحمل على أعداء الحسين وتقاتلهم إلا أن الحسين عليه السلام أمر بصرفها، ودعا لها.

امرأة من بكر بن وائل: يا لثارات رسول الله ﷺ، وامرأة الكندي

وروى حميد بن مسلم أنه رأى امرأة من بكر بن وائل كانت مع زوجها في أصحاب عمر بن سعد. . أي في الجانب المعادي للإمام عليه السلام. . غير أنها عندما رأت أن القوم قد تمادوا في عدوانهم إلى حد اقتحام فسطاط نساء الحسين عليه السلام وهم يسلبونهن. . أدركت الدوافع الحقيقية من وراء شن تلك الحرب على الحسين عليه السلام، وأدركت أن تلك الحرب إنما كانت تشن على الإسلام وعلى رسول الله ﷺ نفسه. . وقد (أخذت سيفاً وأقبلت نحو الفسطاط، فقالت: يا آل بكر بن وائل، أتسلب بنات رسول الله؟ لا حكم إلا الله. . يا لثارات رسول الله. . فأخذها زوجها وردها إلى رحله)[3].

ولم يمنع نداؤها القوم من اخراج النساء من الخيمة واشعال النار فيها.

وعندما أثخن الحسين عليه السلام بالجراح بعد أن بقي وحيداً يقارع أعداءه، تلقى ضربة غادرة بالسيف على رأسه من قبل رجل من كِندة يقال له مالك بن النسير من بني بداء. وقد قطعت الضربة برنساً كان يضعه على رأسه، وأصاب السيف رأسه فأدماه

---

(١) و(٢) البحار ٤٥/ ٢٧ - ٢٨ والخوارزمي ٢ - ٢٢ ومناقب ابن شهرآشوب ٤/ ١٠٤.
(٣) البحار ٤٥/ ٥٨ واللهوف ٥٥ ومثير الأحزان ص ٤٠.

فامتلأ البرنس دماً (فقال له الحسين: لا أكلت بها ولا شربتَ وحشرك الله مع الظالمين.

فألقى ذلك البرنس، ثم دعا بقلنسوة فلبسها واعتمّ.

وجاء الكندي حتى أخذ البرنس ـ وكان من خز)[1] وقدم به على امرأته أم عبدالله ابنة الحر، أخت حسين بن الحر البدّي، وأقبل يغسل البرنس من الدم. . وقد حسب أنه جاء بغنيمة كبيرة وقام بفعل عظيم، وإن من شأن ذلك أن يحسن من صورته لدى امرأته، وأنها ستزداد اعجاباً به.

غير أن تلك المرأة، وقد أدركت فداحة الجرم الذي ارتكبه توجهت إليه باللوم الشديد وطردته من بيتها قائلة: (أتدخل بيتي بسلب ابن رسول الله؟ اخرج عني حشا الله قبرك ناراً)[2].

(فذكر أصحابه أنه لم يزل فقيراً بشرّ حتى مات)[3] (ويبست يداه، وكانتا في الشتاء تنضحان دماً، وفي الصيف تصيران يابستين كأنهما عودان)[4].

لقد وجدت تلك المرأة الشجاعة الكافية لتطرد زوجها الذي حسب نفسه منتصراً وجاء رافعاً رأسه أمامها. . وأفهمته أنه لم يكن سوى سفاح انقاد لإرادة شريرة جعلته يرتكب تلك الجريمة المنكرة.

النوار بنت مالك: استنكار للجريمة

وروت لنا النوّار بنت مالك، التي وقفت موقفاً مماثلًا لموقف أم عبدالله ابنة الحر البدي زوج مالك بن النسير من زوجها، عندما حمل رأس الحسين عليه السلام منتظراً طلوع الفجر ليدخل به على ابن زياد.

كان خولي بن يزيد وهو زوج النوار قد ورد الكوفة عند المساء فوجد باب القصر مغلقاً، فأتى منزله فوضعه تحت اجانة في منزله، وله امرأتان: امرأة من بني أسد، والأخرى هي النوار ابنة مالك بن عقرب. . وهي التي روت لنا ذلك، فقالت:

---

(١) الطبري ٣/ ٣٣١ - ٣٣٢.

(٢) و(٣) البحار ٤٥/ ٥٣ والطبري ٣/ ٣٣٢.

(٤) البحار ٤٥/ ٥٣.

(أقبل خولي برأس الحسين، فوضعه تحت اجانة في الدار، ثم دخل البيت، فآوى إلى فراشه، فقلت له: ما الخبر؟ ما عندك؟.

قال: جئتك بغنى الدهر، هذا رأس الحسين معك في الدار فقلت: ويلك، جاء الناس بالذهب والفضة، وجئت برأس ابن رسول الله ﷺ! لا والله لا يجمع رأسي ورأسك بيت أبداً.

فقمت من فراشي، فخرجت إلى الدار، فدعا الأسدية، فأدخلها إليه، وجلست أنظر. فوالله، ما زلت انظر إلى نور يسطع مثل العمود من السماء إلى الاجانة، ورأيت طيراً أبيض ترفرف حولها)[1].

كان خولي أيضاً يحسب أنه سيبهر زوجته بما قام به، وكان يحسب أنها ستفرح وقد كان موشكاً على نيل المكاسب الكبيرة من ابن زياد.. غير أنه فقد زوجته كما أن ابن زياد لم يمنحه ما كان يتوقع من أموال طائلة.. وقد خاب مسعاه وخسرت تجارته.

هند بنت عبد الله: «أرأس الحسين بن فاطمة بنت رسول الله»

وقد رأينا كيف تعاطفت نساء الشام ونساء آل معاوية أنفسهن مع نساء الحسين عليه السلام عندما أدخلن دار يزيد وهنَّ بتلك الحال المزرية.. (فلم تبق من آل معاوية امرأة إلا استقبلتهن تبكي وتنوح على الحسين، فأقاموا عليه المناحة ثلاثاً)[2] فقد (صاح نساء آل يزيد وبنات معاوية وأهله وولولن.. فلم تبق امرأة من آل يزيد إلا أتتهن)[3].

وحتى زوجة يزيد نفسها ـ هند بنت عبد الله بن عامر بن كريز ـ احتجت على تصرف يزيد عندما جلب إليه رأس الحسين عليه السلام.. (فتقنعت بثوبها، وخرجت، فقالت: أرأس الحسين بن فاطمة بنت رسول الله)[4] وكانت بذلك تؤنبه على فعلته بالحسين وأصحابه.. ولم تنتظر أن تلقاه بعد أن يقوم من مجلسه فاقتحمت عليه ذلك

(١) الطبري ٣/ ٣٣٥ - ٣٣٦ والبحار ٤٥/ ١٢٥.
(٢) الطبري ٣/ ٣٣٩.
(٣) المصدر السابق ٣/ ٣٤٠.
(٤) نفس المصدر ٣/ ٣٤١.

المجلس بذلك الشكل وخاطبته بتلك الطريقة التي جعلته يعتذر بعد ذلك ويلقي المسؤولية كلها على عبيدالله بن زياد.

وحتى مرجانة استنكرت قتل الحسين عليه السلام: «يا خبيث قتلت ابن رسول الله صلى الله عليه وآله لا ترى الجنة أبداً».

وحتى مرجانة أم عبيدالله بن زياد أنكرت عليه اقدامه على قتل الحسين عليه السلام.

قال المغيرة: (قالت مرجانة لابنها عبيدالله بعد قتل الحسين: يا خبيث، قتلت ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، لا ترى الجنة أبداً)(١). وما نحسب أن أماً تواجه ابنها بما واجهت به مرجانة عبيدالله، لو لم تكن جريمته بتلك الخطورة التي ألحقت الأذى بالمسلمين كافة، لا الحسين وصحبه عليه السلام وحسب.

وسنرى ـ عند الحديث عن نتائج الثورة ـ العديد من المواقف الباسلة للمرأة المسلمة التي نصرت الحسين عليه السلام ودفعت أباها وابنها وزوجها وأخاها للسير في طريقه والأخذ بثأره من دولة الظلم وأعوانها... مما ألحق أشد الأذى بهذه الدولة وكل دول الظلم على امتداد تاريخ الإسلام، وجعل الأمة تتنبَّه بشكل واضح إلى الخطر الأكيد الذي تتعرض له في ظل هذه الدول المنحرفة، وجسامة ما هي مقبلة عليه إن سكتت إلى النهاية ولم تتصدّ لها، كما تصدى الإمام الحسين وصحبه عليهم السلام.

---

(١) ابن الأثير ٤/ ٦٣، وروى الطبري أنها قالت لعبيد الله حين قتل الحسين عليه السلام: (ويلك ماذا صنعت! وماذا ركبت..!) ٣/ ٣٥٣.